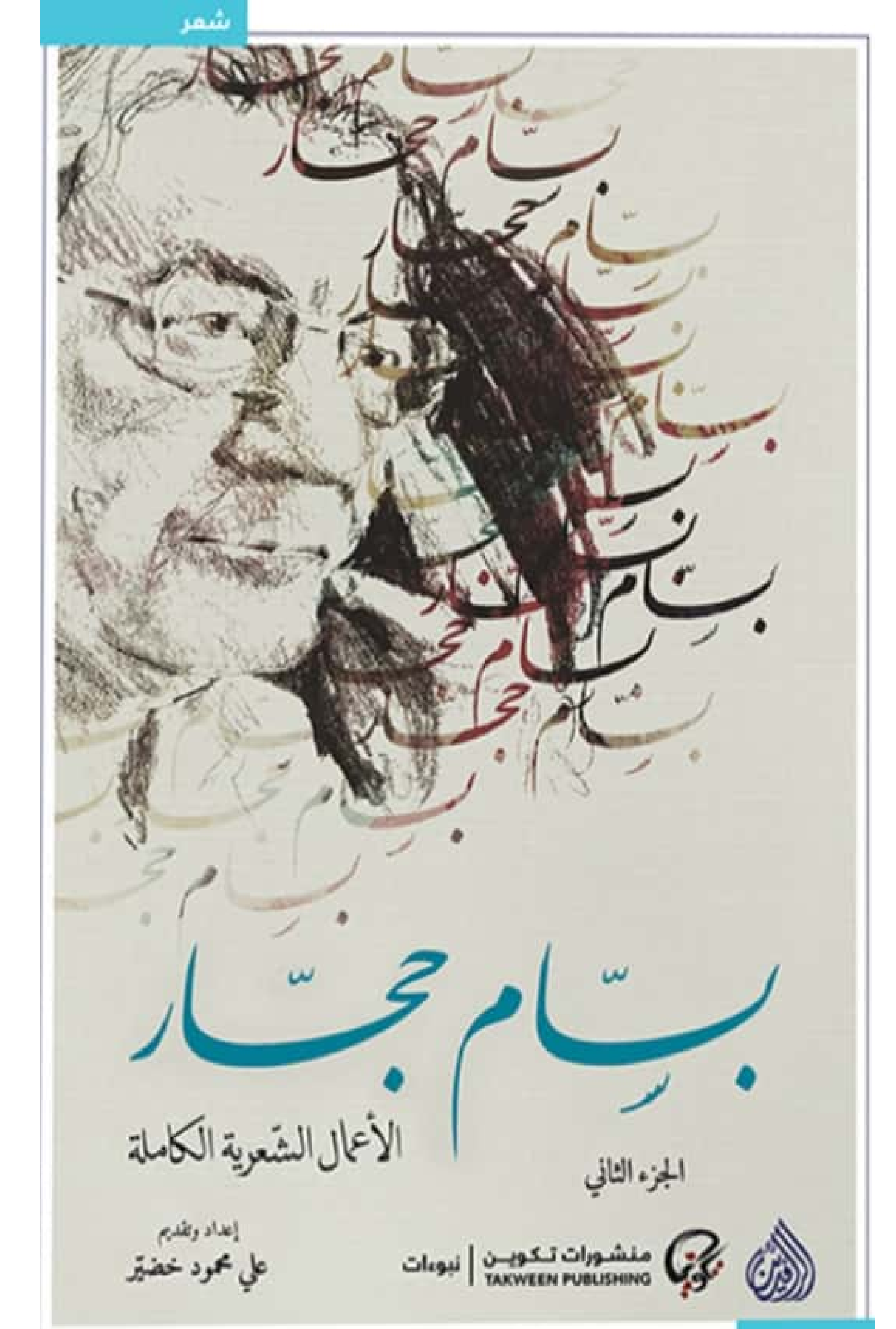


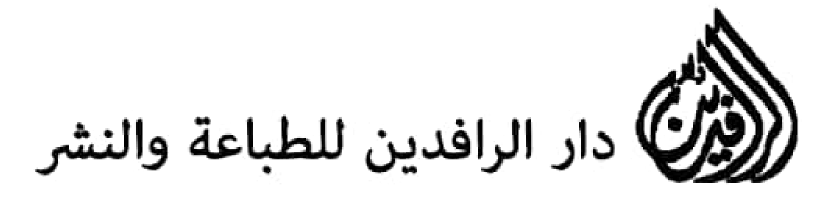
شعر
بسام حجار
الأعمال الشّعرية الكاملة
الجزء الثاني
إعداد وتقديم
علي محمود خضير
منشورات تكوين | نينوى
TAKWEEN PUBLISHING

علي محمود خضير

بسام حجار

الجزء الثاني

الأعمال الشعرية الكاملة



دار الرافدين للطباعة والنشر

مُعجَمُ الأشواق

١٩٩٤

إليكِ

(I)

بلاغةُ الجناس المُملّ

الشفافيةُ، والصدقُ مع الذات، وهوَ المَبدأ المولّدُ للشفافيةِ، جعلا العالمَ بلا مظهر. بلا مظاهرَ أو تَوْريات. جَعَلَته خلوّاً من الإغْواء. والإغواءُ، من الفردوس المسيحي وحكاية الأفعى والتفاحة إلى كتبِ جيرار دوفيليه وشيري أو علامةُ لعنةٍ وسقوطٍ في التَّجْرِبة والخطيئة. ذلك أنّ الإغواءَ تبادلٌ (وتَبَدُّلٌ طوعي) للمظاهر. إنه فن التحوّلِ بامتياز. إذ لا إغواء دون الانتشاء بأن لا تكون ذاتك. وفيه شبهة من الكذب، بمقدار ما فيه من الحِيلَة. فالمغويّ مكّار، ولا وجود له إلّا إذا اقترن وجوده برغبته الطاغية في أن يظهر على هيئة ليست له في الأصل. لذلك يتقوّم نهجُ الإغواء بدايةً من الإحساسِ العميق بالتشاؤم. فمن يَتوسّل الإغواء ليس العاشق الّذي لا يُحرّك ساكناً ولا يَدُ لَهُ في غرام النظرة الأولى المتبادل.

بل هو الّذي يحصد عدم الاكتراث واللامبالاة بدايةً، وقد لا يظهر في عين الآخر على صورة محببة. لذلك كانت الغِوايةُ إلى خفوتٍ في عصر الرومنطقية، وإذا استثنينا عصر المَشاعر النبيلةِ والجموحِ العاطفيّ، لما كان للغواية حقبة ازدهرت فيها. حتّى السوريالية صنّفت الإغواءَ في مرتبة أدنى من المصادفة والتلقائية وصدمة الاتفاق المجاني. كذلك حقبة أيديولوجيات

التحرر وسطوة الإعلان والعناية بالجسم للحفاظ على «حقيقته الطبيعية»، على حريته المزعومة. واستند خطاب الإعلان والطب والأخلاق إلى «بدهية الجسد»، وشَبه الجَسَد لذاته، لحقيقة له مزعومة. وكانت غلبةُ الانسجام، وانْطَوَت الغِوَاية، وانكفأ الإغواءُ وراجت الإباحة. وأصبح مشهد العالم مُملّاً. كلّ شيء يُشبه ذاته، ويشبه كلّ شيء. صورٌ متعاكسةٌ لمبدأ الحكمةِ الوحيد: الشفافية. فأصبحت العينُ لا ترى المظهرَ، بل خلاله ما ينمّ عن أصالة فيه، وصدقية وحقيقة.

لذلك ما عادت الأشياء تغوي. وفي سيل من جماليات التفاؤل، في المسرح والسينما والتلفزيون، وفي أنواع الكتابة قاطبةً، لا يعثر الرائي أو القارئ أو المشاهدُ إلّا على ما يؤكّد شبَه كلّ شيء بذاته.

بلاغةُ الجناسِ المُملّ. لا الافتراق المُحيِّر. بلاغة الانسجام لا شقاق التشوّق.

(II)

حين يوقظُ اللَمس الجنون

[فَرقَّ لهما يسوع، ولمس أعينهما فأبصرا لوقتهما، وتبعاه]

(متّى 20: 34)

أعمق لحظاتِ التّخاطُب بينَ متكلِّمَين أو صامِتَيْن، المُلامَسة. لا بل قد تكون لها قدرة غريبة على الشّفاء. والمثالُ هنا ليسَ المعجزة فقط. فالشفاءُ إبراءٌ من العِلّةِ في وَجْهٍ منه، لكنّه أيضاً، على زَعم مفسّري ابن سينا، صوغُ الجوابِ الشافي، أي إشباع المُخاطبةِ بأن تنالَ مرادَ خطابِها.

وما يَجْعَلُ اللَمْسَ بين المُحبّين ذروةَ المخاطبةِ إذ يَنَال من هذه العياءَ الكلاميّ، هو أنّه (أي اللمس) إفضاءٌ إلى الآخر باليَد، أو إجراءٌ لليدِ على مَوضعٍ منه. ولا يكتفي المحبُّ بأن يكون اللمسُ صلةً بالآخر عبر الحاسّةِ الصّمّاء. لذلك يستحيلُ اللمسُ في إلحاح الرغبةِ المُضْمَرةِ تَلمُّساً. وإذا كان من معنى اللَمس، لغةً، الطَّلَبُ (لَمَسَ الشيءَ أي طلبه) فإنّ تلمُّسَ الشيء هو تطلّبه مرةً بعدَ الأخرى. والدلالةُ هنا أعمق من التّطلّب في السؤالِ إذا ألحّ في نيل الإجابةِ أو الاستجابة.

ليس مصادفةً أن يَلْجأ المحبونَ إلى صِلَةٍ ولو خاطفة بالآخر عبر اللَمسة، فأحياناً تكون، على غرار المُعجِزة،

إعجازاً في إقامة الاتصال، ومنه الفهمُ، عبر المُدرِك الحسّي المباشر. فالمركوز في طبع الأيدي أنّها لا تكذب، في حين يَكذب الكلامُ كثيراً حين يَصْدُق. والوهمُ الأجمل في صلَة المُلامَسة أن اللَّمْسَ لا يدعو إلى برهانٍ منه يُستَنْتَجُ الصدقُ أو البُطلان. فاللّمس ليس خطاباً ولا سلوكاً. بل ربما كان الحقيقة الّتي يَصِفها الدّقّاقُ بأنها دَهَش. إنّها ذُهولٌ عن القَصْدِ وانصرافٌ عنه إلى حسّيتها المجرّدة. وهي لا تَحْسُم في أمرِ المعنى لأنها التأويلُ المتواصلُ للمعنى. ولا تستقيم لها سويّةٌ أو تمام. والمحبُّ الّذي لا يمنع يدَ لامِسِه هو مَنْ ليست فيه مَنَعَةٌ أي من لا يَلْجأ إلى الكلامِ لتأكيد الرغبةِ المتبادلةِ في الاستجابة. ذلك أن اللمسَ، وهو مسٌّ إنْ لم يَقْتَصر على اليَد، يُوقظ في الجسد المتحصّن في حياده الأخلاقي، اعتمالاً للأحاسيسِ الهجينة. فالجَسَدُ يستيقظُ حين يُمَسُّ، وحين يُمَسّ فلانٌ (على المجهول) مسّاً يعني أنّه جُنّ. ومِنْ مظاهر المسّ اختلاطُ العقلِ (الجنون) و«خبلُ الفؤاد» (التولّه). وما تثيرُه اللّمسةُ، مهما جَرَت خَفيفةً، هي مواضعُ التحريق حيثُ تجري. فالمسُّ أيضاً هو أوّل ما يناله المرءُ مِنَ الحُمّى. والحمّى مدعاةُ هذيان. أي إنّها اختلاطٌ هي أيضاً لا في الحَواس فقط، بل وفي مَلَكات العَقل أيضاً، إذ تَصْعد أبخرةُ الحُمّى إلى الرأسِ ويُخلّط الرجل / المرأة (المحب أو المجنون) في كلامه.

واللّمسةُ أيضاً اختراقٌ لكفايةِ الجَسدِ بذاته. لا بل هي أمَارَةُ انتسابٍ إلى حُضورِ الآخر الّذي عَلِقه. وتأكيدُ

للهجنةِ الّتي ينبغي أن يكون عليها جَسدُ المحبِّ في حبِّه الآخر. هجنة هي اختلاطٌ ومسٌّ ولمسٌ وقبولٌ لسوى الذات، إذ يصبح السّوى هو الحدُّ والتعريفُ كأنه الأنا، يقول السري السقطي: «لا تَصْلُح المحبّةُ بين اثنين حتّى يقول الواحد للآخر: يا أنا». ومثل هذا القول يجيده المسُّ (أي عموم اللّمس لليدِ وسواها من الأطراف) لما يُحلّ في السوى من اضطراب. والمُضْطَرَبُ هو مَحَلّ الهجنة والخلاط. والأخلاطُ من الناس، لَفِيفُهُم، وما لا يَجْمَع بينهم نَسبٌ أو قرابة أو صلة أرحام.

أيكون هذا ما اختلطَ به عقلُ مجنون بني عامر إذ بُنِيَ اللّمسُ لديه على المجهول فانشقّت لامُ نفسه عن نفسه وصارَ اللّمسُ مسّاً، أي اللّمس بجماع الجسدِ على صفحةِ الغياب.

(III)

يراك المحبُ... يجعلك موجوداً

**[المناظر العلى: من حيث هي مناظر لا
وجود لها إلّا بوجود الناظر كالمقامات لا
وجود لها إلّا بوجود المقيم فإذا لم يكن
ثمَ مقام لم يكن ثمَ مقيم؛ وإذا لم يكن ناظرٌ
فما ثمَ منظورٌ إليه من حيث ما هو منظور
إليه. فهلاكهم إنما هو من حيث عدم
الناظر (...)]**

(ابن عربي: «ترجمان الأشواق»)

[«Esse est percipi»]
[«أن يكون المرءُ هو أن يُرى»]

(خورخي لويس بورخيس)

إذا كان ليسَ ثمَة مَنْ يَنظُر إليكَ ويَرَاكَ، فَأنتَ إذاً في حالةِ فُقدان مَظهَرك، ويَسَعك القولُ، وإن كان القولُ عِبارةً عَن إحسَاسٍ مؤقت، إنّك ما عُدتَ موجوداً، أو، في الأقلّ، ما عدت حاضراً إذ يُحال وُجودُك على صيغةِ الغِيابِ والغَيْبَة. فالصّلةُ بين الحُضورِ والعَيْنِ الّتي ترى حاسمةً لغةً ومعنًى. فالعينُ هي عينُك الّتي تُبصِر فترى الأشياءَ مِنْ حَوْلِك، والعينُ هو الحاضرُ من كلّ شيء. بل هو ذاتُ الشيءِ ونفسُه وما يتقوّمُ بِهِ شيئاً. وحين يُؤَكّدُ الخبرُ أنّ: ما بالدار عينٌ، فهذا يعني: ما بالدار أحدٌ. ومن

صار خَبَراً بعد عَين، تقول العرب، هو مَن أدخَلَته الروايةُ في غَيْبَةِ كَانَ (أو) مَا كَانَ، مُفتَتَح الحكاية الّتي تُسرَدُ وتُعلَق أحداثُها على حافة الرَّيْبِ بين أن تكون حقيقةً أو وَهماً.

هذه الصلةُ المُفَارقةُ بين الحُضورِ والعَينِ من جِهَةٍ، والغيْبة والخَبَر من جهةٍ ثانية، تَجعَلُ البَصَر أكثر من حاسّة تضافُ إلى حواس أخرى، خصوصاً في لغة المحبّين وذوي الشغف. وليس من المغالاة في شيء هنا زَعْم العَاشق بأنّ البَصرَ، كالمُحادثة، جِلْدٌ آخر، على غِرارِ اللّمس، يُستَكمَلُ به الاطمئنانُ المُتكرِّر لحُضورِ الآخر وما يعنيه ذلك من استجابة. إذ يكفي أحياناً أن تكون حِيال الآخر مُبصراً فتراهُ للتثبّتِ من أنّه يَراكَ فتأنس إلى غِبطة الإحساس بأنّكَ حَاضرٌ له ولم يَطرُدكَ الغِيابُ إلى عُزلة مُخيفة. تراهُ، أو تَلحّ عليكَ الرغبةُ في رؤيته تكراراً لكي تطمئنَ إلى أنّك ما زلتَ كما أنت، وإلى أنّه ما زال كما هو ولم يُبدِّل الزمنُ، مهما كان ضئيلاً، شيئاً من ألفِ اللقاءِ السابق.

ذلك أنّ الصلةَ بالإبصارِ إعلاءٌ لشأنِ المَظْهَر والإيماء وتأويل المُضمَر في كلِّ شيء. والمُضْمَرُ لا يَتَبَدّى إلّا لمحاً وعفوَ خاطر. والشغفُ (أليس هو قوام صلة المحبّين؟) لا يُطيق السَّترَ أو الكتمان. الشغفُ مشهدٌ قبل أن يكون إضماراً. ليس ذلك لضعفٍ في طبائعِ المُحبّ الذي تسترقّه المَواجِدِ، بل لأنّ الشَّغَفَ لا يكون إلّا مَرئيّاً، مُعَرَّضاً لعَينِ الآخر. إلّا أنّ حدّ الإفصاح هذا يبقى

مُلتَبساً. فما ينبغي أن يُرى (ويُفضَح عنه إيماءً وتلميحاً) هو الجهدُ الّذي يُبذَلُ صريحاً لإخفاء الشغف والتكتّم عليه. فالآخر مُشاهدٌ لشغفي الّذي أُحاول كتمانه فيُفصح عنه الكتمانُ لأنَّ الجسد (حركته) لا يملك قدرةَ الكلام على التحويل، وليست لسيماء الوَجْهِ أو طَرفةِ العَينِ أو ظلِّ الابتسامةِ، قدرة الاستعارةِ والتكنية والإبدال. وما يُعَقْلنه الكلامُ من شَغَفي سَتْراً يُظهِرُهُ مُثُولي أعزلَ الحيلة أمامَ عينِ الآخرِ، فالمثولُ حضورٌ خالصٌ. فعلُ ابتداءٍ يَسبق العبارةَ والتأويل. يقول فرناندو بسّوا، الشاعر، إنّ العالم من حولِنا ليس مادةً (أو موضوعةً للتفكير) بل هو بِدايةُ مادةٌ للإبصار. مملكةٌ للعين الّتي ترى وتَضنَعُ فيما ترى هيئةً للأشياء. في اعتقاد قديم أنّ عينَ الرائي هي الّتي تُضيء الأشياء من حولها فَتُصبح مرئية. كأنّ الأشياءَ قاطبةً حالةٌ في الظلالِ أو راكدةٌ مسطّحة كالأشكَالِ السائلةِ ثمَ تُفْتَحُ عَيْنٌ فتُبصرُ الهيئةَ الّتي يَنبغي أن تكون عليها الأشياء. تُصبحُ عين الشيءِ، أي ذات الشيء ونفسه.

في كلام لا يجد تمامَ عبارته إلّا في حدسِ الأعمى الهائل، أمنية هي سحر الإبصار كله: أودّ أن أرى لأعرف كيف يُرى.

(١٧)

ترجمان الروائح

عندما اهتدى نوفاليس، في حواره الشعري الصامت إلى استعارة المرأة / الوردة، كانت المخيّلة الاجتماعيّة، وبتأثير من المناخ الرومنسي، قد أرست قيماً جديدة، وسلّماً جديداً للمناقب والحساسيّات، فأحلّت العطور (الروائح) الخفيفة (ومصدرها أنواع الزهور والنباتات) محل العطور القويّة النفّاذة (الحيوانية المصدر كالمسك والعنبر وطيب الزبد... إلخ). وإذ ذاك رَمَت المناقب الخلقية العُريَ (المرئي) بالمحرّم، ما أدّى إلى ارتقاءِ الشمّ (الحاسّة) مرتبة لم تكن له من قبل. فبعد أن جعل «بوفون» الشمّ عبارة عن الحيواني في الإنسان، وبعد أن استبعده كانط من حلقة الإدراك الجمالي، إلى التسفيه الفرويدي الّذي لا يُعادلُه إلّا شرح «الأطيَبَيْن» و«الأخْبَثَين» في لسان العرب، استطاع الحلمُ الرومنسي، من نوفاليس إلى نرفال، أن يُعيد الحاسّة المرذولة (لأنها كاللّمسِ مَلَكة الغوغاء، كما صنّفها الأقدمون) إلى مكانتها في المسلك الغرامي وخطابه. إلّا أنّ ما استردّته الاستعارة الرومنسية من شغفها بالروائع، هو الشبه بالمرأة الطيف، الّتي لا تُشهر ما يجعل منها محلّ رغبة بل تترك، في عبورها، أثراً غيرَ ماديّ، خفيفاً، لكنّه يتريّث ويدوم في حاسّةِ العاشق ومتخيّله. كأنّ الصلة بالروائح أشبه بالنزوعِ إلى التلصّص، إذ يتمّ

الوصال عبر المسافة، هناك بوساطة الإبصار وهنا بوساطة التنفّس، لا بل «تنشّق» الآخر، وتنسّم أثر حضوره بعد الفوات. ذلك أنّ تريّث الروائح الّتي يُشيعها عبور الآخر يُنمي الشغف ومعه الإحساس بالندم. ويدعو إلحاح ما يُسمّى «الجميع العصابيّ». وقد يكون هذا «الجمع» هو عصب الكتابة، أو في الأقلّ، عصب الترسّل أو المراسلة. غوستاف فلوبير لم يحبّ لويز كوليه إلّا باستعارات الروائح الخفيفة (من النرجس إلى الرند إلى زهر الليمون) الّتي يتردد ذكرها في رسائله إليها. أمّا بلزاك فظلّ نثره أسير الروائح الطبيعية للجسم الأنثوي الّذي «يُشيع» ضوعاً من الرّقة الّتي لا يصادفها المرء إلّا في رقّة الأزاهير. والوصف لدى بلزاك لا يملك إلّا أن يعبّر عن هُجاسه الشمّي ومصدر استيهاماته: الشّعر أولاً، والأجزاء الحاسرة من الجسم.

زولا، هو أيضاً، مكث حائراً، وفي مضمر وصفه الواقعي لهاجس «النظافة»، والأدقّ، الرائحة الّتي تنبعث من النظافة، كأنّ الرائحة لديه تنبعث من مُزيلها (مزيل الرائحة)، لأنّ صورة البورجوازي آنذاك تطابق هذا التوهّم. أضفى زولا طابعاً دراميّاً على الروائح بجعله البصر والسمع (وهما حاسّتا الذهن والإدراك الجمالي) في سويّة الحواسّ الدنيا كالشمّ واللّمس. وإضفاء الدراميّة لا يخلو من توهّم للشغف على أنّه زمٌّ للنفس والأهواء وتمالكٌ للإفصاح وانقطاع يُطيّبُ لحظات الوصل.

غلبة الروائح الخفيفة إذاً تكون غلبة الدعة، غلبة ما يُثير في الأنثوي دون إباحة. أمّا الروائح القويّة فهي مُبتغى مناقب الاحتدام. الفطرة. العناصر الحارّة. فكانت هي عطور وروائح ما بعد الثورة الفرنسية لاقترانها بهوس القتل وسفك الدماء. لكنّها أيضاً استيهام الشغف بالجسدِ على ما هو عليه. ولم تأفل استعارة المرأة / الوردة / زهرة الزنبق البلزاكية إلّا مع شارل بودلير، الّذي أدخل إلى وهم «الفردوس» المنزلي، وهو الحيّز الحميم لهجاس النظافة والروائح العطرة، ملغمةً من الروائح الحارّة الّتي هي مزيج من رائحة الجلدِ الطبيعي والعَرَقِ والمسكِ ووخم الغرفِ الرطبة والأسرّة المُستخدمة إنّه عطر المواخير.

وما يختلفُ في استيهام الرائحة ليس ذائقة الفرد، بل المتخيّل الاجتماعي بأكمله. القيم والعادات والروابط الأسريّة... حتّى تصميم العمارة والإنشاء.[1]

---

1 باستطاعة القارئ أن يعثر على تاريخ أوروبا مثلاً، في الوثائق والمحفوظات التاريخية، كمتن يتقوّم بسياقة من الخطوب العظمى. وباستطاعة من هو أكثر خفّة أن يقرأ التاريخ إيّاه في الهوامش. لمثل هؤلاء كتب آلان كوربان «الوخم والنرجس»، أو تاريخ الروائح.

(٧)

الإصغاء ميلٌ إليك

[(... فهي الاعتقادات ستور عليها، لذلك تُبصِرُ الشخص ولا تُبصِرُ الشخصَ ولا تبصرُ ما اعتَقَدَهُ إلّا أنْ يرفع لكَ السَّترَ بسَترٍ آخَرَ وهو العبارة (...)]

(ابن عربي)

ثمة في صلةِ المحبّين ما يُلغي التَّخَاطُب، إذ يُقيمُ التخاطبُ وَسِيطاً (هو تبادلُ الكلامِ) فلا يكونُ وِصالَ المَحَبَةِ على تَمَامِهِ. ذلك أنّ السَّمْعَ حَاسَةٌ، على غرار أخواتها الشهويَات، لا يَتَحَصَّلُ فِعلُها إلّا بالتَّمَاس. لذلك تَستَبْدِلُ لُغَةُ المُحبّينَ البَيَان بالمَسَارَة والسِّرَار ولا ترومُ من السَّمْعِ إلّا أخلَصَه، أي الإصْغَاء والإنْصَات. لأنَّ في الإنْصَاتِ تَنَبُّهاً وَيَقَظَةَ حواسّ (توفُّزاً وانتظاراً) وفي الإصغاءِ ميلاً يُحَاكي إمَالَةَ الجِسْمِ إلى الجسمِ طَلَباً للكَنَفِ والسرّ. فالصَّغْوُ هُوَ المَيْلُ، والسَّرَارةُ هي محضُ النَّسَبِ وأفضلُه. وليسَ في مَيْلِ المُحبِّ إلى المُحبِّ ما يَفُوقُ تَوْقَهُ إلى الانتسابِ إليه. فحين يُسرُّ بما يَكْتُمه يُفضي إليه لا بالمعنى الّذي يُضمِرُه السرُّ بل برغبتِه هُوَ في أن يَمِيلَ وَيَنْتَسِب.

لا شيء يُستأنفُ في كلامِ المحبّين لانقطاعِ المعنى. يُصْغي المُحبّ، أي يَمِيلُ إلى المُحبِّ بسمعه، وما

يتحصَّل في سماعِه ليسَ العبارة الّتي تُفضِي إلى معنى أو الّتي تَجْعلُها وفرةُ المَعَاني فيها عرضةً للتأويل، بل هو اللفظُ عَيْنُه، مُجسَّداً، يُعادُ ويُستعادُ تَكْراراً. فيكون أشبه بكلام المُحالِ، وَفْقَ صنافةِ الخَليل بن أحمد، حين قال: إنّ المُحالَ هو كلامٌ لغيرِ شيء. والمحالُ هو أقربُ النُّعوتِ لِكلامِ المحبّين، لأنَّه، بين اللغو واللغط والكذب والمستقيم (وهي مراتب الكلام جميعها)، الكلامُ الّذي لا يُفضي إلى العلم. فاللّغوُ هو المُناخُ الكلاميّ الّذي يَسُودُ صِلَةَ الصداقةِ، ويُخاطِبُ عموم السَّمْعِ دون ميل أو إمالة. أمّا صِفَة العبارة الّتي تسودُ صِلةَ المُحبّينَ فهي القول لا الكلام. لأنَ القولَ، وهو نعتٌ إلَهي، له أثر في المعدوم وهو الوجود، كما كتب ابن عربي، والكلام، وهو نعتٌ إلهي أيضاً، له أثرٌ في الموجود وهو العِلْم. وما يَتُوقُ إليه المُحبُّ ليسَ العلمَ بمحبّةِ الآخر، بل أن يكونَ موجوداً بمَحَبّةِ الآخرِ. والكلامُ يفِيدُ الخَبَر والوَصْفَ والتّعْليلَ والقياسَ والاسْتِنْتَاج، وهي ليست من أغراضِ المُحبّينَ لأنَّ المركوزَ في طِباعِهم يَتَقوّمُ بالإشاراتِ الأبسط ودقائقِ اللمحِ أو الإيماء، فما يُدركُه المُحِبّون عِلماً لا يَتَأتّى مِنَ العبارة بل مِنَ الحَدْسِ الّذي يُشيعُهُ الحضور. وما يتلقّفه إنصاتُهم هو التَّكْرار. تَكرارُ البَوْحِ تامّاً والذي لا يحتمل إغْفالَ مَتْنِ السؤالِ في مَتْنِ الإجَابَة: ـ تُحبّني؟ يكون السؤال. ـ أجل! تكون الإجابة. لكنها الإجابة غير التامّة. فهي تَستَجيبُ لصيغةِ التخَاطُبِ في بَيان التأوّل الّذي يُفضي إلى علم. أمّا أن

يكون الجواب: ـ أحِبُك! فيجعلُ من تَكْرارِ القَوْلِ (وإن بلَفظِ وحيد) في مَتنِ الجَواب انتساباً إلى مَتنِ السؤال وسائِلِه؛ إنّه تَحَقق الحُضوره لا تَحَقُّق العِلم. إنّه الإيجاد المُتكرِّر للمُحبِّ بِوَسَاطَةِ العِبَارةِ الّتي تُرَدِّدُ على الدَّوام الشيءَ عَينَه. حتّى تبدو في آخر الأمر كأنّها كلام لغير شيء.

لذلك، ربما، لا تُعقَد المُحَادَثَةُ بين المُحبّين إلّا في انتظام فتراتِ الصَّمْت. وهُوَ صَمْتٌ لا يعني الاستدراكَ أو التأمّلَ أو الحَيْرة. بل هو الصمتُ الّذي يَجْعلُ الإصغاءَ حَاسّةً أخرى تُبطِلُ السَّمعَ وتَردَ النُّطْقَ بما هو لَفظٌ إلى النُّطْقِ بما هو انفِعَالٌ وإدراك. وعندئذٍ يُصبحُ الإصغاءُ مزيجاً من حَواسّ أُخرى: البَصر، لأنَّ حَذَافيرَ القَولِ تَستحيلُ صُوراً وكناياتِ اللمس، لأنَّ المَسارَة مُلامَسة ذِهنية؛ الشمَ، لأنَّ المسارَة مَيلٌ وقُربٌ في كنفِ العزلَةِ الّتي تُخلي المكانَ من أيَ أثر سوى الرائحة.

وسؤالُ المُحبّ، مُتكلّماً أو صامتاً، تكرارٌ لِرَغْبة وَحيدة: مَنْ أكونُ في عَينَيك؟ وإصغاءُ المُحبِ تكرارٌ لتوقِ وَحيد: أن يأتي الجوابُ ولو غامضاً. فالجوابُ هو الّذي يُمسك يَدَ المُحبِّ ويَدلّه إلى المرآة، حيث صورتُه، ويقول له: هذا أنتَ، في عينيّ، وما تكونُه في عينيَ هو الحقيقة. والحقيقة تامَة إذ تُقال مرَة واحدة، ولو مؤقّتاً، وما يُقالُ يُعلَمُ ولا لبسَ فيه أو حيرة.

لذلك لا تقوم صِلةُ المُحبّينَ بين المُخاطبة والإصغاء، على الكلامِ المُستقيم (الخليل بن أحمد)، أي كما يُقالُ

اليوم، على المحادثة. بل على الصَّمتِ الّذي تُعقد المُحادثةُ لتلافيه عَمْداً. لأنَّ قول المُحبّين، مهما تعقّد اللّغو واللّغط والهَذْرَ والتنوّع والعمومَ، لا يُفصِحُ إلّا عن عبارة واحدة.

(VI)

المغايَبة!

أنتِ غائبة. لا يَنقطعُ سياقُ التَّخَاطب. ما يَتبدّل فقط هو أنَ الصِّلَة لا تقومُ الآن على المُخاطبةِ بل على المُغايَبَة. أغايِبُكِ خِلافَ أخَاطِبُكِ، أي أجْعَلُ من الحِوار الداخليّ، الّذي يُخاطبُ غيابَكِ، نَسيجاً من الصوَر والإشارات، ومُعْجَماً لما يَظلّ أثراً منكِ. ليسَ التذكارُ حَرفيّاً، ولَيسَت الوقائعُ والمَلمُوسات والمُدرَكَات على أنواعها. بل المَشهدُ المُتواصلُ لما لم يَحدُث بالفعل. الواقعُ الّذي مضى، مُحرَّفاً ومبنيّاً على ما تراهُ الرغبة، على ما يَتدارَكَه الخَوفُ. فالمُغَايبةُ هي استِدراكٌ لزمنٍ مَيت لا تكونينَ أنتِ فيه. وهي استدراجٌ لفترةِ حِداد، أقْبَلُهَا عِوَضاً لِشدّةِ ما يَخْدَعُنِي الواقعُ، وبإصرار، لا أكفّ عن استدراجه لخداعي. ذلك أنّ الغَيَابَ هو القَبْر، أيضاً، ولغة: غَيَّبهُ غيابُه: دُفِنَ في قبره. وغِيابُكِ هو الّذي يَجْعَلُني حاضراً في كلّ شيءٍ إلّا في تَمامِ رَجائي ورغبتي. لا أصحو منكِ إلّا بالنسيان، مؤقّتاً، أخالط الصَّخب أو أزاولُ عَمَلاً وأحسبُ أنّي شُفيتُ إذ يَستَردُني شأنُ الحياة. غِيابُك يَنتَشلُني من الغَيْبةِ حِيَالَ العالم لكنّه يَرميني في الغَيْبةِ حِيَالَ الأنا، أنا العَاشِقُ الّذي يَتَعيّن بالإضافة... وفقط بالإضافةِ إليكِ. وغِيَابُك هو انتظاري. فِناءُ الصَّمتِ الّذي يُنسَجُ فيه خَبزُ اللقاءِ المُقبِلِ، على غِرارِ ما كانت تنسجُه أيادي النساء، في

شَغَفِهِنَّ المَكتومِ، في انتظار الأزواجِ (المحاربين، التجار، جوابي الآفاق، المغامرين... إلخ) الغَائبين. لذلك في المغايبة تؤنَّث العبارةُ دائماً، كمثلِ قولِ الشعر. إذ يَجْعَلُني الانتظارُ مُؤَنَّثاً، لا في المَشَاغِلِ الّتي تردُّني إلى النَّوافِلِ غيرِ المُنتجة، بل في انتحالي هَوَاجِسَ الانتظارِ الأنثوي وعالَمه ودلالاته. وما يُعيدني إلى الداخلِ، الحيِّز الحميم، هو ما يَرفعُ عني صِفةَ الاجْتِماعِ والعُموم والقَابليّةِ المُثلى لإنكار العزلة والخروج عليها. وإنكَارُ العزلةِ هو تَنَكُّرُ لما تَتَقوَّمُ به الصِّلَةُ الغَرامية. عزلةُ الذَّاتَينِ معاً وسويّاً، عزلةُ مَنْ يُدرِكُ حتّى في اللقاءِ أنّ اللقاءَ هو لا زَمَنُ أنا العاشق. لأنَّ اللذّةَ والوعد وحتى الرجاء، لا قِوَامَ لها إلّا في ما هو مُرتجى وزَمَن اللقاءِ دائماً هو زمنُ المُضارعُ المَنْقُوص. لا يَتَحيَّنُ إلّا بنُقصان، أي الخوف مِن تَصَرُّمِه لكي يُسْلِمَ الدَّعَة الآنيّة إلى غِيابٍ موصولٍ آخر.

أنتِ غائبة. أقيمُ إذاً مشهداً ليُتمي. أصبحُ أنا المَرأةُ الّتي تَنْتَظِر. الطفل الّذي يَخاف. الرّجل الّذي يُقيمُ على عَتبةِ غِيابَين: مُخَاطَبة الغَائِبِ، وهي صيغةُ الصَّلَواتِ والأدعية، وصِفَة الجُنون. أو استدراج فاصل مِنَ الماضي (وَقْتَ كنتِ هنا) إلى مُخيّلةٍ يَسْتَبِدُّ بها الحَنينُ فَتُحيلُ الحَاضرَ إلى مُضارعٍ مَنقوصٍ يَحُولُ دونَ تَمامِهِ حَائلٌ. عَتَبةُ الغِيابِ الأوّلِ تجعلُ خِطاب الحبّ مُغايَبَة أو، الأدق، شعراً، إذا كان الشعرُ تَوأمَ الغِياب. وعتبةُ الغياب الثاني تَنْقُلُكَ إلى هَسْتَرة مُتواصِلة للوقَائِع.

فَتكونُ أنتَ الغائب أيضاً. إذ تَصْرُفك غَيْبةُ الآخر، إنّ لم يُسْعِفكَ النسيانُ، عن تمامِ حُضورِك. كأنَّك الحُضورُ المُغَلَّق. يَغِيبُ الآخرُ فتعزّ عليك الإضافة إليه والتي به يتعيّنُ أنَاك، يَحْضُر الآخرُ فتغيبُ عن كلِّ شيءٍ سواه. والغَيْبتان انفرادٌ، ثمّ انصرافٌ عن شأنِ العُموم، وانكفاءٌ إلى الصِّلةِ المُغلَقَةِ، والحَيِّز الحميم.

أنت غائبة. إذن، في انصرافي إلى تَلَمُّسِ غِيابِك، هنا، أنا غائبٌ أيضاً. وما يَقومُ بين الغائِبَيْنِ قَولُ غَيْبَةٍ لا يُسمِّي الأشياءَ لِتصبح مُسمَّيات بل يُنادي عليها بما يُشبهُ الدُّعاءَ، ليَستَقْدِمَها، فهي غائبةٌ أيضاً. أنتِ غائبة. أنا غائبٌ. والأشياءُ غائبة أيضاً. إذ يَعْجَزُ العالمُ أن يكونَ في غِيابِك.

(VII)

سهوكِ يجعلُني هَمَلاً

[أظلُّ غَريبَ الدّارِ في أرضِ عَامر
ألا كلّ مهجور هناك غريب]

(مجنون بني عامر)

[(أمّا الوقت ـ فعبارة عن حالِكَ في زمن
الحالِ لا تَعَلّق له بالماضي والمستقبل]

(ابن عربي)

مَنْ أحبُه لا يُقيمُ صِلةً بالعَالَم، ولَوْ مُؤَقتة وعَابرة، إلّا ويَجْعَلني هَمَلاً. واللفظ، لغةً، هو السّدَى المَتروك ليلاً ونهاراً، لأنّ الصلَةَ بسواي (أناساً وأشياءَ وأمكنةً) يَجْعَلُ حُضوريَ مُعلّقاً حيالَ حُضوراتٍ تَسْتَأثِرُ بانتباهِ (إصغاءِ ورؤيةِ وإدراكِ) أريدُهُ كاملاً لا غيبة فيه؛ ففي صِلةِ المَحْبُوبِ بالآخر، بالشيء الآخر، إهمالٌ يُخلي بيني وبين نفسه. وفي تَخلّيه عنّي ومنّي تَرْكي. وفي تخَلّيهِ بالآخر انصرافٌ إليه وتَفَرُّغٌ له. ومِنَ التَّخْلِيةِ دوماً لَفْظٌ ما يُسْتَثنى به، إذ العالمُ بقَضّه وقَضِيضِه يَمثلُ في انصرافِ المَحْبوب إليه خَلا واحداً هو أنا. كأنّي في جعله إيايَ هَمَلاً خَلَيتُ مَكَاني فِي مَحبّتِه أيْ مَضَيتُ لِسَبيلي سبِيلِ الغرباءِ الهُمُلِ، ومتُّ.

في كلِّ تَرْكٍ هذا المعنى للحِداد. فَالمَوتُ كلُّه ليسَ إلّا هذا: كلُّ ما رَأَيْتُهُ إنما رَأيته بُهتاناً وعَبَثاً. زَوَالُ كلِّ ما

أدرَكْتُه، لمُجرّدِ أنَّ المَحْبوبَ يُصْغِي سَهْواً ومِنْ بُعْدٍ، إذ يُلفته تَفْصِيلٌ أو عِبارةٌ أو مَشْهَدٌ لا أكُونُ فيه. وإذ ذاك يُصبحُ قولُ المَجنونِ (مجنون بني عامر) مُسْكَةَ الحالِ الّتي تَجْعَلُني غَريبَ الدارِ بَعْدَ الغِواية. أصيرُ غَويّاً، أي مَخْليّاً، مُنفَرداً، لأنَّ المَحبوبَ أغواني (أضلّني) ثمّ جَعَلني غَريباً وَسُدًى مَتروكاً وسَائباً ومُهْمَلاً عند حدِّ الخلاءِ (إذ يَتَخلّى عنّي ومنّي)، أي، حسب اعتقاد المتكلّمين، على حدّ امتدادٍ موهومٍ وبُعدٍ وفراغٍ. خلا عنّي أثناءَ خلوتِه بي فَجَعَلني غريباً للفترةِ، وهي أمَدُ التعليق، وللحَيْرةِ، نَهْباً لألم الرَّيْبِ في أن لا أكون مَحْبُوباً. لذلك أسألُ على الدوامِ، قَطْعاً لأيّ صَفتٍ يَرينُ على اللّقاء: أتحبُّني؟ فالمركوز في طَبْع المُحبّ ميلٌ جَارفٌ إلى الاسميّةِ والتّسْمية، لأنّها الرُّقيةُ الوحيدةُ لِطَردِ غَيْبَته، لاستعادةِ حُضُورِهِ المَتْروكِ. فَالتَّرْك، إقْصاءٌ؛ ومِنْ مَعَانِيهِ القُرآنيةِ أيضاً، إبقاءٌ. ومُتَّسعُ الحِداد، حِدادِ المُحبّ، في الإقامة هَمَلاً بَيْنَ الإقْصاءِ والإبقاءِ لثوانٍ تُشبهُ حَالُ المُحبِّ حالَ المَجْنونِ الّذي تُخلِّسَ عَقْلُه حِينَ يُغايِبُه الهاتفُ: «قضاها لغَيْري وابتلاني بحبّها...». كأنَّ في قِوامِ الصِّلةِ الغَراميةِ تَزامن الغِوَاية والتَّرْك. حين تكون الغِوايةُ إيهاماً بِفِعْلِ المَقْدورِ، والتَّرْكُ عَدَم فِعْلِ المَقْدور، نِسْياناً أو عمداً. فلا يَجِد المحبّ في الحَيْرةِ إلّا أن يُقيمَ المَشْهَدَ المُعقَّد للحِوارِ الداخلي: كيفَ يُعْقَلُ أنْ يكونَ مَحْبوباً ومَتْروكاً، حاضِراً وغائباً، إلْفاً وغَريباً، وفي آنٍ معاً في المكانِ المُتعيّنِ (اللقاء) وفي البُعد الموهوم.

والهَمَلُ، لغة، هو الماءُ (أليس استعارةً غريبةً للدَّمْع) لا مانع له. وعند الفيروز آبادي: هَمَلَت عَينُه (هَمْلاً وهملاناً) فَاضَتْ (بالدموع)، والسَّماءُ دامَ مَطرُها في سُكُون. وإذ يَمتَنِعُ المَحبوبُ عن مَقْدُورِهِ (في أن يَجْعَلني حَاضراً على الدَّوام) يَجْعَلُني شَغُوفاً بالتّسميةِ وأمرِّن لُغتي في الأسماءِ الّتي أدركها اشتقاقاً وأعثرُ، مُصادفةً، على الجَذر الجامعِ لأحوالي: «ها أنذا متروكٌ كشيء» (غسان كنفاني)، لأنَّ الآخَر في صَرْفِ انْتباهِهِ عنّي يُجَرِّدُني مِنْ صِفَتي التّامة كمُحبّ تَتَقوّمُ حالُه بتنبّه الآخر إليه. ويُجرِّدُ لقاءَنا مِنَ الصَّمْت الّذي هو بَوحٌ، وكتمان. ويَستَدرِجُ إليه دُخلاء العالمِ وإشاراته. فتُصبحُ الأسماءُ لَغواً، والإنصاتُ عُزلةً، وإفراداً لا اشتراكاً في تَسْمِيةِ مُرادِ المُحبّين ليكونَ المُرادُ، ولو في الوَهم، حَقّاً وحقيقة. لا يَطْلبُ المُحبّ شيئاً إلّا هذا، وسؤاله دوماً: «مَاذا أريدُ؟» فلا يُعقَلُ أن يريد الغريبُ شيئاً.

(VIII)

ألثم يَدكِ... فَمي الكِناية

[لا يَدخُلُ الإحسَاسُ فِي مِلْكِ الغَلط.]

(سيوران)

للرقّةِ والحُنُوّ أمَاراتٌ هي في سُلُوك المُحِبّين، كناياتٌ مُتَمَاديةٌ ومُرسلة. أمّا الرَّغبَةُ فَقِوامُها الحَدُّ وتَطلّبه وتَمامُها قَضاءٌ يَليه التَّصَرُّم. ولَيسَ في حَالِ العَاشِقِ مَا يُعينُه على البَقاءِ (حَيّاً)، إلّا كِنَايَة الدّوامِ هذه: «وكانَ هذا بدءُ الحُبِّ بينهما دَهراً» (ابن حزم الأندلسي: «طوق الحمامة»). ولا يَقنَعُ العَاشِقُ بأقلِّ مِنَ «الدَّهرِ» زَمَناً لوَلَهٍ يَستَبدُّ به أو شَغَف. لذلك تَراهُ يُقيمُ على تَطَلّبٍ وإرجَاء. تَطَلّبُ الرِّقة، وإرجاءُ الرّغبَةِ وَدَفْعُها لا يُريدُ لها زَوالاً، بَلْ تَعاظُماً واتّقاداً خَفِرَينِ إلى أنْ يَحينَ الوَصْلُ. إذ لا يُبتَغى الوَصلُ إلَا ذُروةً وتماماً للتّطلّب والتَّشوّقِ والتلهُّف إذ طالَ أمَدُها «دهراً» أو بعضَ دَهر.

وأمارةُ الرِّقّةِ، لا بل مُنتَهاها، أنْ يَمَسَّ المُحِبُّ يَدَ المُحِبِّ بِشَفَتَيهِ. كأنَّه بذلك يُضِيفُ إلى الإرجاءِ (إرجاءِ الرَّغبة، سَتراً وغلالةً). فما يَلثُمُه المُحِبُّ في ظَاهِرِ اليَدِ هُوَ ما يُبعِدُ الرغْبَةَ، مَا يَحجبُها، لكي تَدوم الرّقةُ في الكِنايةِ المُتماديةِ للشوقِ (المُلامَسة). فاللّثمَةُ على ظاهِرِ اليَدِ ليست بدايةَ الوَصلِ أوِ الهَمِّ به، بَلْ هي رَفعُ اللّثام! واللّثامُ، لُغَةً، هُوَ مَا كانَ على الفَمِ مِنَ النِّقابِ أو ما يُغَطّى

به الشَّفَة مِنْ ثوب. فَظَاهِرُ اليَدِ، إذْ يُلثَمُ، يُباعِدُ بين اعْتِمَالِ الرَّغْبَةِ وتَمامِها إذ يُدرجُ الوَصْل في خانة الكِناية. لِذَلك لا تكونُ اللّثمَةُ إيذاناً بالمُكاشَفة. بَلْ رُبّما كَانَتْ في مَنْزِلةِ الحِجَاب.

أمّا ما يُزيلُ السَّتر عَن كِنايةِ الوَصْلِ المُتماديةِ فهي اللّثمَةُ على بَاطِنِ الكفِّ (راحةِ اليَد). وكأنّ في اخْتلافِ الكِناية بَيْنَ ظاهِرِ اليَدِ وبَاطِنها ما يُشْبِهُ اختلافَ حَقيقة الظّاهِرِ عَنْ حَقيقةِ البَاطِنِ في التّأوُّل. فَمَسُّ بَاطِن اليَد بالشَّفَتَيْنِ كَشْفٌ للنِّقابِ وإزالةٌ للسَّتْر، إذ تُقَامُ الصّلةُ، لَثماً، بَيْنَ كَنَفَيْنِ مِثَاليّين للدِّفء. وما يَمْكُث على الشَّفَتينِ مِنْ أثَرِ الدِّفءِ والتّحريقِ وكَنَفِهما رَاحةُ اليَدِ المُلامِسة، يَمكثُ نَظِيرُه في رَاحَةِ اليَد. وكأنّ اللّثمَةَ في امْتِزَاجِ الدِّفءِ والتّحريق أمارةٌ على الأثَرِ الّذي يَبْقَى من اتصالِ الجَوارح. ومَا يَبقى أشبه بالجُرْحِ، أشبه بالعَلامةِ الّتي لا تَراها العَينُ قُبلاً، لكنّها تبقى.

وَصِلَةُ الجَارحةِ بالجُرحِ (والفمُ رَسْمُ الجُرح الأكْمَل)، واللّثمَةِ بالثَّلْمِ، حَسْبَ ما يُسمّيهِ ابن دُريد بالاشتقاق الأكبر، مُجمَلَةٌ في بَعْضِ مَعَاني الجَذْرِ ل. ث. م. (أو: ث. ل. م. أو م. ث. ل... إلخ). فمعنى التَّمْثِيل أحياناً هو التّجْريحِ، أو الثّامل (من ثمل) فهو من السّيُوفِ القديم العَهْد بالصِّقال، وأمّا الثَّمْلُ إلى فُلَان فهو المُحِبُّ له... إلخ. فلا يخلو أمرُ الصّلةِ لَثماً بين المُحبّين مِنْ كِنايةٍ لجُرحٍ، أي ما يَتْرُكُ أثراً (ندبةً) هي، على خفائها، معلمُ ذِكْر وتَذْكار. وإذا كانت القُبلةُ، هِيَ اللّثمَةُ، في معناها

الأوّل، إلّا أنّها، ثانياً، ما تَتَخذُه السّاحِرةُ لتقبل بِهِ وَجْه الإنسان على صَاحِبه أيْ لتَجْعَلَ عِنْدَه قُبولاً له. وما تَفْعَلَهُ السّاحِرةُ بِوَساطة القُبلَةِ (اللّثمة) هو رَفْعُ اللّثام عَنْ حَقِيقةٍ خَفيةٍ للوجْهِ، عَنْ وَجْه حُسْنٍ فيه، يَجْعَلُه مَقْبولاً عند صَاحبه، رُبّما لأنّ المُحِبّ كَشَفَ عَن وَجْهِ الحُسْنِ فيه بلَثْمِه.

إذ يَلْثُمُ المُحِبُ وَجْهَ المُحِبّ يَجْعَلُ فيه عَلامة. والعَلامةُ، ولو خَفيّةً، هِيَ في الوَقْتِ نَفْسِه الجُرْحُ المُفاجئُ الّذي يُقلقُ ثَباتَ الحَالِ وَيَجْعَلُ مِنْ زَمَنِ الإقلاقِ «دَهراً».

في روايةٍ لابن حَزْم الأندلسي أنّ الفتى الّذي لم يُدرك مودة الفَتاة، الّتي أحبّته وظلّ غافلاً عنها، وَعَرَّضَتْ له بالشِّعر و«لكنّه لم يَظنّ ذلك فَيَمِيلُ إلى تَفْتِيشِ الكلام بوَهْمِهِ» فَعِيلَ صَبرُها، وَبَدَرت إليه فقَبّلته في فَمِه، فما كان حَالُه بَعْدَها؟ يَسْتَرسِلُ ابن حَزْم في وَصْفِ حالِ مَنْ أصابَه الجُرحُ الّذي لا شِفاءَ منه:

«فَبُهتَ وَسَقَطَ فِي يَدِهِ وفُتَّ في عَضُده وَوُجد في كَبده وعَلَته وحَمةٌ، فَمَا هو إلّا أن غَابَتْ عَن عَيْنِه وَوَقعَ في شَرَكِ الرّدى، (...) وكان هذا بدءُ الحُبّ بينهما دَهْراً».

(IX)

مطهَرُ العاشقين

[وما شَيءٌ من دواهي الدّنيا يَعْدُلُ الافتِراقَ.
وَلَو سالَتِ الأرواحُ بِهِ فَضْلاً عن الدّموعِ
كان قليلاً]

(ابن حزم الأندلسي)

لا يَكونُ لقاءُ بَيْنَ المُحبّين إلّا جَمعاً وانْفراداً في وَقْتٍ معاً. ولا يَكونُ إلّا استِئنَافَ حَال. كأنَّ الوقتَ ـ إذْ لا يَستَقيمُ وَقتٌ إنْ خَلَا مُتَّسَعُه مِنْ رِفْقَةِ المَحْبوب ـ يَتَّصِلُ بَعْدَ انقِطَاعٍ وَهَنة. فالمَوْعِدُ الغَراميّ (والمَوْعدُ لغةً هُوَ عِدةٌ وَوَعْد) أمَارةٌ على أنْ يُنِيلَهُ المَحْبُوبُ نَفْسَه الّتي مَكَثَت، فَتْرةَ الانْقِطاعِ، مُوزَّعةً على ما يُشبهُ مَطْهَرَ العَيْش. ويَكونُ مَطْهراً كلُّ عَيْشٍ خُلْوٍّ مِنْ رفقةِ المَحبوب. أمّا اللّقاءُ فهو تَمامُ الرّجاءِ في أنْ يَلْتَمَّ شَمْلُ مَنْ بَاعَدَ الافْتِراقُ بَيْنَهما. فاللّقاءُ جَمْعٌ إذْ يَنالُ المُحبُّ نَفْسَه بَعْدَ غُرْبَةٍ، وهُوَ جَمْعٌ لأنَّهُ يُقيمُ للوَقتِ اتّصالاً، ويَستأنِفُ الصّلةَ بين المُحبّين.

سوى أنَّ اللّقاءَ انفرادٌ في غَمرةِ اجْتِمَاعٍ وَوَسَط جَمْعٍ. ومَردّ انفرادِ المُحبّين أنَّهما على اجتماع شَمْلِهما يَنصرفَانِ عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُمَا. ويُقيمانِ الصّلةَ وَسط الجَمْعِ على «إدمان النّظَر» أو بالمُلاقاةِ ولَوْ بِغَيْرِ التّمَامِ، أيْ بالمُمَاسّة، وبالعَلاماتِ الأُخْرَى الّتي تُفْصِحُ دُونما

تَسمِيَةٍ كالبُهتِ والرَّوعةِ البَاديةِ أو حتّى في اختِسائِهما شَراباً، «شرب فضلةِ ما أبقى المَحبوب في الإناء» (ابن حزم الأندلسي). أمّا إذا انْتحى المُحبان رُكناً لهما صَارَ لِقاؤهما جَمْعاً لانفِرادينِ وعُزلتَين. فما ازداد الدُّنوّ يَوماً إلّا ازدادَ معه الوُلوع. والوَلَعُ حَالُ مَنْ عَلِقَ الآخرَ بشدّة فَلا يَرضى المُلاقاةَ بينهما إلّا بالتّمام. والمُلاقاةُ بالتمامِ هي المُداخَلةُ، ومِنْ بَعْضِ مَعَانيها: الاحتضَانُ والالتفافُ والاشتمالُ والاكتِناف والمُلابَسَة والمُخَالَطة والتَّخَلُّل. ومُنْتَهى ما تَصْبو إليه الاطمئنانُ إلى دَوام حُضورِ الآخر والتِزَامُه (أي أنْ يَلْزَمَ حُضُورُه حُضُورَ الآخر)، ولا سبيلَ إلى مِثْلِ دَوامِ هذا التحقُّق إلّا بالمُعانَقة.

في عُزلةِ المُحبّين وانْفرادِهما لا حاجةَ بهما للتَّضْمينِ (إدمانُ النَّظَر والبُهتُ والرَّوعةُ الباديةُ... إلخ) عَبْرَ علاماتٍ تَستَبعد كُلَّ ما عَداهما وتُقصِيهِ عَنْ كَنَفِ لِقَائِهما. كما تَزُولُ الحاجةُ إلى تأكيدِ الصّلةِ بالعِبارةِ إذْ تَبطُلُ الرّغبةُ في الإدراكِ تَأوّلاً أو تَصوّراً وتَفكُّراً. فيُعانقُ المُحِبُّ المُحِبَّ أيْ يَجْعَلُ يَديهِ على عُنُقِه ويَضُمُّه إلى نَفْسِهِ. وإذْ يَضمُّه إلى نَفْسِه يَحضُنه إليه، ويَحضُنُه عَنِ السّوى، أيّ يُنَحيهِ عَن أيّ صِلة بالسّوى ويَسْتَبدُّ به دُونَه. فالاحتضانُ، وهو المُعانقةُ إذْ تَدومُ، طَرْدٌ للعَنَاقَةِ (الخَيبَةِ) والعِناق (الشدّة، الدّاهية) واسْتِرسَالٌ فِي طَلَبِ الوَصْل دُونَما شَهوة. فالحُضْنُ هو الكَنَفُ مِنَ الإنسانِ وإذ يَكْنُفُ المُحِبُّ المُحِبَّ يَصُونُهُ ويَحفَظه ويَحُوطه ويَكونُ مِنْه يُمْنةً ويُسرةً، فَيَجتَمِعُ لديهِ وفي كَنَفِهِ، كأنّه يُطيلُ

أمَدَ مُخَالَطَة الحَواسَ ومُلابَستِها، وتخَلّلِ الرقةِ في تَبادُلِ صَامِتٍ للرغبة والدِّفء.

لا شيءَ في صِلَةِ المُحبّين يُوَلّدُ إحسَاساً بالعُزلةِ مِثلَ المُعَانَقة. إذ يَستَحِيلُ كلُّ لقاء إرجاءً للحظة الوَداعِ الوَشيكة. هو افتراقٌ مُرَجأ، أمَدُهُ أمَدُ اللّقاءِ، لذلك لا يني المُحبُ، في حواره غَير المَوْصُولِ، يَصِفُ مَا تَكونُ عَليه حَالُه في غَيَابِ المُحِبّ. فاللّقاءُ لَيسَ سَانِحَةَ أنْ يقول العاشقُ: هَذِهِ حَالِي عِندَما أكونُ برفقَتِك. بل سَانِحة أن يقول: هَذِهِ حَالي عِندَما لا أكون بِرفقَتك. وما يَتَصلُ فِي حِوَارِ العَاشِقِ هُوَ شَجَنُ الفقدان والبَيْنِ والضّنى والسُّلوّ فيُقِيمُ اللقاء على ذِكر ما انْقَضى مِنْ حَالِ الافتراقِ والمُقبل مِنه، ويُقيمُ رَغْبَتَه على دَوامِ الحِرمانِ والنأي والألَم. ولا استِدراكَ مُمكناً للوَداعِ الوشيك، إلّا أنْ يُحاكى مَشهَدُ الوَدَاعِ مُتواصلاً بالعناق.

ليس من سَويّةِ العَقلِ ومَنطِقِه أن يُدفع الغِيابُ بالغِيابِ. فالعُقلاءُ مُدرِكون، والعاشقون سِوَاهم.

(X)

تؤنِّثني العَبَرات...

متى يستريحُ القلبُ، إمّا مجاورُ
حزين، وإمّا نازحٌ يتذكّرُ،
نظرتُ، كأنّي من وراء زجاجة
إلى الدّار، من ماءِ الصّبابةِ أنظرُ
بعينين، طوراً يغرقان من البُكا
فأعشى، وطوراً يحسرانِ فأبصرُ
وليس الّذي يجري من العين ماؤها
ولكنّها نفس تذوبُ وتقطرُ...

(مجنون بني عامر)

لا تَخلو حالُ العاشِقِ من ألمِ مُبرّحِ وعَذاب. ولا يَخلو المَشهَدُ الّذي يَبتكِرُه إشفاقاً لحالِه مِنَ البُكاءِ والدّموع. وإذا كان للعِشقِ من حَدّ وتعريفٍ فلا بدّ أن يقترِنَ بالاستعارةِ المائيّةِ، الجَرَيانِ والفَيضَةِ والانهِلال. ويكفي أن نُحصِي استعارات التَّدفّقِ لدُموع المَجنونِ (مجنون بني عامر) في بَيتٍ واحدٍ من أبياتِهِ للتثَبّتِ مِنْ طُغيانِ الاستعارةِ المائيةِ، استعارةِ الجَرَيان، في مَقُولِ العاشِقِ وَعبارتِه عن الوَلَه الّذي يَستبدّ به. يَقولُ المجنون: «وإني لأبكي اليوم مِنْ حَذَري غداً / فِراقَكَ والحَيَّانِ مُجتَمِعان / سِجَالاً وتَهتَاناً وَوَبلاً وِديمَةً / وَسَحاً وَتَسجَاماً إلى هَمَلانِ». باستثناء حرف الجر «إلى» يُبنى

قولُ المجنون على تَرادُفِ استعاراتِ للتّدفقِ والصَّبَ والفَيْضةِ والانهمار... إلخ.

لا شيءَ في جِوارِ العَاشِقِ إلّا ويَكونُ سبباً لذَرْفِ الدّموعِ والبُكاء؛ البكاءُ ألماً وعَذَاباً. ولَيسَ في استعارةِ الرّجُل (المرأة) في حالِ العشقِ للبُكاءِ إلّا قُبولاً باستعادةِ جَسَدِه الطِّفْليّ. فالعاشِقُ مَتروكٌ لمأساةِ ما يَنالُه دائماً من الآخر. وهو في صِلَتِه بالحبيب لا يكتفي بأن يُحِبّ (لغةً، يَبْرأ من مَرضه) أو أن يُحَبّ (لغةً، يتعب)، أي لا يقف عند حُدودِ المُوافقةِ والمَيْل والمُؤانسةِ والمَودّةِ، بل يَجوزُ حدَّ التّعبِ أو الإبراء، إلى حدّ الهَوى والخِلّةِ والمحبّة والشَّغَف والتّتيّم ثمَ الوَله والعِشق والهُيام. ويُصبحُ مغرماً. وليسَ في تَفاسير العَربِ لِصفاتِ الشّغَفِ والعِشقِ مَهما تنوّعت إلّا ما يَجعَلُها مَقرونةً بالألم والحِرمان والعَذاب الشَّديد. أُغْرِمَ بالشيء (على المجهول) أُولِعَ به فَهو مُغرَم. والغرام هو الوُلوع والشرّ الدائم والهَلاكُ والعذابُ والحبُّ المعذّبُ للقلب.

وفي سُورةِ الفُرقان ﴿إن عذابها كانَ غَراماً﴾. وقال أبو عبيدة، أي هلاكاً ولِزاماً. أمّا الوَلَه فهو الحُزن، أو ذَهابُ العَقلِ حُزناً. واسْتَوْلَهَ الرَّجُلُ اضْطَرَبَ عَقْلُه. والوَلَعُ في بعض معانيه العتَه، والمَشغُوفُ المجْنونُ حبّاً، والشّغَافُ هُوَ وَجَعُ شِغافِ القلب. أمّا الهُيام فهو كالجُنونِ من العِشق و... أشدّ العَطَش، أي الأوام.

حال العاشق إذاً تجعلُها اللّغةُ حَالَ من يُقيمُ على دَوامِ الحُزنِ والشَّجَن. وهو إذْ تَسْتَغبِرُه (تستدرّ عبراته) كلّ

عَلامةِ على غِيابِ الحَبيبِ أو حُضورِه إنما يَروي قِصَته ويَجعَلُ مِنْ عَيشِه خَبَراً مُتواصلاً للألم. فالدّمعُ، إذ يَذرفه العاشقُ غزيراً، لا يكونُ إلّا عِوَضَ اللّفظِ إذا أعياه اللّفظ. وقد تكونُ الصلةُ، لُغةً، بَينَ الدّمعِ والعبرةِ هي الّتي تَجعلُ مِنَ البُكاءِ خَبَراً ووصْفاً. فالعاشِقُ في بُكائِهِ يَقولُ على الدوام: هذا ما أنَاله منك. وهذه حالي. عَبَر الرّجُل جَرَتْ عَبْرتُهُ وحَزِن. وعبّر الرؤيا عَبْراً وعِبَارةً فسّرها. وعبّر الكتاب تدبّره في نَفْسِه ولَمْ يَرفَعْ صوتَه بقراءته. والعَبْرةُ هِيَ العِبارة. وجَمْعُ الأولى عَبَرات والثانية عِبارات. والعَابِرُ هِيَ المَرأةُ البَاكيةُ الحزينةُ، والعَبْرةُ هي المرّة والاسمُ مِنْ عبّر، وهيَ الدَّمْعَةُ قَبْل أن تَفِيضَ أو تَرَدّد البُكاءِ في الصَدرِ أو الحزن بلا بُكاء. وعَبَّر: أغرَبَ عمّا في نفسِه، بالعَبَراتِ (الدموع) أو بالعِبَارات. وقد سُمّيت الألفاظ الدّالةُ على المعَاني عِبَارات لأنها تُفَسّر ما في الضّمير الّذي هو مَستورٌ. والعَبَرات هِيَ جَوازُ المَكْنونِ من ذاتِ النَّفْسِ إلى عَلَنِ المَشهد. فالعاشِقُ يَبْكي للتكْنيةِ عَن حالِهِ بغير اللّفظِ حينَ يَغْرُبُ، أي حين يشتدّ وَجَعُه على غِرار المُعتلِّ، والغَرْبُ هوَ عرقُ العين يَسقي لا يَنقطعُ والدّمع ومسيله أو انهلاله من العينِ وهو الفَيْضة، والغُروبُ في قَصيدة المجنونِ، هي الدّموعُ، وهي المَقُولُ الصّامت لما يَفيضُ حارّاً ومرّاً (أجاجاً) من الجَوفِ، مِنْ أعماقِ الذاتِ الّتي تُقيمُ على اضطرابٍ ومَسّ.

يبكي العاشِقُ، وهو الوَلهانُ والمشغوفُ والمُولَعُ

والمُغرَم والهَيَمانُ، ليسقي هُيَامه (أشدّ العَطَش) مِنَ العَبَرات الّتي تعبّر عن حالِه وتروي. فبُكاءُ العاشِق حكايةٌ أو هو رَغبةٌ في أن يَكونَ الشّغَفُ عِبرةً واعتباراً يَقيه الاطّراح والتّرْك. وفي رواية أن الرّقراقَ الّذي يَجتَمِعُ على غِشاءِ العَيْنِ هُوَ صورةُ الغائِبِ الّذي يُصبحُ حضورهُ سائلاً وألفه جَرَياناً ووصلُه نأيا وانسياباً. وإذ يَقطُرُ الرَّقراقُ من العين دمعاً يتلاشى الغَائِب فِي تَقَطّرِ صورتِه السائلة.

وفي رِوايةٍ، إنّ البُكاءَ تَأنيثٌ. ولا يُغرَمُ العاشِقُ إلّا إذا تَأَنَّث.

(XI)

قربُ البعاد...

أغيبُ، فيُفْنِي الشّوقُ نَفْسِي، فَألتَقِي،
فلا أشتَفِي، فالشّوقُ غَيباً ومَحَضَرا

(ابن عربي، «ترجمان الأشواق»)

أشتاقُ مَنْ أحِبُّ وأشتاقُ إليه. وما تَبرأ حَالِي مِنْ تَلهُّفٍ وافْتِقَاد. فالشّوقُ أمارةُ الحُبِّ في الغَيْبة والحُضور لأنّه حَالُ الرّغْبَةِ واسمُها الآخر.

يَبْرَحُ مَنْ أحبَّ جِواري، أي يَصِيرُ منّي في البَرَاحِ، في المُتّسعِ مِنَ الأرضِ والخَلاءِ، أو أخاله كذلك إذْ يَرْحَل، فيَشُوقُني وألتَهِفُ، كَمِثْلِ النّارِ إذ التَهَبَت، تَستَبدُّ بي التَّبَاريح. تَبَاريحُ الشّوق. ومِنْ مَغنى الشّوقِ الافْتِقَاد. أو نِزَاعُ النّفسِ إلى مفْتَقَد. أمّا الافْتِقَادُ فَمَثَلُه مَثَلُ الرّغْبَةِ. إذا كانت الرّغبةُ، بالحدِّ الأغسْطِينِي، «اشتهاءَ ما هو غَائب»، فإنَّ افتقاديَ الشّيء، لُغةً، هُوَ طَلَبي إيّاه عِندَ الغَيْبَةِ، عِنْدَ غَيْبَتِه. ويَزْدَادُ تَطَلّبي إيّاه إلحاحاً كلّما نَأَت بِهِ الغَيْبَة عَنّي.

أشتاقُ مَنْ أحِبُّ، تَشوّقاً واشتِياقاً وتلهُّفاً وافتقاداً، ويَقيني أن لقاءَه لَنْ يُرَضِيَ فِيَّ إلّا الشّوقَ مُستَبِدّاً بي نِزَاعاً إلى لقياه. أمّا اشتياقي إليه فلا يَستكينُ باللّقَاءِ، بَلْ يزيد التِهَاف القَلْبِ، أي تَحرَقّه. إذ يَغيبُ مَنْ أحبّ يُبَرحُني الشّوقُ إليه ويَنَالُني مِنه التّبْريحُ والسّقام

المُتولِّد عَنْ «إدْمانِ الفِكْرِ» (ابن حزم). وهو إذْ يَحْضُر لا يَحْضُر على تَمامِ تَطَلُّبي إيّاه ورَغْبتي فيه، لأنَّ في تَمامِهما زوالاً لما يَتَقوّم به التَّطَلّبُ والرَّغْبَة. أي زَوالُ شُروطِ المَحَبّةِ وعَلامَاتِها. لذلك يَشوقُني عَلى الدوام، وقُبَيلَ التَلاقي، ولا يَستَكِينُ اشتِياقي أوانَ اللّقاءِ ولَوْ كانَ اللّقاءُ وَصْلاً ومُداخَلةً.

ألقاهُ مَلهوفاً (حزيناً) لاهِفَ القَلْبِ (مُحتَرِقه)، أسيانَ غيرَ صَابر ومَظلوماً، ويَلقَاني عَلى صُورةِ حاله. فَمِنَ الشَّهوةِ (وهيَ حَرَكَةُ النَّفسِ طَلَباً للمُلائم) مَعْنَى المُشَاهاةِ، أي المُشابَهة، وما يَسْري في رغَباتِ المُحبّين ويَغْتَمِلُ أشبه بالتقاءِ الشَبيهَين اللّذين لا يَكْتَمِلُ نُقْصانُ حَالِهما إلّا تَدْريجاً عَبر إضافَةِ النقْصَانِ إلى النُّقصان.

في لِقائي مَنْ أحبّ أوّل مَا يَبدرُ مِنّي تَبديدُ الغَيبةِ بأنْ أشتَمِلَ على حَضُوره كَامِلاً بالنّظَر. وبالإفْصاح عَنْ مِقْدارِ شَوْقي. ثُمّ المُخَاطبةُ الّتي تُهْمَسُ في العِنَاقِ المُتَعَجّل. وكأنَّ العِناق استدراكٌ لِغَيبة المَحبوب في كلّ سَعيٍ قَدْ يَستَردّه إلى حَالةِ الغياب. وتُضبِحُ المَسَافَةُ مَاثلة ولَو كَانَت «قابَ قوسين أو أدنى...» (على قولة المتصوفة). ذلك أنَّ الفَتْرَةَ (ومَعناها الحرفي: زَمنُ الغيبةِ، المؤقت) الّتي تَسبِق اللّقاءَ، تُدرجُ الزَّمَنَ، مَهْما كانَ بطيءَ التَّصرُّمِ، فِي حِسابِ الانقضاءِ الّذي يُقرّبُ نَوالَ الوَصْلِ، أمّا اللّقاءُ فيُدرِجُ زَمَنَ الوَصْلَ، الّذي يُريدُه العاشق دَواماً، فِي حِسَابِ الحيّز والمَكَان. فالمَسَافةُ مَهما قَصُرَتْ بين المُحبّينَ هيَ اتّساعٌ وبَرَاحٌ. والقربُ لَيسَ القُرب المُرتَجى

بَلْ حَسْرة لأنَّ في حَالِ القُربِ ثَمَّةَ ما هُوَ أقْرَب. واللّمْسَةُ الأعمق، إذ تُوقِظُ الرغَبَة إنّما تُوقظُ اشتهاءَ الغَائِبِ وتَشيعُ الإحساسَ بالنُّقصان. والعِناقُ لا يكفي لأنّه احتِضانٌ لا مُداخَلة، واللّثمةُ والتّطَاعُم والاحتضان، وكلّها كناياتٌ لامتِزاجِ ذاتين في جَسَدين. فلا يزول اشتياقُ مَنْ يُحِبّ، لأنَّ العاشِقين اثنان لا واحدٌ. لأنَّ المُحِبَّ لَيْسَ المَحْبوب. ولأنَّ المَحبُوبَ لَيسَ المُحبّ. ولا فَناءَ يَمزجُ الجَسَدينِ على تَمامِ مَا تصبو إليه رَغْبَتُهما. فَيَرقى الاشتياقُ في وَصْلِ اللّقاءِ حَدّاً لا تَصْحّ معه إلّا الغَيْبة. غَيْبَةُ المُحبِّ عَنْ ذاتِهِ إصْغاءً لذاتِ المَحْبوبِ. وغَيْبَتُه عَنْ جَسَدِه سَعياً لامتلاكِ جَسَدِ المَحْبُوبِ وَلو بالوَهْمِ والتَّمَنّي: لو أكونُ جَسَد مَنْ أحبّ! فأُجاوزُ رَغْبَته، ويُجاوزُ رَغْبتي. وأحمِلُ ذاتَه في كَتَفي.

من أحكامِ اللّغة قَولُنا: شَاقني الشَيءُ، يَشوقُني، فَهوَ شائقٌ وأنا مَشوق. فالعاشِقُ كائن مِنَ الأشواقِ لا تَعثر، الدَّهرَ، على تُرجُمَانِها. ولَيسَ غريباً أن يَكونَ الشَوّقُ في لسان العرب، هُمُ العُشّاق.

(XII)

لو أكون من أحبّ...

[وما زلتُ إيّاها وإيّايَ لم تزل،
ولا فرقَ، بل ذاتي لذاتي أحبَّتِ]

(ابن الفارض)

[(...) فالمحبُ الصادق من انتقل إلى
صفة المحبوب، لا من أنزل المحبوب
إلى صفته]

(ابن عربي)

الفِتْنَةُ هِيَ مَا يَستَدعِي رَغْبَتِي، أنا العَاشِق، فِي اكْتِنَاهِ الفَرِيد، الّذي لا يُضَاهى، فِي جَسَدِ مَنْ أحِبّ. والفَاتِنُ مَا تَمثُلُ لَدَيْهِ رغبتي وُلُوعاً لا يُسمَى ولا يُشارُ إليهِ بِعَيْنِه لأنّ الإشارةَ تَقصُرُ عَنهُ. إذ «الحَرْفُ يَعجزُ أنْ يُخْبِرَ عَنْ نَفْسِه فَكَيْفَ يُخبِر عَنّي» (النِّفَري). والفِتْنَةُ، لُغةً، هِيَ الخِبرةُ والابتِلاءُ والضّلالُ والكُفْرُ والإثْمُ والفَضِيحَةُ والعَذابُ والمَرَض. وَمَنِ افْتُتِنَ فِي دِينِهِ (على المَجْهول) مَالَ عنه. وفَتَنَ فُلاناً، أضلّهُ. وفَتَنَ الشّيءَ فَتْناً أحرَقَه. لِذلك ما يُثيرُ رَغْبتي في جَسَدِ مَنْ أحِبّ لا يُسمَى، وإذْ أجاوزُ «الحَرْفَ الّذي يَعجز أنْ يُخبر»، أقولُ إنّه فَاتِن. أيْ إنه في تَعَذُّر التّسمِيَةِ والتّعْيينِ والإشارةِ الوَاضِحةِ إلَيهِ يَصْنَعُ رَغْبتي ووُجْهَةَ نُزوعِها والمَيل. وعِندَئِذٍ تُصبحُ الرَّغبةُ لا وَصفَ حَالٍ واحدة، بَل اثنتين أو ثَلاث. أنْ

أزغَبَ في جَسَدِ الحَبِيبِ، أيْ أنْ أُريدَه بِالحِرْصِ عَليه وأُحِبَّه. وأنْ أزغَبَ بِهِ عَن غَيره، أي أُفَضّلَه عَليه. وأنْ أرغبَ إليه ابْتِهَالاً وضَرَاعةً ومَسألةً. وفي الوَقْتِ عينِه أزغَبُ، رَغبةً أخيرةً، عمّا تَبَقَى زَاهِداً في مَا سواه تَاركاً إياه.

رغبتي إذاً تَصنعُها الفِتْنةُ وافْتِتَانِي (على المجهول) بِمَا لا يُسمَّى أو يُشارُ إليه بالحرفِ واللّفظِ، يَجعلُني على ضَلالٍ وابتلاءٍ واختلاط، فلا أعرِفُ لها قَضَاء. لذلك أعمَدُ، فِي الحَيْرةِ الّتي استبدّت بأحوالي، أنَا العاشقُ المَشوق، أتَلَمّسُ مِنْ جَسَدِ مَن أحِبّ ما يَقِيني، في مَقام حَيْرتي، دَوامَ التشوّقِ إلى مَا أجهَلُه. والتلمُّسُ تفتيشٌ وَنَبش وَرَفْعُ النّقابِ عَمّا يَستَتِرُ (أو يُجَنّ عَليه بِرِدَاء أو حُلّة أو ظَاهِر حَال)، فابتداءُ رغبتي في أنْ أكونَ جَسَد مَنْ أحبّ، (وَجَسَدَ، لُغَةً، لَصَق) أنْ أتَحرّى باللّمسِ مَا يَقرُنُ حَالي بِحَالِه قَرْناً، أي ما يَشُدُّني بِهِ وَيَصِلُني إليه. وكَأنّ مَا يَعْتَمِلُ فِيّ ويَزْدَادُ التِهَافاً ليسَ مِنّي بَلْ مِنْهُ هوَ وفي الثنايا الّتي لا تَعْرِضُ للعينِ بل تَستَدْعي جَمْعَ الحَوَاسّ في حَرَكةٍ واحدة. أيْ أن يُحَلّ جِسمي (يُذَاب) ويُحلّ جِسمُ مَنْ أحب (يُسكَن). وعِنْدَما يَحالّ الجسْمُ الجسْمَ تُستَبْعَدُ الإشارةُ إلى مَا يَدلّ على العَلاقَةِ بَيْنهما، فَالحَليلُ هو القَرين والزّوج، ولا تُضافُ تاءُ المَنطقيين على الاسم (فتغدو تحليلاً) إلّا لحَذْفِ مَا يَتوسّطُ طَرَفَيِ القَضِيّة. ورَغْبةُ العَاشق إذ تصبو إلى رَفْع الحِلّة (الثوبِ السّاتِر لِجميع البَدَن) إنّما تؤكّدُ الإرادة والشّوقُ (بالمعنى

الصوفي) أي تؤكّد الفَرْقَ بِدَايةً وتَستَبعد الحلول. وإذا كان أقصَى تَشوّقِ العَبْدِ للمَعْبُودِ لا أحوالِ الصوفية، يُفْضِي إلى الفَنَاءِ، فالعاشِقُ لا يُفني رَغْبَته بَلْ يَستَزيدُ التِهَافَها بالمِزَاجِ مِنَ البَدَنِ وما رُكّب عَليه مِنْ طَبائع. فالرغباتُ أمْزِجَةُ انْتِفاءٍ للفاتن فِي جَسَدِ الحَبيب. وجَسَدُ الحَبيب كلُّه فَاتِن، أيْ يَقْصُر عنه الوَصْفُ وتقصُرُ التَّسْمية.

لشدّة مَا أرْغَبُ في مَنْ أُحبّ، ولشدّة مَا أرْغَبُ إليه، أحبُّه ضَرَاعةً وابتهالاً لا أنْ أمنَحَ جَسَدَهُ بَل أنْ أكُونَ جَسَدَه، أتَعَرَّفه، وَيكونُ مِزاجاً لي. والمِزاجُ الّذي يَصبو إليهِ العَاشِق ليسَ نَظِير امتزاجِ أهلِ الجَفر إذْ تُجْمَعُ حروفُ اسم المَطْلوب مَعَ حُروف اسم الطالِب، مَجازاً، بل هُوَ نَظِير الاتّحادِ فِي قِيامِ ذاتِ مَقَامَ أخرى.

أشدُّ ما في رَغبة العاشِقِ انتقالُه إلى صِفَةِ المحبوب. وأكثر ما يَفي التِهَافَ الحَوَاس لَديه أنْ تَنْتَقلَ الحَاسَّةُ إلى صِفَةِ مَحْسُوسِها. وإذ ذاك لا تَكونُ الغَايةُ إدراكاً لعَرضٍ مِنه، فَشَرْطُ الإدراكِ وَسَائِطُ اعتِلالٍ تُفْضِي إليه، وإعمالٌ للذّهْنِ فِي صُورَةٍ مُجرَّدة. وإذا كان اللّمسُ في تَلَمّسِه مَبعَثَ الرَّغْبَةِ ومَكْمَنَها مِنْ جَسَدِ مَنْ أُحبُّ، تَكُفُّ اليَدُ، أو راحةُ اليَدِ، المُلامِسة عَن أنْ تَكونَ يداً. فَمَوضِعُ الاستِدَارةِ أو الاكْتِنازِ أو التَّثَنّي مِنَ الجَسَدِ الشَائِقِ يُحيلُ مُدرَكَ الحَاسّةِ إلى صِفَة له. وبذلك تَكونُ اللّمسةُ دَافئةً أوْ مَلْسَاءَ أوْ مُتَعرّقةً أوْ لَزِجَةً أوْ عَمِيقَةً رَاعِفَةً أوْ مُرتَعِشَةً أوْ حَائِرة. كذلك الشَّمّ إذ يُصيبُهُ عُطْرُ مَا يُزكي

بِهِ أطرافَه. والذّوقُ والسَّمعُ والبَاصِرة. لا تَرى العَينُ إلّا فِتْنةً مِنه فهيَ إلى دَوامِ افتِتَانٍ ومَيلٍ يُشبِهُ الضّلالَ لشدّةِ ما يَطْغَى وَيَسْتَبِدَ.

يَجْعَلُني مَنْ أحبُّ على صُورةِ صِفَاتِهِ فَلا أجِدُني إلّا بِمَا يُمْلِيهِ عليّ حُضورُه. ولا أُنزِلُه إلى صِفَتي لأنّني فَاقِدٌ لَها، أو أتشوَّق فُقْدَانَها فأجَاوزُ حدَّ التَّفرِقَةِ إلى جَمْعٍ لا تَعُودُ في صِفَتي هِيَ الرَّسْمُ والتّعريف. فَكُلُّ الصِّفاتِ تعودُ إليهِ ولا أستَبقي مِنها إلّا المَحوَ وسَلبَ الإرادة. أتَنَفَّسُ هَوَاءَه لأبْقى. أُلامِسُ جَسَدَه بالرغبةِ الّتي يُوقِظُها جَسَدهُ فِيَّ، فهي لَيست مِنّي بَل مِنه وفِيهِ وبِهِ وإليه، وهِيَ رَغْبَةٌ عَنْ ذَاتِ نَفْسِي إذْ يَشوقُها التَّأنُّث بالمُشاكَلة. فالشَّكْلُ هُوَ الشَّبَهُ والمِثْلُ والنَّظِير، وَما يَشوقُنِي في مَنْ أُحبّ شَكْلُ مَا يُفرّقني عنه ويَجعَلُني الآخَر والسُّوى والمُخالِفَ والغَريب. ورغبتي أن تَجْعَلَني الرّغبةُ أدنَى منه وإليه. فتؤنّثُ المُلامَسةُ يَدي. وَيرقُّ بالإصغاءِ صَوتي، ويزيلُ عِطْرُه رَوائحَ اشتهائي، ويُخالِطُ رِضَابُه المُرَّ في قُبلاتي. ولَيسَ احتضاني مَن أحبُّ وسُكوني إليه، إلّا تَوريةَ اشتمالِه نُقصاني بِمَا يُعوِزُني: لماذا أكون دائماً ما أكونُ عَليه، ولا أكونُ من أحبّ فلا نَفتَرق الدّهْرَ؟

(XIII)

أيُنا أنا... أيُنا أنتِ؟

زَها جِسمُ ليلى في الثياب تَنَعُماً
فيا ليتني لو كنتُ بعضَ بُرودِها

(مجنون بني عامر)

[(وحُكِيَ) أنّ مجنون ليلى قيلَ له: ما اسمك؟ قالَ: ليلى. وقيل له يوماً: أوَماتَت؟ قال: ليلى في قلبي لم تمت أنا ليلى (...)]

(أبو حامد الغزالي)
(مكاشفة القلوب)

في كلّ ما يَأتِيه العَاشِقُ إنكارٌ وتَنَكّرٌ. إنكارٌ للذاتِ وتنكرٌ لها. وليسَ في الإنكارِ والتنكّر هَذين أيُّ استِبعادٍ للأثَرة أو المَيل إلى غيريّة مُسَالمَةَ. بَلْ دَأبُهُ ومُرتَجاه أنْ يُخليَ الفَاصِلَ بَين ذَاتين وجَسَدَيْن مِنْ كُلّ تَفرِقَةٍ أو مُغَايَرة. ولِسَانُ حَالِهِ عَلى دَوام التَّمنّي: أريدُ أنْ أكونَ مَنْ أحِبَ، وأريدُهُ أنْ يَكونَ أنا. وإذَا أعْيَتْهُ الحِيلةُ في اتّحادٍ ليسَ تَمَامُه إلّا الفناء، يَعْمَدُ إلى التّنَكّر في إبدالِ مَظهَرِهِ، أيَ يَعْمَدُ إلى المُلابَسة بالمَغنيين: اللُّبس (مصدر قولكَ: لَبِسْتُ الثوبَ) واللَّبس مَصدر قولك لَبسْتُ عَليه الأمرَ، أي خلَطْت). ومُبتَغَى المُلابَسة أنْ يَرى المَحْبوبُ أنَّ المُحبَّ لَبِيسُه، أي نَظِيرُه ومِثْلُه.

وسَبيلُ العَاشِق إلى ذلك، التَّأنُّث والمُوافَقَة، والزيُّ، أي

الهَيئة. فلا يَحرِصُ على شَيءٍ حِرْصَه على أن تَتَبَدّى صورتُه أشبَه ما تكونُ بصورةِ الحَبيب. ويَجعلُ نَفسَهُ جَميلاً ليُشبِه مَنْ يُحبّ. إذ لا تُخالِطُ صورةَ الحبيبِ شُبهةُ دَمامةٍ أو نَقيصةٌ أو تشوّه. فالفِتنَةُ تجعلُ منه الأكْمَل طَلْعةً وطَالعاً، وفي صَبوةِ العاشقِ لأنْ يُشبِه صورتَه نُزوعٌ لاطّراحِ الريبةِ في أن لا يكونَ جمِيلاً. كلُّ عاشِقٍ جَميل لأنَّ كُلّ معشوقٍ جميل. وإذا كان جَمالُ التَشوُّقِ مكنوناً فلأنّه يَكتنُّ مِنْ وَراء حِجاب. من وَرَاءِ اللِّباس الّذي هو غِشاء. وما تُزالُ غِشاوةُ السَّترِ، بالإباحةِ (أي سُفور المكنون)، بل بارتِضَاءِ العاشقِ نِقاباً يُشبهُ كنَّةَ المَعشوق، علَّ الشبه في حالِ ما يَحجُبُ يُسفِرُ عن شبهٍ في حالِ المَكنون.

يحيا العَاشِقُ إذاً في طَلَبِهِ المُحاكاة. إذ لا يُقامُ وَصْلٌ على حَالٍ مِنَ المُغايرةِ والبَيْنِ والافتراق. أصْلُ المُحاكاةِ في ابتِغاءِ الشَّبَهِ تَجاور الرَّغَبات. لكنّها أيضاً في تغيُّر المَظْهَر والشَّكلِ والهَيئة. فالعَاشِقُ (إذا كان رجلاً) يَرى أو يُريد أن يَرى في المَعْشوقِ (إذا كانت امرأة) مظهرَ المرأةِ، الّتي يَوَدُّ أنْ يكونَها في تَنَكُّره لذاتِ نَفسِه. والعَاشقةُ (إذا كانت امرأة) تُريد أنْ تَرى في المَعْشوقِ (إذا كان رجلاً) مَظْهَرَ الرَّجُلِ الّذي تَوَدّ أنْ تكونَه مِنْ وَراء النّقابِ الّذي تَكْتَنُّ به. وبذلك يَتَنَكَّرُ العَاشِقان لِمَظْهريهما ويَتّخذُ واحدُهما (أو يَسعى ما استطاع) الهيئةَ الّتي تُجاوِرُ رغبةَ الآخر ومُبتَغاه. وكأنّهما في ذلك يَجعلانِ مِنَ الزيّ واللّباسِ لعبةً للمُلابَسةِ الّتي هي اختلاطُ الصّفاتِ،

فَتُحيلُ الجَسَدين في لِقائهما إلى استعارة أصلها الخُنثى، وهو المخلوق الخُرافي الّذي جَعَلَته المِيثولوجيا اليونانية صورةَ الإنسان في بدء الخَليقة. وإذ فَصَلَ زيوس جَسَدَ الخُنثى إلى اثنين، ذكراً وأنثى، كان عَيشُ البشر عقاباً متواصلاً في سعي كلِّ شَطْرٍ منهما للعثور على تمامه في الآخر والاتّحادِ به.

لا يأبه العاشق لخُرافةِ اليونانيين، إلّا أنّه يَرتَضي مُحاكاةَ الصورةِ الّتي يَرتضيها له المحبوب. يَمتَدِحُ المحبُّ رقّةَ مَنْ يُحِبّ، فَيَرى المَحبوبُ أنَّ الرّقَّةَ كَسبٌ له ممّن أحب. فالصفَةُ لَيسَتْ مِنه، بل مِنْ مِقْدارِ المَحبَةِ، أي إنَّها مُؤنثة وكلُّ ما تأنَّث له صِلةٌ بالآخر (وهو، هنا، الرجل) الّذي يَطرَحُ عَنه سِمَةَ «الرّجولة» ارتضاءً للشَّبَهِ بِمَنْ يحبّ. يَطيبُ للمحبوبِ عِطرُ المُحبّ، أو يَروقُه الثّوبُ الّذي يَرتديه أو يأنَس لعبارة مِنه، فلا يَني يَمثُلُ المحبُّ لِذاته في طِيبِ العِطْرِ ورَائقِ الثّوبِ وأنسِ العِبارة الّتي نَالَتْ من المحبوب التفَاتاً.

وأُمنيةُ العاشِقِ أنْ يَكونَ «أناهُ» عَلى صورةِ ما يَتوقُ إليه الآخرُ توقاً في التفاصيلِ الّتي لا كلَّ لها. يَجِدُهُ في العِنَاقِ امرأةً وفِي البكاءِ طفلاً وفِي الأسى أمّاً وفي الغِبطةِ صُحبةَ ما لا يَبذُله الصَّخبُ لأنَّ الصَّحبَ أغيار، والمَحبوبُ هو الأنا الّذي أرتضيه بمقدار ما يَرتَضيني «أناه»، هُوَ «لِباس لي» وأنا «لِباسٌ له»، إنْ لابَسْتُه عَرفتُ باطِنَه وسَكَنْتُ إليه، وإن لابَسَنِي عَرفَ باطِني وسَكَن إليّ، فاجتمعنا في اللّبس، فأيّنا المحبُّ وأيُّنا

المَحبوب؟

(XIV)

سرُّ الأسارير

[ومن بعض صِفاتِ الحُبّ الكِتمَان
باللّسان (...) ويَأبى السرُّ الدفين، ونارُ
الكلَف المتأججة في الضلوع، إلّا ظهوراً
في الحَرَكاتِ والعين (...)]

(ابن حزم الأندلسي)

كلانا مظهرٌ للناس بغضاً
وكلٌّ عند صاحبه مَكينُ
تبلّغنا العيونُ بما أردنا
وفي القلبين ثَمّ هوًى دفين

(من أخبار مجنون بني عامر،
لأبي الفرج الأصبهاني)

ما يجمع بين العاشِقَين ويوطّدُ حَالَهما على دَوامِ الألفِ والشّوق، سرٌّ لا يُفشى ولا يُذاع. والسرّ بينهما يجعل مِنْ واحدهما خِلّاً للآخر ومعرفةً. فالمحبّ وحده يعرف ما لا يعرفُه آخرون، مهما انتسبوا إليه أو انتسب إليهم، مِنْ خِصالِ المحبوبِ ومزاياه، وحقيقته، حقيقةِ ما هو عليه لا تتقوّم إلّا بهذه المعرفة؛ وفي امتلاكِ المَعْرفةِ هذه إنشاءٌ لاستيهام الحقيقةِ الّتي لا تكونُ حقيقَةً إلّا استيهاماً وتَوهّماً. ومَصْدرُ الخُصوصِ في حقيقةِ مثل هذه ما يَجْهله الآخرون بشأني، أنا المُحبّ،

وبشَأن المحبوب. فما يَجْمعُ بيننا دون الآخرين إدراكُ كلٍّ منّا لحال العشق. لذلك أعرف من أحبّ، ومن أحبُّ يَعْرفُني، معرفَةً تتقوَمُ بالأصلِ من كلِّ شيء، ولبِّه وجَوْفه ومَكْنونِه والعلم به، وهذه كلُّهَا، لغَةً، من مَعَاني السِّرّ.

إلّا أنّ مُفَارقَة السرّ أنّ تصاريفه في حُكم الأضداد. إذْ أسَرَّ الشيءَ كَتَمَهُ وأظْهَرَه. ويقول أبو عبيدة: أسْرَرْتُ الشيءَ أخفيتُه، وأسرَرْتُه أعْلَنْتُه، والحديثَ أفضيتُ به. أمّا المودة فإسرارها أو الإسرار بها مسارّة وسِراراً، فهي المُناجاةُ بين متخاطِبَيْنِ على انفرادٍ وتفرّد. والسرُّ هو الوصلُ إذْ يُكتَم. وهو الوصلُ الْحَرَامُ لأنَّ الحَلالَ منه يُفصَلُ، على ما أورده الترمذي، بالدفِّ والصوتِ، أي الإعلان والمُكَاشفة والجهرة والإجهار بصخبِ الاحتفال.

سرُّ العَاشِقَين إذ يُقيمُ على حُكمِ الأضْدادِ لغةً، يجعلُ اللّقاءَ كَنَفاً لكتْمَانٍ وتواطؤٍ ويستحيلُ ما يُجْهَرُ «بالدفِّ والصوت» (الزفّة كما تقول العامة) إلى حالٍ تَكتُّم أو يُسَرُّ بِهَا همساً ولمساً. فالعاشقُ له قُدرتان: إحالةُ البَثِّ إلى كتمانٍ، والإفراطُ في تَضْمينِ المَظْهَرِ والحَرَكةِ والسِّيمَاء مِنَ العَبْرَةِ مَا فَاضَ بها معنًى ودَلالةً. فإذَا كَان السرُّ ما يُكْتَمُ فمثيلُهُ هو خطُّ بَطْنِ الكفِّ (العِرَافَة) والوَجْهِ والجَبْهةِ (الفِراسَة)، وإنْ جُمِعَتْ على أسْرَارٍ فالشَائعُ في استعمالها جَمْعُ الجَمْعِ على أسَارير، أي ما يُجْتهَر (يُرى) مِنَ المَكْنُوناتِ والدفائنِ، بغير العِبَارة الصَريحةِ، جليّاً على خطوطِ الوجه وفي التماع العَين أو

الابتسام أو حركةِ الحاجبين والجَفنين. وما تبثُّه اليَدُ لا اللسان، ومَا يَجْهَر به احمرارُ الوَجنَتين أو تورّدهما أو امتقاعهما أو شحوبهما، وما تُفصِحُ عنه النَّبرةُ لا اللفظُ من مؤانسة أو جفَاء أو حُنُوّ.

لا تدومُ حالُ العِشقِ إلّا بدوامِ السرّ الّذي يَكتنفُها أو تُكْتَنَفُ عليه. فمِنْ جَذْر السَّرَر، السّرور، والسرّ والسَّراء والمَسرَّة وكلها، على ما يذهَب إليه السيرافِي، معنًى للفَرَح. وما يُسرّه العاشقان كتماناً هو الغِبطةُ الّتي تَجمعُ شملهما على انفراد وفي خِلّة من الآخرين. إذ يجعلُ السرُّ اتصالهما على غرار ما يُكتمُ في الحياةِ الحميمةِ ولا يُذاعُ لأنّه التمامُ والمبتغى، وكمالُ الصَّبوةِ إلى المُخالطة. وما يُكْتَمُ هو قوامُ الرغبة الّتي لا تُقالُ ولا تتسعُ لها العِبارة مهما حَذقت. فالسرّ هو الّذي يُقيمُ لِلعاشقين كنفاً لاعتزالِ ما سواه والانصراف عما يُحيلُ الذاتَ إلى صفةِ في العموم. والمُعلنُ هو اشتراكٌ في فِعْلةٍ أو صِفةٍ أو مَزيَّةٍ، يُقرّ بها الجَمْعُ ويتّصفُ بها. أمّا (المُحِبّ) فلا قِوَام له كعاشقٍ إلّا إذا كان فريداً، على غرار المحبوب، ولا قوام لعشقِهِ الآخر إلّا إذا كان يعرفُ من شأنِ الآخر ما يُجْهلُ على الإطلاق. أي قوامُه أن يكون المحبُّ سرَّ المحبوب، عالماً به عِلْمَ من يتكشّف له المَكْنون، ليس لِبراعةِ مِنه وحَذَقٍ وحُسنِ دِرَاية، بل لأنَّ مِنْ طَبْعِ المكنون أن يُجْهرَ لأحدٍ مخصوصٍ هو المُحبّ دون سائر البشر.

والسرّ بين العاشِقين آصِرةٌ لا تُضاهى. فهو ما لا يُعلمُ

من حالِهما، أي جانب الخفاء الّذي يُضاعفُ لَبْسَهُ ما يَكتنِفُه من استيهام الشهوة في مواضِعها؛ فالشهوةُ للجسم العاشق على غرار غبطةِ النّفْس، مكنونُ المشتهى من الآخر ولا يُنالُ إلّا خِلسةً وسِرَاراً وتَسْرِيةً لكي لا يُسفَّه في حُكمِ العُموم.

(XV)

نصُّ الغياب

[... وأعني بالخواطر ما يَحصلُ في القلب من الأفكار والأذكار. إمّا على سبيل التجدّد وإما على سبيل التذكار. فإنها تُسمَى خواطر من حيث إنّها تخطرُ بعد أن كان القلبُ غافلاً عنها... فمبدأ الأفعال الخواطرُ ثمّ الخواطرُ تحرّك الرغبةَ.]

(أبو حامد الغزالي)

في انصرافي إلى مَنْ أحبّ يُملّيني حُضورَه وسُكنايَ إليه، أرتضي منه أمارةَ المودَة على ظَاهر عبارتِها فَحَسْب؛ ومنْ تَصاريفِ العبارةِ الإغضاء والإيماءُ والبَسمةُ واللمسةُ والإسرار والمُداعبة والتعريض بالقول إلماحاً، والموافَقةُ على سبيل البَثّ، والمُخالفةُ والتعديدُ على سبيلِ العتابِ. وإذ ذاك لا تُشكّلُ الأمارةُ أو تُلابِسُ يقيني مَظَنّةً. فالحضورُ، حضورُ مَنْ أحبّ طُغيانٌ وإملاءٌ (يُمَلّيني إيّاه: إذا مَتّعني به وأعاشَني مَعَه ملاوَةً، أو رَدحاً يَطولُ مِن الزمنِ)، يمنعان عَنّي الخَطرةَ والخوفَ الّذي هو، بحسب التعريفات، خِشيةٌ وتوَقّعُ مَكروهٍ أو فواتُ مُرتَجى. والألْفُ سَكينةُ النّفسِ إلى دَوَامِ الحالِ على وَصْلٍ ومَسارّة فلا يَعتورني الفِكرُ.

آية الحضور إذاً أنْ يُحمَلَ البَثّ على ظَاهرِ أمره

ويَغفلَ القلبُ الفكرَ والأذكارَ إذ يُملّيه المحبوب مؤدّتَه عن إعمال الخاطر فيه. فالمُفردةُ لها المَغنى الّذي يُستعارُ من أمارة المودّةِ والأنسِ والمَيْلِ، والعِبَارةُ لا تَحيد إلى مَجازٍ أو استعارةٍ إلّا بما ناله الوضوحُ منهما. ولا تكونُ المُخاطبة بين العاشِقينِ إلّا استئنافاً لحوارٍ سَابقٍ يستمدُّ مَعَانِيهِ من الثّباتِ على حال العِشقِ بينهما ومُفرداته. لذلِك يُبطِلُ الحضورُ عَملَ الفكر والفَكرِ وهما إعمال الخاطر في الشيء. وتستَكينُ اللواعجُ إذ يَأنس المُحبُّ إلى توكيدِ المودّةِ بالأمارة لشدّةِ ما تكونُ عليه منَ الإفْصَاح والوضوحِ.

أمّا الغيبةُ فهي مَبعثُ الفِكر ومَدَاه، يَنصرِفُ المحبوبُ عنّي، وفي انصرافِه هذا إلغاءٌ للمَتْنِ الّذي منه تَستمدُّ العِبارةُ وَجهَ التوكيد فيها. والتوكيدُ في حالِ العاشق لَيسَ من أوْجُه تصاريف اللّغة بل من أوْجُه تَصاريف الجسم. والتوكيدُ هوَ الجَوهرُ الّذي تتقوّمُ به حالُه كعاشق وعِبارتُه الّتي لا تَبرحُ صيغةَ البثّ والاعتراف. إذاً يغيبُ المحبوبُ فتفقد المخاطبةُ سنَدَها وَمَتْنَها. ولا يبقى منها سوى الترجيع، وهو التكرارُ والترديدُ، لكنَّه أيضاً في جَوازِ استخدامِه، الإبدال. أرجَعَ الشيءَ شيئاً آخر، أبْدله. ومن معناه رَدُّ الظّاهِر إلى باطن مُفتَرض. فالتأويلُ، بحسب التعريفات، هوَ التّرجِيعُ وما يتّصف بالرَّجْعِ هو الصّدى لا الصوت، أي التّرداد الّذي يَلي الصوتَ في فَراغٍ ومدى.

يُصبحُ رَوْعُ العاشق في غيبةِ المحبوبِ وعاء لترجيعِ

الخَطَرَة، ويَستغرقُ في إعمال الخَاطرِ في كلّ ما يتردَّد صداه من عِبارة المحبوب وإشاراته. فالخاطرُ أيضاً هو الهَاجسُ، وخَطَرَ الشّيطانُ بين الإنسان وقَلبهِ، أي أوصَلَ وسواسَه إلى قلبه؛ والخَاطرُ النفساني، بحسب تعريفات الجرجاني، هو ما يُسمّى هاجساً، وهو على غِرار الفِكر، ترتيبُ أمور معلومة للتأدّي إلى مجهول. فَما كان مُدركاً وجلِيّاً في حضور المحبوب ثمّ يُعمَلُ فيه الخاطرُ، يؤدّي إلى مجهولِ متنه التذكار. وإذْ يطولُ التأوّلُ إلى العِبارة يُجَرّدها من نَبرة التوكيد وصيغتِه، فتكونُ الحَيرة. فالخَاطرُ، بحسب الغزالي، ينتقلُ من الشيء، إلى ما يناسبُه إمّا بالمشابهة وإما بالمُضادة وإمّا بالمُقارنةِ، وهذه كلّها «تراجم كثيرة الكذب»، ويَقينُها الترجُّحُ والوسوَسةُ وربّما سُوء الظنّ.

يسألُ العاشقُ: هل أراكَ غداً؟

يجيبُ العاشقُ: إذا شِئتَ.

وظاهر الإجابة جليّ القَصْدِ. وهو إطلاقُ مشيئةِ الآخر في إبداءِ الرغبةِ في رؤيةِ الآخَر. إلّا أنّ الخَاطِرِ، إذ يعتقِد بالترجيع أواصِرَ المُشابهةِ والمُضادةِ والمقارنةِ، يُحيلُ جَلاءَ القَصْدِ، حيرةً وتلهُّفاً، إلى معضلةِ تأوّل، ذلك أن إطلاقَ مشيئة الآخر الّتي يُبادر إليها المحبوب قد تشي بالحيادِ واستواءِ الرغبةِ وعدمِها. أو إنّها إحالةٌ صريحةٌ لرَجاءِ اللّقيا إلى رغبةِ السّائلِ لا رغبة المُجيب، وما يعنيه ذلك من توهُّم لبَوادر جَفْوةٍ أو جَفاء.

لا تبدو صيغةُ الترجُّحِ والتعليقِ والإرجاءِ وما شاكلها

صريحةَ العبارةِ في جِوار العاشقين، لأنَّ النبرةَ والحركة المُصاحِبَة، أو حتّى النظرة أو الإغضاء، من أشكال التّوكيد الّتي قد تعجز عنها صيغةُ العِبارة. أمّا الغِيابُ فهو مُتَّسعُ «ما يحصل في القلب من الأفكار والأذكار...»، والتذكّر توليف وتأليفُ وصناعةُ مشهد، والمشهدُ لا يقومُ إلّا بعناصِر الخَبَر، والخَبَرُ حكايةٌ تَصْنَعُ الواقعةَ من ألفِها إلى يائها. والخبرُ اختراعُ وتلفيقٌ ونسجٌ على ما تقتضيه السِّيَاقةُ. وسياقةُ خَبرِ العاشقين فواتُ المؤمَل وخوفُ الجفوة. والفكرُ، سحابة يوم العاشق وليله، ابتكارٌ لنصِّ الألمِ والفُقدانِ، يُتلى ويُستعاد.

(XVI)

تصاريف الوَحشةِ: خطابُ الصَدى

[كان المجنون في بدء أمره يَرى ليلى ويألفها ويأنس بها ثمَ غُيِّبَث عن ناظره، فكان أهله يُعزّونه عنها ويقولون: نزوَجك أنفس جارية في عشيرتك. فيأبى إلّا ليلى ويهذي بها ويذكرها وكان ربما هاج عليه الحزنُ والهمُّ فلا يملك مما هو فيه أن يهيم على وجهه، وذلك قبل أن يتوحَش مع البهائم في القفار (...)]

(من أخبار مجنون بني عامر)

إذا أوْحَدَني المحبوبُ وتَركني وجَعَلني أحَداً وَوَحداً، وإنْ ملاوةً، أفقدني القُدرةَ على التخاطُب، وأفردني، أيَ أقصاني عن الأنس به والأنس إليهِ وهذا منتهى الطمأنينة على ما تقول العرب. وإذا أوحدني أقصاني عن نسبي إليه، وهو قوام حالِي، فأُفردُ ولا نَظيرَ لي وأستَفْردُ ولا صَحبَ لي. ذلك أنَّ الأحد، والوَحدَ والوَحِيدَ، في تصارِيفِ اللغةِ هو «الشيء» أيضاً الّذي تُستَبْدَلُ به كلّ إشارةِ إلى النَّكِرةِ الغَفل.

إذا غاب المحبوبُ أو غُيِّب أو ابتلاني، أنا العاشق، بالبَيْنِ، استبدّت بي الوحشةُ والفَرَقُ من الخُلوةِ، وضاعَ من باصرتي القَصْدُ، لأنَّ القَصد وجهةُ من أحبَ ودارةُ

ألفه وأنسه، ومُخاطَبتي إيّاه شهوداً لا غياباً. وإذْ أفتقدُ القَصْد إليه والوجهةَ، أسْتَوْحِش، أي أقيم، ولو في كَنَفِ الصَّخْبِ والأهلِ، في مكانٍ وَحْشٍ (خال) وأرضٍ وَحْشَةٍ (قَفْر)، ولا أستأنس إلّا بليلٍ هو الهَومةُ (الفَلاة) المضاعفةُ، ويكونُ الهَيْمُ حالي.

فالوحدة والتوحّدُ من أحوالِ العَاشقِ وصِفاتِهِ، إلّا أنّ الذات مستوحِدةٌ لا تُعْدَمُ، في المُضاناة، وسيلةً للبَثّ والنجوى والإخبار وإسرار الشكوى. أمّا الوَحْشَة فهي مُكابدةُ ما يُسَرُّ به وما لا يُقالُ إلّا على سبيلِ الهَذي، أي بِكلامٍ غير معقول يُشبهُ كلامَ المعتوه أو المُصاب بالحمّى. وفي الهَذي عِبارةُ الوَحْشَةِ وإن تصوراً وتخييلاً، فهو يُشاكِلُ الهَيْمَ أو الهُيامَ الّذي هو، نحو الدّوار، جنونٌ يأخذُ الواحِدَ حتّى يَهلَك، والهائمُ هو الذاهبُ على وَجْهِه، مُستهام الفؤاد أي مُذهَبه لا يَعْثر في أُنسِ الصَّخبِ على العزاء المُرتجى. وقد تَكونُ حالُ الوحشةِ مُقيمة على المَكْثِ لا الهَيْم، أي الفَرَق والجَزَع من الخلة والقَفْر، وتَنَسّم الخَبَر الّذي لا يَزيد العاشِقَ إلّا ضنًى وسقاماً. في أخبار مجنون بني عامرٍ يتردّد لفظُ الشَّهْقةِ وهي عِبارةُ تَرْكِ الجَسَد «شيئاً» بلا روح. «فَشَهِقَ شهقةً وسقطَ مغشيّاً عليه». فالخبر رسولُ المبايَنة، أي البُعاد، وهو خبرُ الإقامة على الهَيْمِ والضنى، لأنّ الخبرَ إذ يُنقَلُ أو يَفشو لا يَحمل في متنه إلّا ثبات الغَيْبةِ. فهوَ الصِّلةُ الّتي تؤكد الغِيابَ واشتراكَ القَصْد ولَبْسه. فالعاشقُ في حالِ الوَحشةِ هائمٌ ولو في مَقامِه الّذي يَبرَحهُ إذ لا موضعَ

في الفَلاةِ (وهي الهَوْمة) يُغتَلَمُ موطئاً ومقاماً. ويُقال فيه، أي العاشق إذا استوحش، أصبح هامةً (من الهَوْم) أي ماتَ إثرَ كلِّ شهقة. والهامةُ، على الوزان، من طَير اللّيلِ (لعلّه الرسول أو الخَبَر) يألفُ المقابرَ؛ وقالتِ العَرَبُ أيضاً إنّه الصّدَى. والوَحشةُ هي خِطابُ الصَّدى. إذ لا يُخاطبُ العاشِقَ إلّا «هاتف» الليل المقفرة أنحاؤه وثناياه.

لا يكذِبُ العاشقُ، إذ ليس في مُعْجَمِ العِشق كَذبٌ أو غَلَط، حين قوله لمن يُحبّ: «كلّ ما عداك قفر». والقفرُ كالموامَاة والهوَماة (الهيم والمَوْم الّتي هي الحمَى، حمَى الهذيان) مفازة واسعة ملساء لا ماءَ ولا أنيس بها. إلّا الهامة، طير المقابر أو الصدى؛ لأنّ العاشق في وَحْشَةِ البينِ يُقيمُ على رَجْعِ الصّورةِ والتّذكار، وما يسعى في الجوارِ ومِنْ حولِه يُفرده فإذا به قد وَحَدَ لا قوم له ولا ملاذ.

فالعاشِقُ يُقيمُ على طُوباه وغفله وانفرادِهِ ويُقيمُ على الشّقاقِ لا صلةَ له إلّا بذاته، وخطابُه المناجاة لا المُحادثة، وجليسُه الغائِبُ لا الحاضِر، فهو في غيبةٍ عنهم لأنّه في غِيبةٍ عنه. والوَحشةُ الّتي يُقيمُ عليها هي العُزلَةُ (الوَحْدة) بين الجمع، لأنّ «كلّ ما عدا المحبوب قفر لا أنس به». ولأنّ مرتجاه ليس الإنس (البشر) للمصاحبة والتسرية، بل الأنس، وهو عند الفرّاء، النسيب الّذي يُخاطبُ به المحبوب، والأنسُ أيضاً حديث النساء ومؤانستهن، والأنسُ الطمأنينةُ إلى من نحب.

إذا كانت العُزلة، عزلةُ العاشق، انكفاءً إلى الخلوة مع الذات، فهي استجماعٌ لملكاتِها واستئناس بِصُحبةِ المحبوب ولو على سبيل الوَهم والاستيهام. ولكنّ الوحشةَ ليست انفراداً بالذات لكي يستعارَ من الأذكار والفكر هيئة وحضور لمن أقصته المباينةُ والنأيُ والبُعادُ، بل هي إقامة الذات على الحنين إلى ذاتٍ في غير محلِّها. فالذاهبُ على وجهه، الشريد، ضاع منه القَصْدُ لأنَّ القَصدَ بات هُياماً، ومِنَ الحَضْرةِ لم يبقَ إلّا الصدى. والتوحّش هو صفةُ ما يترامى وليس فيه الأنثُ (اللين) بل ذكرُ (صفاقة) الترجيع. وهو أيضاً نَبذُ ما يَصطفي الهيئةَ والمَظهر قبلةً للنظر. وكأنَّ العاشق إذا استوحش وهامَ وَخشانَ ينالُ منه الفَرَقُ لم يَبتغِ حُسناً في الهيئةِ والمَلبَس لا يراهُ مَن أحبَّ. وهيامُه صُحبة الوحشِ في القفار تخلية لذاتٍ أصبحَت على حال نقصان وعَوَز وإعاقة. تقول أغنية أجنبية، ما زال يسمعها من بقي حيّاً من طَائفة الرومنسيّين: «أجدني وسخاً من دونك». وشريداً، وتائهاً، ولا ذات لي تجمع ما انفَكَّ عني من ملكاتٍ كانت لي مُعارة لأنَّ إحداها لا تكون إلّا لطغيان مَحاسِنِكِ أنتِ. ولم يعثر النحويّون وجمهورُ اللغويين إلّا على هذا الجمع من المَحَاسن الّذي لا واحد له. ولا تدخل اللغة في مِلْكِ الغلَط. لكلِّ حاسة بي جَفعٌ من المَحَاسِن هي أنتِ. وفي الغيبةِ أفقد الحواس والملكات فلا أجدُني فأستوحشُ في عالمِ أشبه بالقِفار.

(XVII)

الصَمت معجمُ الأشواق

[(...) والهوى عندنا عبارة عن سُقوط الحُبّ في القَلْب في أوّلِ نَشأة في قلب المحبّ لا غير. فإذا لم يُشاركه أمرٌ آخر وخلصَ له وصفا سُمّي حُبّاً. فإذا ثبت سمَي وداً. فإذا عانق القلب والأحشاءَ والخواطرَ لم يبق فيه شيء إلّا تعلّق القلب به سُمَي عِشقاً؛ من العِشقِ، وهي اللبلابة المشوَكة.]

(ابن عربي)

لا يَقربُ العاشقُ لغةً ليست من مَتْنِ خُبره ومَعَاشِه إذ لا يُبالي بما يَلْهَجُ به خِطابُ العُمومِ من التّواصل «إذا اضطروا إلى الحُكم بظاهرِ القولِ باللسان» لأنه (أي اللسان) «ترجمان كثير الكذب» (الغزالي)، أمّا العبارة فَسَندُ اللّبْسِ ومحلُّه، والصمتُ أوضح بياناً. وعزوفُ العاشق عمّا يُفيدُ الاشتراكَ أمارة على اعتزالِ وانعزالِ. فلا يطمئن إلى أخلاطِ الصّدى مما يُقيمُ على مَقْرُبةٍ، ويلوذُ بالتصدية مما يُخالطُ رَوعَه من تصاريف الشّوقِ. ورَوْعُ العاشقِ كَنَفُ الأصداءِ والتَّعلّةِ والتّحنان والخِشيةِ إذْ تُحيلُ الخِشيةُ كلُّ بُعْدٍ جَفاء. فالتجَافي تَباعُد المتلازِمَيْنِ، والجَفَاءُ البُعدُ، وجَفَاهُ إذا بَعُدَ عَنه وأجفاه

أبعَده، والعاشقُ، إذا جَفاه العاشقُ، صارَ مجفوّاً وجَفَتِ الأشياءُ قاطبةً عليه، أي ثَقُلَت عليه واستحالَ أرقّها إلى كَرَبٍ وكَدَرٍ وغُمَّة. وليس في بيان البُعد والتَّباعُدِ ما يفوقُ اللَغةَ قُدرةً على إبدالِ العين أثراً. وإدراجِ الحضورِ، في ملْكِ التَسمية. فما حَلَّ عليه الاسمُ، اصطلاحاً، صار في غيبةِ الدَعاءِ أو النِّداء. والمُنادَى ما يُستدعى تكراراً، بالصوت والصدى، وما يُقصِيهِ الجَفاءُ أي النُّبوَ والتباعدُ (اللّحياني) عن القُرب. فإذا كانت اللَغةُ تسميةَ الأشياءِ وإدراجاً للمثونِ في اصطلاح اللَسانِ (وهو لغةً وجارحة) أي في اصطلاح «تُرجُمان كثير الكذب»: «كانت اللغاتُ توريةً وبياناً كاذباً، فلا يطمئنُّ العاشقُ لأحكام جفْوَتِهَا، فَالجَفْوةُ، على غرار العِبارة، تَركُ الصّلةِ بالحِسّ، والاطمئنان إلى الصّلةِ بالاستدعاءِ والتكنيةِ والمُواراةِ والتَّقْليبِ بين أوجُه الاحتمال، أي إنّها صفوةُ ما يُجافي ويدعو القَريبين إلى النأيِ والبينِ، والبَينُ موضعُ الغيابِ الّذي لا يُغتلمُ أو يُحدُّ أو يُشارُ إليه، وهو موضعُ النداء.

لا تصدقُ لُغةٌ في رَوْع العاشق إلّا إذا كانت حالُه وجدانَها، فكلُّ تسميةٍ تجتفِيه (تقتلعه من الأصول) وكلُّ نداءٍ يؤرّق صحوتَه ونومَه. ولا يُطيقُ العاشقُ من المُفرداتِ إلّا حفنة، لا بل حَفْنة هي مُعجمُه الّذي تُبنى عليه حالُه، وخِطابُه سيّئُ الحال، لا سعَةَ فيه أو جَزّالة، بل سَقَمٌ وسُقام. والسّقَمُ في حال العاشق، إذا ما استبدَّ به الوَلَعُ، هو العيُّ الّذي يَلمُّ بلغتِهِ وأداته، فتضْمُرُ وتُذفِعُ لا عوزاً وعجزاً، بل تَعفُّفاً حيالَ مِزاج الجَفَعَ والسُّوى

ورَطانة عالمهما. إذْ ما يُجدي المتوحّدُ طوعاً نطقُه ألِفباءَ التواصُلِ (والتواصلُ حِسابٌ وَعَقْلٌ) حين تربو مفردة أو اثنتان عن حاجةِ العبارة، وحين يفي التكرار بدوام الحال على حالِه، إذْ لا يَعْرِضُ التبدّلُ في حالِ التشوّق بل المقدار الّذي لا يني يُستزَاد.

في اللقاء عبارةٌ واحدةٌ هي كلّ العبارات: أشتاقُ إليك. ولا تحتمل في وجه من الأوجه زيادةً أو إضافة. إذ لا يعرف العاشق لاشتياقِه العاشق مقداراً، بل هي الحال تامّةً تُقالُ (يُعبَّر عنها) مرةً واثنتين وثلاثاً أو أكثر. والغَرَضُ من تِكرارها ليسَ التعبير عن زيادة في المقدار بل العَوْدُ على بدء لا يطول إليه التَّصرُّمُ أو يتقادَمُ عليه العَهدُ. ذلك أنّ عَهْدَ العاشقِ لا يَحولُ مهما طال أمدُ سُكْناه إلى من يُحبّ، والزّمنُ ليس قياساً صالحاً له. أشتاقُ إليكِ وأحبّكِ ويُضنيني التفكّر ما أسقمني البُعادُ ولا حاجةَ لي من الدنيا سِوَاكِ... أو هكذا يُبنى خِطابُ العاشق على التوكيد ونفي السلوّ وإثبات السَّقَم وإنكارِ الحاجةِ إلى آخر أو شيءٍ هو ثالث المحلّ الّذي لا يتّسع في الحقيقة، لأكثر من واحد هو الأنا والأنتَ في الدنوّ الأقرب، وفي الحيّزِ الّذي لا يَدَعُ لجسدينا إلّا أن يَسكُنَا بالمخالطة.

وإذا كانت المخالطة بالأغضاءِ «أقصى أطماعِ المُحبّ»، على ما يذهب إليه ابن حزم في «رسالة في مداواة النفوس»، فإن العَوَضَ عنها لغةٌ يَقْصُرُ عن بيانِها، لأنَّ من أسماء المُخالطة السرّ، وهو نقيضُ البيان، فكيف

يُفصَحُ عن السرّ دون أن يَفقِدَ ما يَتقوَّم به سِرّاً. أغلبُ العبارةِ لدى العاشق أشبه بالحجابِ الّذي يكتنُه بصُحبةِ العاشق فيُخفيهِ عن باصرة الثالثِ وإدراكه. وفي الخُلوةِ، كَنَفِ الحجابِ، لا يمكثُ الاثنان اثنينِ فما جدوى أن تُفصِحَ العبارةُ عمّا تلهَجُ به الذاتُ لذَاتِها. أشتاقُ إليك، كأني أشتاق إليّ، وأردّدُ عبارةَ الشوقِ لأطمئنّ إليّ ولا تأخذني الغفلة عنّي فتأخذني عنكِ، وتحلّ اللغةُ بيننا في المحلّ الوَسَط، فيصبح واحدنا استعارةَ الآخر وكنايتَه لا حقيقته، ويُدرجنا الخَبَرُ (خَبَرُ اللّغةِ، خبرُ الحكايةِ) في الخُرافةِ، أي في الغِيابِ الّذي لا تؤنثه إلّا اللّغة.

لذلك يلُوذُ العاشِقُ بالصَمتِ، وَتَرْكِ البيانِ عمّا به؛ ويَقينُه أنّ حالَه لا لغةَ لها ولا وجهَ خِطاب. ويَقينُه أيضاً أنّ تَباريحَ النَفسِ لا تسوقُها العِبارةُ إلّا تصاويرَ لما زال عنه التَبريح، أي استقامَ في بُلغتِه من الإشارة والمعنى. وليس في حالِ العاشق ما يُستَفرغُ نوالاً وقضاءً، وما يُستنفدُ لغةً وعِبارة. أشتاقُ إليك، يقول العاشقُ، أشتاق إليك، يقول العاشقُ جواباً. ليس في الجوابِ إضافة في ظاهر ما يتقوّم به، لكنّه يُضيفُ الشوقَ إلى الشوقِ فلا يُصبحُ الشوقُ أكثر أو أقلَ، بل تدنو الذاتُ من الذات لتماثلهما في حالِ الشوق، ويبرأ الجَسَدُ مِنَ المَنْعِ والمَنَعةِ فيلتمسُ الجَسدُ (الآخر) تماماً لنقصانِه.

وبيانُ الجَسَد صَمتٌ يقتضيه السرُّ.

والسرُّ هو الأصْلُ والجَوْهَرُ والصَّفْوة من كلِّ شيء.

ما لا يُقالُ هو تَمامُ مُعجمِ الأشواق.

حكاية الرّجل الذي أحبَ الكناري

١٩٩٦

«فاخرِض لِئَلَا يكونَ النّورُ الذي فيكَ ظلاماً!»

(لوقا ١١/٣٥)

ختام

لا أدري لِمَ أيقَظَني الصَّخَب.

تَنْهَضُ من نومِكَ وتتألَّم. إحساس. تنام وتتألَّم. إحساسٌ أيضاً.

أربعونَ عاماً من الألم.

ثمّ أبصَرْتَهُ؛ كان نحيلاً، نابِتَ الذّقْنِ أنيقاً.

كان سِواكَ، وَظَنَنْتَ أنّه أنت. نُزْهَتُهُ بَينَ الغُرَف؛ عَياؤه؛ يداهُ المُشَبّكتان خَلْفَ ظهرِهِ؛ تَنَفُّسُهُ الذي يُشبِهُ الأصداءَ إذ تَزفَعُ الأيدي الواهِنَةُ مياهَ البئرِ في إناء؛ عيناهُ مِعْطَفُهُ، قُبَّعَتُه، سَهْوُهُ الآسر.

كان هُنا، وفي الجانِبِ الآخَرِ، وَلَم يَكُنْ في أيِّ مكان.

كان طَيفاً رأيتُهُ، ولَمْ أصَدِّق.

كُنْتُ طَيفاً، رآني ولَمْ يُصَدِّق.

وَتَرَكَ لي أوراقَهُ في مكانٍ ما. وحينَ عَثَرْتُ عليها بِمَحْضِ المُصادَفَة، وَجَدْتُ أنّها أوراقي.

ولَمْ تَكُنْ لي أوراق. وَلَم يَكْتُبْ يوماً.

رُبّما كان آخَرُ سوانا. لستُ أنا الرّاوي. وليسَ هو الرّاوي؛ ومَنْ يَرْوي لَمْ يَرَ شيئاً. لم يَعْرِفْ شيئاً. لذا كَتَبَ حكايةَ الرّجُلِ الذي أحَبَّ الكناريّ.

أو رُبّما لَمْ يَكْتُبْها بَعْدُ.

لَنْ يَكْتُبَها أحَد.

الجانب الآخر

«أبحث عنّي، ولا أجدني (...) لقد أدركتُ، في إلهامٍ خاطفٍ، أنّني لا أحد، لا أحد على الإطلاق».

(فرناندو بسّوا: كتاب اللادعة)

جالساً في الجانِبِ الآخَرِ، يرتدي مِعْطفاً وقُبّعَةً ويَحْمِلُ حقيبةً صغيرة.

كان يُحَدِّقُ ساهماً في نُقْطَةٍ ما في فضاءِ الرَّدْهَةِ الشّاحِب. فأدركتُ أنّه نائِمٌ. يُحَدِّقُ ولا يُبْصِر. يُحَدِّق ولا يرى.

لم أنظُرْ إليه طويلاً. أحسَسْتُ بالْحَرَجِ كأنَّ عشراتِ العيونِ رَمَقَتْني فَجْأةً بنظراتِ ازدِراء. وأدرَكْتُ أنّ النَّظَرَ إلى وَجْهِ نائمٍ عَمَلٌ فاضِحٌ وإباحيٌّ؛ كأنّكَ تَنْظُرُ من وراءِ سِتار، أو مِنْ خِلال ثَقْبِ الباب، إلى جَسَدٍ عارٍ لم يَتَعَرَّ لأجْلِكَ. تنظُرُ إلى الوَجْهِ، أيِّ وَجْهٍ، وترى قِناعاً؛ الوجهُ إيّاهُ هو القِناعُ الذي يُعَرِّضُ نَفسَهُ لأنظارِكَ لتراهُ كما يُريدُ أنْ تراه، فَرِحاً، لامُبالياً مُتَهَكِّماً، فاتِناً، أو مُجَرَّد وَجْهٍ، هو قِناعُ لمُجَرَّدِ وَجه. لكنَّ وَجْهَ النّائِمِ بلا قِناع. رُبَّما ارْتَسَمَتْ عليهِ سيماءُ دعَةٍ، أو تَغَضَّنتْ مواضِعُ منهُ عِنْدَ الجبينِ أو بَيْنَ الحاجِبَيْن. أو رُبّما انْفَرَجَتِ الشَّفتانِ قليلاً أو كثيراً، لكِنَ المُؤكَّدَ أنّها لَيسَتِ ابتسامة. لَيسَتْ ضِحكَةً. وَجهُ النّائِمِ بلا قِناع. وَجْهُ النّائِمِ بِلا وَجْه. إذْ كَيفَ يكونُ وَجهٌ إذا كانَتِ العينانِ مُطْبَقَتَيْن. إذا كان الجبينُ مُحايداً، والأنفُ ساكِناً، وإيقاعُ التنَفُّسِ على

وتائِرَ من الانتِظامِ المُمِلّ. وَتَحسَبُ أنّ النَّظَرَ إليه، مُجَرَّدَ النَّظَرِ إليه، عَمَلٌ فاضِحٌ لن تَغفِرَهُ لنفسِكَ، كأنْ تَدخُلَ، فَجأةً، على جَمْهَرَةٍ دونَ استِئذان. كأنْ يُعْهَدَ إليكَ برسالةٍ لصديقٍ فَتَقرَأها. كأنْ تَضْحَكَ في مأتَمٍ، كأنْ تُحَدِّقَ في وَجْهِ النائم.

رأيتُهُ جالساً في الجانِبِ الآخَرِ.

وَكُنتُ أُحَدِّقُ ساهِماً في نُقْطَةٍ ما في فضاءِ الرَّدْهَةِ الماصلِ. فأُدرِكُ أنّني نائِمٌ. أحَدِّقُ ولا أُبصِرُ. أحَدِّقُ ولا أرى.

وَكُنتُ أرتدي مِعْطفاً وقُبّعَةً وأحْمِلُ حقيبةً صغيرة.

لا أذكُرُ أنّني التقيتُهُ مِنْ قَبلُ. وأفزعَني الشَّبَهُ بَينَنا.

أذكُرُ أنَ لي سَبعَةَ أشقّاءَ ولا شقيقَ توأماً من بَينِهِم. وأذكُرُ أنّني لِسَبَبٍ ما ارتَدَيتُ المِعْطَفَ والْقُبّعَةَ لأوّلِ مرَّةٍ مُنذُ سنواتٍ، وأنّني، أمسِ فَقَط، حلَقتُ شاربيَّ، لأوَّلِ مرَّةٍ، مُنذُ عشرينَ عاماً.

وها هو هُناك. أراهُ جالِساً في الجانِبِ الآخَرِ. لَيسَ أنَّه يُشبِهُني. ليسَ أنَّه يرتدي ثيابي ويَحمِلُ حقيبتي. لَيسَ أنَّه يُحَدِّقُ في نُقطَةٍ ما في فضاءِ الرَدهَةِ الشّاحِبِ، هي نُقطَةٌ ما أُحَدِّقُ فيها، في فضاءِ الرَّدهَةِ الشّاحبِ، بل لأنَّه يَتَحرَّجُ من النَّظَرِ إلى وجهي إذ يَحسَبُ أنّي نائِمٌ، والنَّظَرُ في وَجهِ النائِمِ عَمَلٌ فاضِحٌ وإباحيّ.

رفعتُ يدي إلى أعلى صَدري، وَتَحَسَّستُ بقوَّةٍ ذلك الثِّقْلَ الوَهمِيَّ الذي يَجْعَلُني أشعُرُ، بَينَ الْفَينَةِ والْفَينَة، بالاختِناق. رَفَعَ يَدَهُ وَتَحَسَّسَ بقوَةٍ. ورأيتُ الشحوبَ

يكسو وَجْهَه. وأدركتُ أنْ لا مِرْآةَ بين الجانِبَين، فأراني وأقولُ إنَّني أراه. ولَمْ يَبْقَ إلّا أنْ أُدَقِّقَ في أوْجُهِ الشَّبَهِ في المَشْهَدِ كُلِّه. وَضَحِكْتُ لإصراري على أنْ أكونَ مِحْوَرَ الكَوْنِ، فَلَمْ يَكُنِ الشَّبَهُ بي، ولَيْسَ بما يُحيط. ولو كانتْ تلكَ مرآةً لَشابَهَ الجميعُ الجميعَ، وَلَشابَهَ كُلُّ شيءٍ كلَّ شيء، ولما كان الجانبُ الآخَرُ، بل الجانِبُ الذي أكونُ، أنا، ومَنْ حَوْلي، فيه. أو رُبَّما الجانِبُ الذي يكون، هو وَمَنْ حَوْلَهُ فيه. ولا جدوى من التَّفْكيرِ المُمِلِّ في أيِّ من الجانِبَين يكونُ هو في الجانِبِ الآخَرِ. كان جالِساً في الجانِبِ الآخَرِ. هذا ما نَعْرِفُهُ جيّداً. (وعلى الرّاغِبِ في التَّدْقيقِ أنْ يُعيدَ قراءَةَ المقاطِعِ الأولى). كان جالِساً في الجانِبِ الآخَرِ إذن، وبجانِبِهِ، إلى اليسارِ، امْرأةٌ جاوَزَتِ الخَمْسينَ؛ شَعْرُها قصيرٌ أشيبُ، وترتدي نظّارَتَين داكِنَتَين؛ وإلى اليمين، فتًى لَمْ يَبْلُغِ العشرينَ بَعْدُ، يقرأُ كتاباً بضَجَرٍ واضِحٍ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أنْ يُغادِرَ مُسْرِعاً تاركاً في مكانِهِ حقيبةَ جِلْدٍ سوداءَ وبَعْضَ الصُّحُفِ والمجلّاتِ. وحولَ المَقْعَدِ الطَّويلِ الذي اتَّسَعَ له ولاثنَين آخَرَيْن مَعَهُ، عَدَدٌ من المقاعِدِ تَوَزَّعَ عَلَيْها المُسافِرون دونما قَصْدٍ أو تَرْتيب، كأنَّما واحِدُهم ارْتَمى على أوَّلِ مَقْعَدٍ صادَفَهُ للتَّخَلُّصِ من عِبْءِ ما يَحْمِلُ أو ليُداريَ خَجَلَهُ وارتباكَهُ.

هذا وَصْفٌ دقيقٌ للمَشْهَدِ في الجانِبِ الآخَرِ. وأحْسَبُ أنَّ الْتِفاتَةً منّي، يميناً أو يساراً، تُعيدُ الأشياءَ إلى نِصابِها، وأنَّ ما أفْزَعَني، في البدايةِ، لَيْسَ أكثرَ من وَهْمٍ بَصَريٍّ

أو مُجَرَّدِ مُصادَفَةٍ جَعَلَتْ شبيهاً لي يَجْلِسُ في رَدْهَةِ الانْتظارِ، بانْتظارِ القطارِ الذي سَيُقِلُّهُ إلى وُجْهَةٍ مُعاكِسَةٍ للوُجْهَةِ التي سَيُقِلُّني إليها القطارُ الذي أنتَظِرُهُ في الجانِبِ الآخَرِ من الرَّدْهَةِ.

ولكنْ قَبلَ أنْ ألتَفِتَ، وهذا حاصِلٌ، وفي مُتناوَلي متى أشاء، رُحتُ أتَحَسَّسُ بِطاقَةَ السَّفَرِ، وأوراقيَ الثُّبوتيَّة وأربِّت على حقيبتي كأنَّني أطْمَئِنُّ إلى أنَّ كُلَّ شيءٍ هُنا، وأنْ لا شيءَ سَيُعَرقِلُ رِحلَتي، رغْمَ وَساوِسي الكثيرة.

كُنْتُ جالساً في الجانِبِ الآخَرِ إذاً. هذا ما نَعْرِفُهُ جيّداً. وعلى الرّاغِبِ في التَّدقيق... إلخ. وبجانبي، إلى اليسارِ، امرأةٌ جاوَزَتِ الخمسينَ، شَعْرُها أشيَبُ وترتدي نظّارتَيْن داكِنَتَين. وإلى اليمينِ، حقيبةُ جلْدٍ سوداءُ وبَعْضُ الصُّحُفِ والمجلّاتِ كأنَّها تُرِكَتْ على عَجَل. وحَوْلَ المَقْعَدِ الطَّويلِ الذي اتَّسَعَ لي ولامرأةٍ وحقيبةٍ سوداءَ، عددٌ من المقاعِدِ تَوَزَّعَ عليها المُسافرون دونما... إلخ.

حَسِبْتُ أنَّ ثَمَّةَ ما يَخْدَعُني في المَشْهَدِ الذي أراهُ وتحامَلْتُ على مُخَيِّلَتي الّتي تَسْتَدْرِجُني أحياناً إلى مِثْلِ هذا الهذيان، فيكونُ مُسَلِّياً لِبَعْضِ الوَقْت. ذات يَوْمٍ كتبتُ قِصَّةً مُشابِهَةً، فقال لي الأصدقاءُ إنَّها قِصَّةُ «الآخر» لخورخي لويس بورخيس. فما الجدوى من إعادَةِ كتابَتِها؛ وَرَمَيْتُ بالأوراقِ إلى نيرانِ المِدفأة، (من أينَ أتيتُ بالنيران وبالمِدفأة، لستُ أدري!).

حَسِبْتُ أنَّ ثَمَّةَ ما يَخْدَعُني في المشهدِ الذي أراهُ،

والصَّوابُ أنّ ما أراهُ قُبالتي لو كانَ صورةً في مِرْآةٍ لكانتِ المِرآةُ إلى يميني والحقيبة إلى يساري. ولو كانَ حقيقةً ولَيسَ مُجَرَّدَ انْعكاسِ صورةٍ في المِرآةِ، لما استَطَعْتُ أنْ أرى، قُبالتي، الرَّجُلَ ذا الْمِعْطَفِ والقُبّعَةِ، والمرأةَ ذاتَ النظّارَتَين، والحقيبة السَّوداء التي هي حقيبةُ الفتى الذي غادَرَ على عَجَل... إلخ؛ قُلْتُ أذْهَبُ إليه.

نَهَضْتُ مُتَرَدِّداً، مُتَوَجِساً خائفاً. كَمَنْ يُصادِفُ طَيفاً وَبَدَلَ أنْ يَبتَعِدَ عنهُ يَتَقَدَّمُ نَحْوَهُ.

في اللَّحظةِ نَفسِها، نَهَضَ الرَّجُلُ وَتَقَدَّمَ نحوي. وإذْ جانبَني ألقى التَّحيّة مُبتَسِماً: «عِمْتَ مساءً».

فألقيتُ التَّحيَّة حائراً.

جاوَزَني قاصِداً المَقْعَدَ الذي كُنْتُ أجْلِسُ عليه، وخاطَبَ المرأةَ بِمَوَدَّةٍ. وجَلَسَ في الوَسطِ بين الحقيبةِ والمرأة.

وجاوَزْتُهُ قاصِداً المَقْعَدَ الذي كانَ يَجْلِسُ عليه، وخاطَبتُ المرأةَ بِمَوَدَّةٍ أستأذن الجلوسَ، وَجَلَسْتُ في الوَسطِ بَيْنَ الحقيبةِ والمرأة.

تَحَسَّسْتُ المَقْعَدَ تَحتَ فَخْذِيَ الأيمَنِ فَوَجَدْتُ كتاباً بِلُغَةٍ لا أفْهَمُها، رُبَّما كانَتِ البُرتغاليَّةَ أو الإسبانيَّةَ. فحاولتُ أن أقرأ العُنوان: El Libro de Arena[2] فالتَفَتُّ إلى المَرأةِ بجانبي وَهَمَسْتُ في أذُنِها مُتَلَعْثِماً:

ـ أتعرفينَ الرَّجُلَ الذي كان جالساً هنا؟

ـ مُنذُ بعضِ الوَقت.

ـ مُنذُ متى تقريباً؟

ـ مُنذُ أنِ الْتَقَينا هُنا، على هذا المَقعَدِ، مُنذُ يومَين أو ثلاثةٍ، لا أدري بالضَّبط!

ـ والقِطار؟

ـ جاءَ وغادَرَ ثلاثَ مرّاتٍ ولم نَنتَبِه.

ـ إلى أين؟

ـ كان يقولُ، حين أسألُهُ، إلى الجانِبِ الآخَرِ.

ـ وأنتِ؟

ـ إلى الجانِبِ الآخَرِ.

---

2 كتاب الرمل.

حكاية موتي

«الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا»

(حديث نبوي)

كُلَّما أرخَيتُ جِسمي وأسلَمْتُهُ إلى الوَهَنِ الغامِضِ الذي يُساكِنُهُ مُنذُ بَعضِ الوَقت، أحسَسْتُ بأنَّهُ يتلاشى كأنَّ في الفِراشِ الصَّلبِ مِنْ تحتي ثقباً يَتسَرَّبُ منه الجِسمُ الذي أضبَحَ وَاهِناً خالِصاً، إلى غَوْرٍ أجْهَلُهُ.

لذلك اعتَدْتُ أنْ أبقى صاحِياً ما استَطَعتُ، فلا أغفو إلّا إذا نامَتْ زَوْجَتي على السَّرير بجانبي، وحينَ أسمَعُ أنفاسَها المُنتَظمَةَ أدرِكُ جيّداً أنَّني ما زِلتُ على قَيْدِ الحياة.

ولذلكَ أيضاً لا أتَوَقَّفُ عن التَّجوالِ بَينَ الغُرَفِ والرِّواقِ والمَطبَخ، جيئةً وَذَهاباً، ولا يَستَوْقِفُني في رِحلَتي بَينَ الجُدرانِ إلّا النّافِذَةُ، لهُنَيهاتٍ، أُسَرِّحُ نظري المُتعَبَ إلى أقصى ما يَصِلُ إليه قَبلَ أن تَغْشاهُ دوائِرُ سوداء مُتَداخِلَةٌ وينتابُني دُوارٌ خفيفٌ، فأستأنِفُ السَّيرَ بَينَ الغُرَفِ، وَيَظُنُّ مَنْ يَراني أنَّ الضَّجَرَ وَقَعدَتي في البيتِ قد أنهكا بُرودَ أعصابي، ثُمّ لا يَلْبَثُ واحِدُهُم أنْ يَنصِرفَ إلى شأنِهِ لأنَّني بَلَغتُ من الحياةِ ما ينبَغي أن يُقنِعَني أنَّ الضَّجَرَ تَرَفٌ، لا بَلْ خَرَفٌ في مِثلِ هذه السِّن.

ولكنّي لم أضْجَر يَوْماً.

بَلَغتُ سَبْعيني بَعدَ أنْ صَرَفتُ أيّامَها، اليَوْمَ تلو اليوم.

وَلَمْ أضْجَر.

كانتِ الأيّامُ جميلةً في مُعْظَمِها وما كُنْتُ أطْلُبُ من الدُّنيا أكثرَ من ذلك. حتّى أبي في ثمانينِهِ كانَ يُدَخِّنُ أربعينَ سيكارةً في اليوم، وَيَمْكُثُ جالِساً على إفريزٍ حجريٍّ قُبالَةَ البابِ ساعاتٍ لا تنتهي إلى حين يَخْلُدُ إلى النَّوْم، وَيَضعُ تَحتَ وسادَةِ سريرِهِ نِصْفَ رغيفٍ من الخُبْزِ الأسْمر، وبجانِبِهِ كوب ماء. هو أيضاً لم يَضْجَرْ؛ غفا ذات يومٍ وَلَمْ يَنْهَضْ في الصّباح.

وَقَبلَ أنْ نَسْتَدْعيَ طبيبَ المُستَشفى الحُكوميِّ القريب تَفَقَّدْنا نِصْفَ الرّغيفِ، وَجَدْناهُ كما هو. وكوبَ الماء، لم يَنْقُصْ قَطْرَةً. وَقُلْنا في سِرِّنا، قَبلَ أنْ يُخْبِرَنا الطَّبيبُ، إنَّهُ فارَقَ الحياةَ قَبلَ مُنْتَصَفِ اللَّيلِ. قَبلَ أنْ يأكُلَ الخُبزَ وَيَشْرَبَ الماء.

لَمْ يَنْتَبِهْ أحدٌ منّا.

ماتَ في نَوْمِهِ، والأرْجَحُ أنَّهُ لَمْ يَنْتَبِهْ هو أيضاً.

غادَرَ في حُلْمِهِ. أو في البياضِ الذي يَغْشى نَوْمَ الذين لا يَحلمون. لا أدري.

* * *

والآنَ فَقَطْ أُفَكِّرُ: بِمَ حَلمَ أبي ليلةَ وفاتِهِ؟

بِمَ كان يَحْلُمُ حين فارقَ الحياة؟

لذلك رُبّما، ما عُدْتُ أقوى على النَّوْمِ في هذه الآونة. كُلّما أغْمَضْتُ عَيْنَيَّ وَجَدْتُني ظِلّاً عارياً ونحيلاً عِنْدَ مَدْخَلِ نَفَقٍ مُعْتِمٍ لا أرى نهايةً له.

أضبَحتُ لا أنام.

أُغمِضُ جَفنَيَّ بقُوَّةٍ على صورةٍ واحدةٍ. أحفَظُ تفاصيلَها جيّداً خلالَ النّهار، أثناء سَيْري بَيْنَ الغُرَفِ، وأُضيفُ تفاصيلَ أخرى، وتكونُ الصّورة التي لا تُبارِحُ رأسي إلى أن يحينَ مَوْعِدُ رُقادي. أُغمِضُ جفنيّ بِقُوَّةٍ لكي لا تزول، وأروحُ أتَنَفَّسُ عمداً بنخيرٍ مسموعٍ يُؤْلِمُ رِئَتَيَّ أحياناً، وفي اعْتِقادي أنّني لن أفارِقَ الحياةَ ما دُمتُ أسمَعُ أنفاسي.

أضبَحتُ لا أنام.

أُغمِضُ جَفنَيَّ على صورةٍ فلا تزولُ حتّى الصّباح، وأُصغي مُطمَئِناً لنخيرِ أنفاسي. وحينَ أستَيقِظُ، أفتَحُ عَيْنَيَّ المُجْهَدَتَيْن فيُلهِبُهُما الضَّوءُ الباهِتُ الذي يَتَسَرَّبُ من الخارِج.

لَيسَ لأنّي أخاف.

لا.

أعلَمُ جَيّداً، أنّني ذات يوم لن أُفلِحَ في اسْتِبْقاءِ الصّورةِ تحتَ جَفنَيَّ المُطبَقَين. وأنّني، ذات يومٍ، سأتوقَّفُ في لَحظَةٍ عن سَماعِ أنفاسي والصَّفيرِ الخافِتِ الذي يُرافِقُ كُلَّ شهيقٍ كأنَّهُ يَصدُرُ عن قِرْبَةٍ مثقوبةٍ. وَرِئَتي قِرْبَةٌ مثقوبة. لا أُشَبِّهُ شيئاً بشيء. ولا أحكي أدَباً. هذا ما قالَهُ الطّبيب لابني الأصغَر. وَسَمِعتُ، ورُغْمَ ذلكَ سألتُ ولم يُجِبْ أحدٌ. تظاهَرتُ بالغَضَبِ لكي لا أكونَ كاذباً. وَسَعَلْتُ حتّى بَصَقتُ طينَ الهواءِ الذي تَرَسَّبَ في رئتيّ. ثُمَّ إنَّ ثقبَ الرِّئَةِ لَيسَ مُميتاً. لكنّني

مُنذُ بعض الوقت لا أرغَبُ في الحَياة.

مُنذُ عامٍ أو أكثر.

* * *

لا أدري.

كُنتُ أقِفُ بجانِبِها، وَلَمْ أبكِ. قُلتُ كلاماً قاسياً للمُنتَحِبين من حَوْلي. وقُلتُ إنَهُ حقٌّ علينا. وإنَّ الْحَيَّ أبقى من الميت.

كُنتُ أقِفُ بجانِبِها.

أقصِدُ أمام مَذبَحِ الكنيسة، بجانِبِ النَّعشِ المفتوح. بجانِبِ القُربان والبَخور المُتصاعِدِ واليونانيَّةِ المُرَتَّلَةِ بَينَ القِبابِ العاليةِ، الزَّرقاء.

كان زَنبَقٌ أبيضُ على الجانبَين. وسبحة لُفَّتْ على يَدَيها المَشبوكَتين عِندَ أعلى البَطن. كانت رقيقةً وشاحبة. وعقدة الحاجِبَين عند أعلى الأنف. كأنَّها غاضِبَةٌ من أمرٍ ما أجهَلُهُ.

وما زِلتُ أجهَلُهُ.

* * *

حاولتُ أنْ أنحَنيَ، أنْ أقبِّلَ جبينَها. ما استَطَعتُ. كان الدُّوارُ في رأسي ثقيلاً، وأدرَكتُ أنَّني لو انحَنَيتُ وَقَعتُ أرضاً. وكان ينبغي أنْ أقِفَ.

رَجُلٌ سبعينيٌّ مِثلي، ما الذي لا يَعرِفُهُ عن الموت. أو رُبَّما ظَنَنتُ ذلك. لا أدري. فَقَطْ كُنتُ أقِفُ هناك، لا أرى شيئاً. لا أسمَعُ شيئاً. وَدِدتُ أنْ أبكي. مِثلَهُم. مِثلَهُنَّ. أنْ

أنادي عَلَيها. مِثلَهُم. مِثلَهُنَّ. أنْ أضْرِبَ الحائِطَ برأسي، أنْ أغادِرَ الكنيسةَ راكضاً.

لم أبكِ. لم أحَرِّكَ ساكِناً.

حقٌّ عَلَينا.

عُدتُ إلى البَيت.

وَبَكَيتُ.

وَبَكَيتُ.

وَبَكَيت.

وأصبَحتُ أحِبُّ السَّيرَ بَيْنَ الغُرَفِ.

أصبَحتُ أحِبُّ أنْ أرى أولادي وأحفادي.

قِربَة مَثقوبة. قالَ الطَّبيبُ لابني الأصغر.

سَمِعتُ. وسألت لكي لا أكونَ كاذِباً.

وأعلَمُ أنَّ ثقبَ الرِّئَةِ لَيسَ مُميتاً. رَجُلٌ مِثلي، في سَبعينِهِ، ما الذي لا يَعرِفُهُ عن المَوت.

بلى. أعطَيتُهُ الخاتَم. ولم يُرِدِ الخاتم. لأنَّه لم يُصَدِّق.

لم أقُلْ له شيئاً. كُنتُ أعلَمُ. كنتُ أريد.

كُنتُ أحِبُّ السَّيرَ، وحيداً، صامتاً، بين الغُرَفِ، وفي الرِّواق.

لم يَنتَبِهْ أحد.

أغمَضتُ جفنيَّ بقوَّةٍ ولم أجِدِ الصّورةَ.

لم أسمَعِ النَّفَسَ صافِراً من رِئَتَيَّ.

وغادَرتُ حينَ رأيتني في الحُلمِ واقِفاً بجانبِها لا

أحَرِّكُ ساكِناً.

لا أبكي.

اعتذار عمَا سَبَق

حسناً.

ما سَبَقَ كان مُجَرَّدَ استطراد. فِكْرَةٌ طالَ شَرْحُها، وأفضى بيَ الشَّرْحُ إلى فِكْرَةٍ أخرى، وهكذا...

طبعاً، لم أقْصِدْ أنَ الرّاوي هو المَيت. والمَيْتُ هو الرَاوي الذي يَرْوي. فَعلاوةً على استِحالَةِ مِثْلِ هذا الأمر، كان القَصْدُ من المسألةِ كُلِّها، من الحكاية كُلِّها، مُخْتَلِفاً. وَلَسْتُ أدري الآنَ إلى أينَ يُفْضي بي كُلُّ هذا...

بلى. العَجوزُ الذي يَقرأ الصَّحيفَةَ مِن صَفحاتِها الأخيرةِ كانَ أبي. أقصِدُ لَمْ يَكُنْ عجوزاً، سوى أنَّه، ذات يَوْمٍ، تَهالَكَ على سريرِهِ ومات.

بلى. وَالمَرأةُ الصَّغيرةُ بَينَ الزَّنابِقِ. المرأةُ الصَّغيرةُ المُسَجَاةُ أمامَ هَرَمٍ مِنَ القربانِ ورائِحَةِ البخورِ، كانت أختي. وذات يوم رَحَلَت. امرأةٌ صغيرةٌ، تَضْحَكُ كثيراً، وذات يومٍ، لَمْ تَقُلْ وَداعاً، ورَحَلَت.

حسناً.

كان مُجَرَّدَ خطإٍ أوْقَعَني فيه مَيْليَ المُفْرِطُ لِسَرْدِ الأمورِ الَتي لا صِلَةَ فيما بَيْنَها، سوى أنّها أثقَلَت قِصَّتي بتفاصيل لا أحْسَبُ أنَّ أحداً يَوَدُّ، فِعْلاً، أنْ يَعْرِفَها. مثلاً أنْ يَبْكِيَ رَجُلٌ مثلي عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيلِ لأنَّ الجميعَ نِيامٌ. ولأنَّ البَيْتَ صامِتٌ. ولأنَّ رَغْبَةً في البُكاءِ تُراوِدُني وأروحُ أبكي. وأضْحَكُ مِنْ بُكائيَ المُرّ، أو أخْجَلُ مِنْهُ، أو أكْتُبُهُ في أنينٍ خافِتٍ، حتّى تَغْسِلَ وجهِيَ الدُّموعُ

وسوائِلُ أخرى، فأشعُرُ بارتياحٍ. وأنَّهُ، لا بُدَّ، مَيلِيَ المُفرِط للإشفاقِ على نفسي. ألَيسَ كذلك. ولا حاجَة لأنْ يَعْرِفَ أحدٌ مِثْلَ هذه التَّفاهات. وإذا كانتِ الفِكْرَةُ قد أغْوَتني، واستَسْلَمْتُ لأحاسيسَ مُماثِلَةٍ، فَلَنْ أُعيدَ الكرَّةَ. لكنَّها فِكْرَة مَلَكَتْ عليَّ مشاعري ولُغتي وعَيْشِي وهوائي وساعاتِ خُلْوَتي ورفوفَ كُتُبي وأوراقي... ولا بأسَ. يَقْدِرُ واحِدُنا أنْ يرميَ بها كُلِّها إلى النّار. أو يَرْكُنَها في زاوِيَةٍ كالمَخفوظاتِ الرَّسمِيَّةِ. وعندئِذٍ يستطيعُ مُجَدّداً أنْ يَتَنَشَّقَ الهواءَ، وأنْ يستأنِفَ بَهْجَةً كتِلْكَ التي كان يَنْبغي أنْ تكونَ فكرتي قَبلَ أنْ يَسْتَدرِجَني استطرادٌ مُمِلٌّ إلى أفكارٍ أُخرى، لا تليقُ بِرَجُلٍ مثلي، لا بل لا تليقُ بكلبٍ نافِقٍ على قارعَةِ الطريق.

فما وَدِدْتُ قَوْلَهُ، بدايةً، هو أنَّ الطَّقسَ جميلٌ. فقط. أقْصِدُ النَّهارَ والمدينةَ والعَرَباتِ ورجالَ الدَّرَكِ والنِّساءَ، وحتّى الأشجارَ التي لا أراها جميلةً مِنْ دونِ شكٍّ. والطَّقسُ جميلٌ. فقط. أمّا الأشياءُ الأُخرى، كُلُّ الأشياءِ الأُخرى، فأقلُّ شأناً، ولا يَجْدُرُ برجلٍ مثلي أنْ يَجْعَلَها فكرةً في رأسِهِ ولا يحيدَ عنها، فيُداوِرُ ويُناور ثُمَّ يعودُ إليها. ليستْ أكاذيبَ بالطَّبْعِ، ولَيسَتْ كناياتٍ يُنَمَّقُ بها الأُسلوبَ، أو تُبنى عَلَيها الحاشِيَةُ، لِيَكتَسِب القَوْلُ مَتْناً مِنَ التَّجْرِبَةِ الحَقَّةِ. فَكُلُّ ما سَبَقَ لَيسَ حقيقيّاً. وكُلُّ ما تَحياهُ لَيسَ حقيقيّاً. فَقَطْ ما تَكْتُبُهُ هو الحقيقيُّ، فَلِمَ الاستِماتةُ في جَعْلِ ما سَبَقَ، كُلّه، حقيقيّاً. وبَيْنَ الكتابةِ والحقيقةِ، أينَ أصْبَحْتَ؟ هَلْ صِرْتَ تَنامُ جيّداً؟ هل

أقلَعتَ عَن التّدخينِ؟ هَلْ تَوَقّفتَ عَنِ الشَربِ كُلَّ يَوْمٍ؟ هَلْ أقلَعتَ عَنْ عادَةِ البُكاءِ؟ هَلْ قُمْتَ مِنَ المَوْتِ الذي أماتَكَ مُنذُ بعضِ الوَقْت؟

لا.

حسناً إذاً.

هاتِ القَلَمَ واكتُبْ شيئاً آخَرَ. كذبةً مثلاً. سيرَتَك، كَيْفَ تَقْضي نَهارَكَ، ماذا تقرأ، مَنِ الْتَقَيتَ، ماذا قُلْتَ لجارِكَ حين صادَفتَهُ في المِصْعَدِ، وبماذا حَلُمتَ لأنَّكَ استَغرَقْتَ ليلة البارِحَةِ في نومٍ عميق.

أو هاتِ القَلَمَ واكتُبْ شيئاً آخَرَ. حاوِلْ أن تَكْتُبَ الحَقيقةَ. إذا أرَدْتَ أنْ تَكْتُبَ قِصَّةً فاشِلَةً افعَلْ مثلي. اجْعَلِ الكلامَ كاذِباً ما استَطَعْتَ. فالقِصَّةُ التي لا تَكْذِبُ تَكْذِبُ كثيراً. وأنتَ ماذا فَعَلْتَ؟ ظَنَنْتَ أنَّ شيئاً لا يُقالُ هو الحَقيقة التي يَنبَغي أنْ تُقال، وما قُلتَ شيئاً. وحين كَذَبْتَ أدرَكْتَ أنَّها رُبَّما كانتِ الحقيقة. وَلَستَ تدري.

كأنْ تَقولَ إنَّكَ حَزينٌ.

أوْ تَقولَ إنَّكَ لا تنام.

أو تقولَ إنَّ العجوزَ الذي يَقرَأُ الصَّحيفةَ مِنْ صفحاتِها الأخيرة.

وإنَّ المَرأةَ الصَّغيرةَ التي رَحَلَتْ.

إنَّ الكِذْبَةَ كلامٌ يَصْدُقُ.

وإنَّ القِصَّةَ لن تَنْتَهيَ.

فهذا مُجَرَّدُ استِطْرادٍ. وَبَعْدَ ذلكَ تَبدأ.

حسناً.

ابدأ الآنَ.

كانَ أوْ ما كان.

ما كانَ شيءٌ أحبَبتُهُ إلّا وأبكاني.

قالَ المَيتُ.

وقُلتَ لي: «اسمعني جيّداً»...

«ثمَّ إنَّهم ما عادوا في حاجة إلينا،
أولاءِ الّذين بَكّروا إلى الرحيل».

(راينر ماريا ريلكه)

إنَّها حِكايَةٌ أخرى. وَقَدْ أقُصُّها عَلَيكُم في مُناسَبَةٍ أخرى.

أمّا أنْ يَعرِفَ أحَدٌ، ومِنْ دونِ أدنى شَكٍّ، كَيفَ عاشَ الرَّجُلُ وكَيف مات، فأمرٌ قَدْ يكونُ من سابِعِ المُستحيلاتِ، ما دامَ الجميعُ يُنْكِرونَ أنَّهُمْ رأوه، في الصَّباحِ الباكِرِ، عِنْدَ النّاصِيَةِ. وما دامَ الشُّهودُ الذينَ استَدْعَتْهُمُ السُّلُطاتُ المُخْتَصَّةُ للتَّعَرُّفِ عليهِ في رَدْهَةِ المَشْرَحَةِ أصَرّوا على الإدْلاءِ بإفاداتٍ غامضَةٍ، وأجمَعوا على أنَّ أحداً مِنْهُمْ لَمْ يَرَهُ مِنْ قَبْل.

لعلَّهُ الغريبُ الذي قالَ الباعَةُ الجوّالونَ مِراراً إنَّهم رَأَوهُ في دُروبٍ مُجاورَةٍ، غير أنَّهُ لم يُكَلِّمْ أحداً مِنْهُم.

وقالَتْ بَعْضُ النِّسوَةِ إنَّهُنَّ، أخيراً، سَيَتَمَكَّنَّ مِنَ التَّجْوالِ دونَ خَوْفٍ في نواحي البَلْدَةِ.

وخَتَمَ الرَّقيبُ الذي أوْفَدَهُ مَخفَرُ البَلْدَةِ المُجاوِرةِ فَوْرَ تَبَلُّغِهِ الخَبَرَ، المَضْبَطَةَ الرَّسمِيَّةَ بمُلاحَظَةٍ أشارتْ إلى غِيابِ أيِّ أثَرٍ للعُنفِ على الجُثَّةِ، ولا بُدَّ أنَّ الوفاةَ نَجَمَتْ عَنْ قضاءٍ وَقَدَرٍ يَصْعُبُ البَتُّ بشأنِهِ قَبلَ صدورِ تقريرِ الطَّبيبِ الشَّرْعِيّ.

آخرونَ قالوا إنَّهُ لَيسَ الغريبَ.

وقالوا إنَّهُ لم يَمُت.

غَيرَ أنّ هذِهِ حكايَةُ أخرى. ولا نَملِكَ الأدِلَّةَ الدّامغةَ على صِحَّتِها خُصوصاً أنّ السُلُطاتِ أضحَ لَدَيْها مَيتٌ لا بُدّ أنْ يكونَ الغريبُ الذي قالَ باعةُ جوّالون إنَّهُم رَأوهُ مِراراً غير أنَّهُ لم يُكلّم أحداً مِنهُم.

أمّا أنا، وَهُنا مُبَرِّرُ رسالتي هذه للمَغنيّينَ، فأُقسِمُ إنّني رأيْتُهُ في صبيحةِ اليَوْمِ الذي أعقَبَ مَوْتَهُ وحادَثَني مُطوَّلاً عن الخطأ الذي وَقَعَ فيه الجميعُ حين اعتَبروا أنّ المَيتَ لا بُدّ أنْ يكونَ الغريبَ لأنَّهُ لَيسَ أحدَ الأهلين. وكانَ قَلِقاً لِما قَد يَعتَرِضُهُ من صُعوباتٍ في مُجرياتِ حياتِهِ اليوميَّةِ. فإذا كان الغريبُ قد وُجِدَ مَيتاً، فَمَنْ يكونُ هو إذاً؟ وَلَيسَ لديهِ في هذه البِقاعِ الفسيحةِ، أو في البِقاعِ الفسيحةِ المُجاوِرَةِ، أو في البِقاعِ الفسيحةِ النّائيةِ، مَنْ يَستَطيعُ التّعَرُّفَ عليه لكي يَشهَدَ أمامَ الجميع أنَّهُ هو بالفِعْلِ، وَلَيسَ المَيتَ الذي قالَ عَنهُ الجميعُ إنَّهُ الغريبُ. واستَدرَكَ قَبلَ أنْ يَغدِرَني، لا أعرفُ إلى أينَ، قائلاً: «إلّا إذا كانَ هُناك غريبٌ آخرُ. وإذا كانَ هُناك غريبٌ آخرُ فهو لَيسَ أنا ولا صِلَةَ لي به، ولا بُدّ أنْ يكونَ هو المَيت وَلَيسَ أنا. وبذلك أكونُ أنا الحَيّ. ولكنْ كَيفَ السّبيلُ إلى ذلك، والغريبُ يُشبِهُ الغريبَ في كُلِّ شيءٍ، إذا كان الغريبُ لا يَقصِدُ مكاناً بِعَينِهِ. وهذا أنا. وإذا كان لا أحَدَ سواهُ يَعرِفُ اسمَهُ. وهذا أنا. وإذا كان مُجَرّدَ عابِرِ سبيلٍ. وهذا أنا أيضاً. وإذا وُجِدَ ذات يومٍ

جُثَّةً هامِدَةً بِفِعْلِ قضاءٍ وَقَدَرٍ وفي مُلابَساتٍ غامِضَةٍ فهذا أنا أيضاً. أقْصِدُ قد أكونُ أنا. وما أدراني متى يكونُ ذلكَ اليوم. ورُبَّما كانَ بِالأمْسِ فعلاً».

وقال لي: «اسْمَعْني جيّداً، إذا كُنْتُ المَيتَ الذي قيلَ إنَّهُ الغريبُ، والمَيتُ لا يَكْذِبُ بأيَّةِ حالٍ حتّى ولو كانَ غريباً، فتلك هي المَرَّةُ الثّالثةُ. ولا أدري لِمَ يَكْذِبُ الجميعُ. وما دام الجميعُ يَكْذِبونَ فلا بُدَّ أنَّها الحقيقةُ. والحَقيقةُ أنَّني مَيتٌ. أقْصِدُ هذه ثالِثُ ميتَةٍ أتعرَّضُ لها خلالَ العِقْدِ الأخيرِ من عُمْري. كُنْتُ في الخامِسَةِ والعشرينَ. ثُمَّ كُنْتُ في الخامِسَةِ والثّلاثينَ. وها أنَذا في الأربعين».

في المَرَّةِ الأولى، تقولُ، حَسَناً، لم أفْقِد سوى روحي، وهي مُتْعِبَةٌ، فلا بأسَ.

وفي المَرَّةِ الثّانيةِ تقولُ تَعِبَ جسمي منّي، وأبى أنْ يَحْمِلَني أعواماً أخرى، وغادَرَني.

وفي المرَّة الثّالثةِ لا تقولُ شيئاً. فما الذي تَبَقّى؟ لَمْ يَبْقَ شيءٌ ليُغادِرَكَ، فلا تنتبه. تُصْبِحُ ظِلّاً بَينَ الظِّلالِ الكثيرةِ. أو تَمُرُّ بِهِمْ فلا يَنْتَبِهُ أحَدٌ مِنْهُم. أو تُحاوِلُ أنْ تَتَذَكَّرَ اسْمَكَ. ثُمَ تَرى عابراً يُشْبِهُكَ. أو هو أنتَ. أو أنتَ هو، لا تَدْري؛ وَتُدْرِكُ أنَّ الدُّروبَ أصْبَحَتْ لك. فَقَط الدُّروبُ. البيوتُ تَمُرُّ بها. أو تَقِفُ عند أعتابِها ونوافِذِها. غَيْرَ أنَّها لَيْسَتِ البيوت. وحْدَهَا الأشجارُ المُسِنَّةُ تُحْسِنُ وِفادَتَكَ في وَحْشَتِها وتُفْرِدُ لك ظِلّاً مُسِنّاً.

وَحْدَهُ الغريبُ يَسْمَعُكَ. يُصْغي إليك.

وَحْدَهُ الغريبُ يراكَ.

وقال لي: ألمْ تَكُنِ المَيتَ الذي قيل إنَّهُ الغريبُ. قال الجميعُ إنَّهُم رَأوْك، وقالَ الباعَةُ الجوّالونَ إنَّهُم رَأوْكَ مراراً في الدُّروبِ وَلَمْ تُكَلِّمْ أحداً مِنْهُم. لكنّي رأيتُكَ، أُقْسِمُ إنَّني رأيتُكَ في اليوم الذي أعْقَبَ مَوْتَك وحادَثْتَني مُطَوَّلاً عَنِ الخطأ الذي وَقَعَ فيه الجميعُ وقُلْتَ لي: «اسْمَعْني جيّداً»...

صور الحافّة

«فلأرحل بعيداً جدّاً ذات يوم»

(رامبو: فصل في الجحيم)

كان مُجَرَّدَ خطّ.

خَطٌّ عاديّ مَرسوم دونَما اغتناءٍ، غَيْرَ أنَّهُ بارِزٌ وصارِمٌ في رَسْمِ الحافّة.

لا يَذْكُرُ أحدٌ مِنهُمْ أنَّ الخَطَّ، ذات يومٍ، لم يَكُنْ قَدْ رُسِمَ بَعْدُ.

كانَ مُجَرَّدَ خطّ.

وفي روايةٍ لَمْ يُكَذِّبها أحَدٌ مِنْهُمْ إلى الآن، أنَّ عابري سبيلٍ جاوزوا الخَطَّ سَهْواً، ولم يَرَهُمْ أحَدٌ بَعْدَ ذلِكَ.

كان خطّاً مِنَ الطَّبْشورِ، عاديّاً، لَمْ تَرْسُمْهُ يَدٌ واثِقَةٌ؛ مُتَعَرِّجاً بَعْضَ الشَّيءِ، غَيْرَ أنَّهُ صارِمٌ في وُضوحِهِ، غامِضٌ يُثيرُ الخِشيَةَ مِنْ بُعْد. وكانوا أيّامَ الآحادِ يَصْطَفّونَ جَنْباً إلى جنبٍ بمُحاذاتِهِ وتَشْخَصُ أبصارُهُم نَحْوَ البعيدِ، في الجانِبِ الآخر.

وقالَ: مِثل خَطّ الكَفّ بِهِ تُقرأ الأعمار. قد يكونُ حقيقةً وقد يكونُ وهماً. ولا يكونُ إلّا إذا صَدَّقْتَ أنَّهُ هُنا. وإذا صدَّقْتَ وجاوَزْتَهُ أضبَحْتَ في الجانِبِ الآخَرِ. وإذا لم تُصَدِّقْ وجاوَزْتَهُ أضبَحْتَ في المكانِ الذي فيه لا تَزال.

وقال:

هُناكَ ظِلالٌ كثيرة. وَشَجَنٌ خافِتٌ هو ما تُسِرُّ به الظِّلالُ للظِّلال. ونسَمٌ كَمِثْلِ هذه السَرَوات المُسِنَّةِ إذا جاءَ المساءُ. وطراوَةٌ كَمِثْلِ الماءِ ولا ماء.

واليومُ الذي لَيسَ اليومَ بَلِ اليومُ الذي كان.

إن أحبَبتَ شيئاً وَفَقَدتَهُ، تَعَلَّمْ يقيناً أنَّهُ هناك. عيناكَ لا تَرَيان؛ أذُناكَ لا تَسمعان؛ غَيرَ أنَّكَ تَعلَمُ وَتُصَدِّقُ لأنَّكَ إنْ لَمْ تَفعَلْ مَحَوْتَ الخطَّ وَبَدَّدْتَ الظِّلالَ مِنْ ورائِهِ وما غُدْتَ تَدري وَصِرْتَ وحيداً لأنَّكَ لا ترى وتَعلَمُ اليقينَ أنّ ما مِنْ شَيْءٍ حقّاً تراه.

وقال لا تُصَدِّقْ إنَّهُ بُهتانُ الرّائي في المنام. وقال إنَّهُ بابُ الموتى.

وما صَدَّقْتُ. غَيرَ أنّي رأيتُ الخَطَّ أفعى. غَيرَ أنّي رأيتُ الخَطَّ باباً لا يُفضي، ورأيتُهُ عَتَبَةَ الخواء. وما صَدَّقَ الرُّواةُ زَعمي وقالوا لا يَذْكُرُ أحدٌ منّا أنَّ الخطَّ ذات يَوْمٍ لَم يَكُنْ قد رُسِمَ بَعْدُ، وَمَنْ جاوَزَ الخَطَّ لَم يَمُتْ ولا صارَ طَيفاً، بل صارَ هُناك.

كانَ مُجَرَّدَ خطٍّ...

خطّ عاديّ مرسوم دونما اعتناء.

كانَ مُجَرَّدَ خطّ ولا يَذْكُرُ أحدٌ منّا أنَّهُ لم يَكُنْ ذات يَوْمٍ قَدْ رُسِمَ بَعْدُ؟

أمسَكَتْ يدي وَعَبَرْنا إلى الصَّخْرَةِ وَسْطَ مياهِ النَّهرِ الجارِيَةِ. أوْقَفَتني عَلَيها. وَخَوَّضَتْ في المياهِ العَذْبَةِ التي تَعلو الرُّكبتين. قَطَفَتْ توتاً برّيّاً أسودَ وأطعَمَتني.

قالتْ: لا تَخَفْ. هو ذا بيتُنا الآن. قالت: لا تَبكِ. هي ذي يدي تَمْسَحُ جبينَكَ، ونادَتْ على الذِّئبِ الذي لا أراهُ وفَرَّ هارِباً، ونادتْ على اللّيلِ فَنَوَّرَتْهُ أسرابُ الحباحِبِ. وقالت لا تَخفْ. هو ذا بيتُنا الآن. وانْتَظِرْني هُنا على الصَّخرةِ رَيْثَما أعود.

كانَ مُجَرَّدَ خطٍّ وَقَفَتْ بمُحاذاتِهِ وَنَظَرَتْ إلى البعيد. إلى الجانِبِ الآخَرِ. ولا أحَدَ يدري ما الذي رأتْهُ هُناك.

قالَتْ إنَّها ظِلُّ الطائِرِ. وقالَتْ إنَّها ظِلُّ الفراشَةِ. وقالت إنَّها الحَجَرُ يُرمى في البئر.

قالَ لي حينَ زالَ عَنْهُ بَرْدُ البُكاءِ وجَالَتْ عيناهُ بِنَظْرَةٍ بعيدةٍ: أرى الآنَ ما رأتْهُ. أرى أنواراً باهِرَةً وأجساداً تَشِفُّ، وأسمَعُ أصواتاً كأنَّها الهَمْسُ. وثَمَّةَ مَنْ يُنادي.

وقالَ لي اذْكُرْني إذا عَبَرْتُ ولا تَنْتَظِرْني. أكون ظلّاً لكَ هُناك. أكون ظلّاً لها. وقال لي إنْ حَبَبْتَ وجهي ورأيتَهُ في المنام صِرْتَ ملاكاً. وإن نَسِيتَ ضَلَلْتَ السَّبيلَ إلى نومي.

وقال: اذْكُرْني ولا تَنْسَ.

وَنَسيتُ كُلَّ يومٍ لأنَّ اليومَ لَيسَ اليومَ بل اليومُ الذي كان.

* * *

كانَ مُجَرَّدَ خطٍّ، أقِفُ بمُحاذاتِهِ وأُصغي:

سوفَ تُنادي عليّ.

سوف يُنادي

قال:

مشاهد قصيرة جدّاً من سيرة الرجل
الذي أحبّ الكناري

«نحن هاويتان متقابلتان؛ بئر تُحدِّق في المساء».

(فرناندو بسّوا: من كتاب اللادعة)

جاء متعباً وشاحِباً وقال: الصَّفث غفير

جاءَ مُتعباً شاحباً مُغمَضَ العَينَين وَيُبصِرُني. قال:

لَمْ أنجُ من شَجَنِ الفُقدانِ، وَلَمْ أنجُ من رَغشَةِ السُّعال.

من الألمِ المُقيمِ في روحي وفي رئتيَّ.

أماتني الألَمُ، ويُحييني كُلَّ يَوْم.

سراباً رأيث.

ومُرّاً كان كُلُّ طَعمٍ.

السَّرْوَةُ الَّتي تُؤْنِسُ وَحْدَتي بَسَقَتْ مِن قَلْبيَ المُترَبِ، وروحي طَيَّرَها المُستَوْحِدُ الشّاكي.

لم أنجُ حين نَجَوْتُ، فالظِّلالُ هَذَرُ أحياءٍ لَهُمْ وجوهُ مَنْ أحِبّ.

والصَّفثُ غفير.

وقال: إنَّ الكناريَّ مات لأنَّه وحيد

وقال: ماتَ الكناريُّ وَقَدْ أطعَمْتهُ ما يُطعَمُ، وحادَثْتُهُ طويلاً وحَنَوْتُ عليه. غَيرَ أنَّ الكنارِيَّ ماتَ لأنَّهُ وحيدٌ. ولأنَّهُ أرادَ أنْ يموت.

لَيسَ قَدَراً أنْ تُغادِرَ ها هنا. بَلْ أن تُريد.

قُلْ: رأيتُ ما يَكْفي. وسَمِعْتُ ما يَكْفي. وعِشْتُ ما يَكْفي. وقُلْ: ما عُدْتُ أريدُ. واتْبَعْني.

جلس على الكرسيّ وحدّق في وجهي

جَلَسَ قُبالتي على الكُرْسِيِّ وحَدَّقَ في وَجْهي.

لَمْ يَقُلْ شيئاً.

ثُراني كيف سهوت؟

كأنَي لم أعِشْ مِنْ قَبْلُ. كأنّي لم أرَ.

سبعونَ عاماً.

ثراني كَيْفَ سَهَوْتُ؟

وقال لي: أراك طفلاً في الأربعين

قال لي: وَجْهُكَ مُتعَبٌ. إنْ بَكَيتَ أطلَقْتَ روحَها مِنْ قَلْبِكَ. أطلَقْتَ روحَها مِنْ عَيْنَيك.

وقال لي: ابْكِ، لكي تَجْلوَ عَنْ عَيْنَيْكَ مياه الغَرَق.

وقال لي: أراكَ طِفْلاً في الأربعين.

قال: مساء الخير

أغْلَقَ البابَ وراءَهُ.

خَلَعَ مِعْطَفَهُ وشالَ الصّوفِ والقُبّعَةَ.

عَلَّقَ عصاهُ على المِشجَبِ.

وَقَبْلَ أنْ يَجْلِسَ قال:

مساءُ الخير.

وقال لها: ربّما جاؤوا

قال لها: أحضِري لي قَهوَتي البيضاءَ ووِعاءَ ماءٍ ساخِنٍ وكثيراً من المِلْح.

قال لها: أضيئي الغُرفَةَ والرِّواقَ وعَتَبَةَ الباب.

ربّما جاؤوا والليلُ لَيل.

وقال: رُبَّما جاؤوا.

قال لها: هذه ليلتي الأخيرة

قال لها: اقتربي. أضَع رأسي على صَدرِكِ.

قال لها: هذه لَيلَتي الأخيرة.

وقال: لا تَبكي.

وبكى.

فقط أنتَ، أيُّها الغريب

تِلْكَ دارةٌ بعيدةٌ،

وإنْ مَشَيتَ لَنْ تَصِلَ.

وإنْ وَصَلْتَ لن تَقْرَعَ بابَها.

وإنْ قَرَعْتَ بابَها لَنْ يُفْتَحَ وَلَنْ يَحْسِنَ وِفادَتَكَ أحد.

فتلكَ دارَةٌ بعيدةٌ، عِنْدَ مُنْتهى الدَّرْبِ الذي لا ينتهي.

امْكُثْ بقربي إذاً، أنا الشَّجَرَةُ المُستَوْحِدَةُ وأنتَ ظِلّي.

أو اسْرُدْ على مسمعي حكايةً، فَمُنْذُ وَقْتٍ بعيدٍ هَجَرَني الطَّيْرُ، ومُنذُ وقتٍ طويلٍ أقِفُ هُنا على بابِ العراءِ لا أسمَعُ صوتاً إلّا السُّكونَ الذي يُعْتِمُ أو يُنيرُ مواقيتَ اليوم.

خُذْ رُكناً عند جِذعي واسنِدْ ظَهرَكَ المُتْعَبَ إليه، واحْكِ لي حكايةَ الشَّجَرَة، فتلكَ دارَةٌ بعيدةٌ، عِندَ مُنتَهى الدَّرْبِ الذي لا يَنْتَهي، ولم يَبقَ إلّا القليلُ من الضَّوْءِ، ولم يَبْقَ إلّا القليلُ من الرَّغْبَةِ، ولن يَلْبَثَ طَيْرُ الهوام أن يَمحوَ الدَّرْب.

احكِ لي حكايةَ الشَّجَرَةِ والغريب.

أو حكايةَ الدارَةِ البعيدة

أو حكايَةَ الدَّرْب

أو

أغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَدَعْني أفْرُدْ ظِلّي على وَجْهِكَ الشّاحِبِ، وَنَمْ ها هُنا تَحْتَ صَمْتي الوارف.

بلى، كانَتْ تلكَ شُجونُ العابِرينَ بقُربي، فازْفَعْ حَجَراً منها واجْعَلْهُ مُتَّكأً أو وِسادةً.

كانت شُجون العابرينَ وصارتْ حِجارَةً مُبعثرةً مِنْ حَوْلي إذْ تَخَفَّفَ مِنْها المُتْعَبون.

غرباء. لا أعْرِفُ أسماء لَهُم. لا أعْرِفُ وجوهاً لهُم. ولا أذْكُرُ الآنَ كَمْ مِنْهُمْ واصَلَ السَّيْرَ وَكَمْ مِنْهُمْ مَكَثَ أو عادَ أدراجَهُ.

غُرباءُ، مِثْلُكَ وَمِثْلي. وكانوا، جميعاً، يَقْصِدونَ الدَارةَ البعيدةَ، عِنْدَ مُنْتَهى الدَّرْب الذي لا ينتهي. لم يَعُدْ أحدٌ مِمَّنْ واصلوا السَّيْرَ إليها. وَمَنْ مَكَثَ أو عادَ أدراجَهُ لم يَصِلْ إليها، بَلْ إليَّ، فأسْنَدَ ظَهْرَهُ المُتْعَبَ إلى جِذعي ونامَ تَحْتَ صمتي الوارِفِ، وحينَ غادَرَني مَكَثَ حَجَرٌ في مكانِهِ.

هي حِجارة صغيرةٌ كالبَلّور. إنْ سَحَبْتُ ظِلّي عَنْها التَمَعَتْ بِوَمْضٍ خاطِفٍ، وإنْ فَرَدْتُ ظِلّي عَلَيْها سَكَنَ بريقُها وأعْتَمَتْ كأنَّها قطراتُ مياه مُطْفأة.

غرباءُ. مِثلي ومِثْلُكَ. يحكونَ لي حكايةَ الشَّجَرةِ والغريب.

فاخكِ لي.

كانتِ الشَّجَرَةُ. وكانَ الغريب.

ما كانَتِ الشَّجَرَةُ. ما كانَ الغريب.

كانَ دَرْبٌ وَسَطَ عراءٍ، ضَيِّقٌ وَمُتَعَرِّجٌ، وكانَتْ دارةٌ بعيدةٌ عِنْدَ مُنْتَهى الدَّرْبِ الذي لا ينتهي.

ما كانَ دَربٌ وَسَطَ عراء.

وما كانت دارةٌ بعيدة.

عابِرٌ لم يُبصِرْ في العراءِ المُخيفِ ظِلّاً وأضناهُ المسيرُ وراحَ يَهذي فَحَكى لنفسِهِ حكايةَ الشَّجَرَةِ والغريبِ، أو حكايَةَ الدّارةِ البعيدةِ.

أو حكايةَ الدَّرب

لَستُ أدري...

فلا الدّارةُ هُنا،

ولا الدَّربُ، ولا الشَّجَرَةُ.

فَقَط أنتَ، أيُّها الغريب.

كانت حكاية، حكاية وَحَسب...

«وسَوفَ أكونُ دَوماً ذلكَ الذي انتَظَرَ أنْ يُفتَحَ له البابُ عِندَ جِدارٍ لا بابَ فيه»

(من قصائد فرناندو بسّوا)

هَلْ كانت مُجرَّدَ حكايةٍ؟

وَهَلْ كانَ الرَّجُلُ مُجَرَّدَ سيرةٍ تُروى كما تُروى الحكاياتُ، فلا كانَ الرَّجُلُ ولا كانَت سيرتُه إلّا اختِلافاً كَمِثلِ ما يَفعَلُهُ الرُّواةُ حينَ تكونُ الحياةُ قليلةً، والحكايَةُ أكبَرُ مِنها وأشدُّ إثارةً؟

لَستُ أدري. ولا أحَدَ يَدري.

وإنْ أرَدتُ أنْ أصْدُقَ القَولَ، فإنّي حائِرٌ بَينَ الرَّجلِ الذي جَعَلَهُ الرَّاوي سيرَةً تُروى، والرَّجُل الذي أحَبَّ الكناريَ، وأحَبَّني، وأطالَ الجُلوسَ على الشُّرفَةِ وحيداً، كأنَّهُ فَرغَ من مشاغِلِهِ كافَّةً، وراحَ يَنتَظِرُ انقضاءَ الوقت.

* * *

لَمْ يُشبِهْني يوماً، وإنْ زَعَمَتِ الرِّوايةُ شَبَهاً لا أراهُ الآن.

أم إنَّه كان شَبيهي وَلَمْ أُدرِكْ ذلكَ، لَستُ أدري.

أمرٌ واحدٌ، أعرفُ الآنَ، أنَّني لطالَما أدرَكتُهُ ولم أُصَدِّق يوماً أنَّه سيكونُ مبتدأ الحِكايةِ الَّتي لا تَنتَهي.

أمرٌ واحِدٌ. ولا أدري ما يكونُ.

سوى أنَّني رأيتُ طَيفاً لَهُ بَينَ الحُجُراتِ يَخطو على مَهَلٍ كَمَنْ يَبحَثُ عن شيءٍ ما عادَ يُدرِكُ ما يكون.

ورأيتُ طَيفاً لَهُ قَبلَ أنْ يُدرِكَ أنَّهُ ذلكَ الطَّيفُ بَينَنا.

كانَ يُغادِرُ.

وكُنّا نرى جيّداً أنّه يُغادر.

وكانَ قَبلَ أنْ يُغادِرَ يُواصِلُ التَّجوالَ بَينَ الحُجُراتِ والأَسِرَّةِ والكراسي، ويُواصِلُ التَّجوالَ بَيننا. لا يُخاطِبُ أحداً منّا خِشيَةَ أنْ يَطْلعَ الصَّوتُ من الجانِبِ الآخَرِ، فنُدرِكَ أنَّهُ جاوَزَ الخَطَّ وصارَ هُناكَ، ولم نَنْتَبِه.

عيناهُ فقط.

كبيرتانِ، دامعتان.

عميقتان كالبِئرِ التي تَفيضُ صُوَراً وأصداءً.

كانتِ الإنارَةُ مُبتَذَلَةً،

والبَلاطُ المُعَقَّمُ اللّامِعُ يَعكِسُ أخيِلَةَ الواقِفين في الرِّواقِ الطَّويل،

وكانَ هَمسٌ يَتَبادَلُهُ الأبناءُ، وصَمتٌ تَتَبادَلُهُ الجُدرانُ والخُطُواتُ المَكتومَةُ لراهباتٍ صغيرات القامَةِ مُسرعاتٍ بَينَ الغُرَف.

كانت أنفاسُهُ شاقَّةً ورتيبةً.

وكان السَّريرُ بِجِوارِهِ شاغِراً، رُفِعَتْ عَنْهُ الشَراشِفُ، فبدا مَعْدِنُهُ الكامِدُ كأنَّهُ عَرَبَةُ خَيلٍ كتلكَ التي تُفَرَّغُ فيها حُمولات الموانئ.

كانت ساعَةُ حائِطٍ كبيرة. وَتَكّاتُ عَقْرَبٍ مُثابر.

كان نائماً.

لَيسَ كَمِثْلِ نَوْمِنا، حَيثُ الفراغُ صُوَرٌ ورغباتٌ دفينةٌ.

بل كالتَّلاشي في فضاءٍ رَحْبٍ، في اتِّساعِ العَتَمَةِ التي لا تُشبِهُ العَتَمَةَ.

كان نائِماً.

إذا كان النَّوْمُ فراغَ الأمْكِنَةِ المُجَرَّدَ، إذا كان نَفَقاً يَمْتَدُّ في اتِّجاهٍ واحِدٍ، إذا كان مَوْتاً يَتَرَيَّثُ في اكْتِمالِهِ وَيُبْطِئ.

حينَ حَمَلَتْهُ سواعِدُ غريبَةٌ وَجَعَلَتْهُ على المِحَفَّةِ، كان لا يزالُ نائِماً، غَيْرَ أنَّ مَشَقَّةَ أنفاسِهِ تلاشَتْ؛ وما عادَ الرَّجُلَ الذي كان.

ما عادَ الرَّجُلَ الذي أحَبَّ الكناري.

ما عادَ الرَّجُلَ الذي كان.

كانَتْ إذاً مُجَرَّدَ حِكايةٍ.

وتُروى كما تُروى الحِكاياتُ. وَلَمْ يَكُنْ يَوماً شبيهي. أو كانَ، لَسْتُ أدري.

كانت مُجَرَّدَ حِكاية.

وَكُنْتُ أزويها،

أو كان يَزويها،

لَيسَ يَدْري.

لَسْتُ أدري.

مُبتدأ

كان يَرْوي بَعْضاً من سيرَتي أينما حَلّ، بِجوارِ بَيتٍ أو سَرْوَةٍ أو تَلّة.

وعلى هذا النَّحْوِ أقمتُ على الشَّتاتِ، لي حياةٌ مُبَعْثَرَةٌ بَيْنَ النّاسِ والأمْكِنَةِ، وَبَعْضُها كانَ يضيعُ كَمِثْلِ الصّدى بَيْنَ التِّلالِ، وَبَعْضُها يَسقُطُ في النِّسيان.

وما تَبقّى قليلٌ لا يكفي، كَيما أقول ذات يومٍ إنَّني كُنْتُ أحداً، إنَّني كُنْتُ شيئاً، طَيفاً يَسْتَريحُ على قارِعَةِ هذا العالم.

كان يرْوي أنّني مَرَرْتُ بمُدْنٍ وقِفارٍ، وأنَّني ذات يَوْمٍ سَمِعْتُ حديثَ الشَّجَرَةِ المُسْتَوْحِدَةِ، وأنُّني أحْبَبْتُ الكناريَّ، وَجَعَلْتُ أبكي حينَ رأيتُهُ مُسْتَلْقِياً بَيْنَ الزَّنابِق.

وكان يَرْوي حكايَتَهُ مَعَ الغُرَباء.

وقال إنّي غريبٌ وروى حكايَةَ مَوْتي وحكاياتٍ أُخْرى عن الفتاةِ التي كانَتْ أُخْتاً للشَّجَنِ والعُزْلات.

وقال قَوْلاً حَسَناً، وَقَوْلاً أذْهَلَني عَنِ الجانِبِ الآخَرِ الذي ما أدرَكْتُ يوماً أينَ يكونُ، وأينَ أقِفُ مِنهُ، وفي أيِّ جانِبٍ أكونُ.

بجوارِ صَحْبٍ أو مُجَرَّدِ عابري سبيل، كان يروي، وعلى هذا النَّحْو أقَمْتُ على الشَّتاتِ، لي حياةٌ كان يَخْتَلِقُها مُبَعْثَرَةً بَيْنَ ذاكِرَةٍ ونِسْيان،

وما تبقّى قليلٌ لا يكفي لحياةٍ واحدةٍ؛ فأقَمْتُ على شتاتي طَيفاً لَم أزَلْ.

ولم أدركْ مِنْ قَبلُ أنّ هذا كُلَّهُ مُجَرَّدُ حكايةٍ، وأنَّ مِثلَ هذا الألمِ لا يكونُ إلّا لِمَنْ تُروى سِيَرهُم على بابِ بِئرٍ عميقةٍ، لأنَّ الكلامَ هو ما تَحفَظُهُ البِئر وَتُرَدِّدُهُ في سِرِّها أصداءَ صَفتٍ أو أصداءَ نحيب.

كان يروي حكايتي.

وأحسَبُ أنّني ما كُنتُ أحداً.

وأحسَبُ أنّني ما كُنتُ شَيئاً.

وأحسَبُ أنّني

يوماً

لَنْ أكونَ.

كانَت حكاية.

حكاية وَحَسب.

نيسان/ تشرين الثاني ١٩٩٤

«أن تَحيا هو أنْ تكون آخرَ. ولا يَعْقِلُ أنْ تَشعُر إذا كان شُعورُكَ اليَوْمَ هو إيّاهُ شعورَكَ بالأمْسِ. فأن تشعُرَ اليَوْمَ كما شَعَرتَ بالأمْسِ لَيسَ هو الشُّعورَ ـ بَلِ التَّذْكارُ الذي تَحْفَظُهُ اليَوْمَ مِمّا شَعَرْتَ به أمسِ؛ هو أنْ تكونَ اليَوْمَ الجُثَّةَ الحَيَّة لِما كانَ بالأمسِ، حياةً، ومُذْ ذاكَ فَقَدتَها».

(فرناندو بسّوا: كتاب اللادعة)

بضعةُ أشياء

١٩٩٧

(..) وقال يا بنيّ لا تدخلوا من بابٍ واحد وادخلوا من أبواب متفرقة (..)

(سورة يوسف، ٦٦)

كُتبت هذه القصائد بين 1992 و1997

في التَّجوال بين السهو واليقظة

أضحكني ما لا يُضحك

وأبكاني ما لا يُبكي

وأهملتُ الوقتَ ينسربُ كالرملِ بين

أصابعي

وأحببتُ

وأرخيتُ ظِلَّي الماصِلَ على الأرصفةِ

والطرقات

وأحببت يوسف حين غادرني

كما أحبني حينَ غادَرْتُهُ

وأحببتُ يدَهُ حانيةً على البنفسجات

وعينيه

وقامته المترنِّحة مثل سروةٍ

في رياح

لم يحدِّثني لكنَّه أعطاني قميصَه

ولم يمسك يدي لكنَّه قال

امْسَحِ الغبشَ عن عينيَّ لأني إنْ رأيتُ

نجوتُ

والنجاةُ أمنيةُ الموتى

مُتُّ ولم أنجُ

قالت لا تُصدِّق

هذا الطَّعم المرّ في فمي

بقيَةٌ من أرَقٍ

وضوضاء

وأنفاس مبنًجة،

بقيَةٌ من منامٍ أبصرته البارحة،

وقال لا تُصدًق

كنّا خدم أرواحنا وقسوتها التي

جَعَلتْ منّا

حطباً يُخلِّفُ رماداً ولا جمر

تراباً ولا نبات

أعدُك أن أنام

غَير أني مُتعَب

والمشقّةُ في قلبي لا في الطريق

والعتمُ في عينيَّ

في سَمْعيَ

في الأعوام التي توالت عاماً بعد عام

ولم أرَ

عرفتُ رجلاً كان اسمه يوسف

وكان قليل الكلامِ

صامتاً كالبئرِ

يجلسُ على الكُرسيّ جميلَ الوجهِ

ساهيَ العينين

وكان يروي أنَّه لم يَعِش لأنَّه أمضى

سبعينه خادماً لروحِهِ

أعطاها ما يُعطى

وصار يمشي بين الغُرَف والرّوائح والضوضاء

وصار كهلاً

يُخصي هنيهات الليلِ

ولا يحبّ النوم

أعدُك أن أنام

فلَا شأن لي في هذا كلّه

عرفتُ يوسُف ومات

ولم أكُن يوماً بقربِه

كان يوسف يُحبّ أن يروي لنفسِهِ حُلْماً،

يضحك أو يبكي أو يبقى ساهماً

ويروي

أنّ التّعبَ تعبٌ

والنهار مشقّة

والليل ليل

وأنه دخّنَ ستين سيكارة في اليوم ولم

يكتب حرفاً،

وأنّه أحبَّ الشُّرفة والرواق والرصيف

والسَّروة وباب المدرسة الحديد

وأنّه عاش ومات،

وأنّه ماتَ لأنّ الموت حكاية

والحكايةُ هي ما يبقى

أو ما يزول

أو ما يُروى

ليس يدري لأن الكلام مشقّة

كمثلِ السَّير في الرواق،

كمثلِ النومِ في السرير

كمثلِ اليقظة لهنيهاتِ

كالخَدَر المنسرب

من ضوءِ كالنعاس

من نعاسٍ باهتٍ كالضوءِ الذي يُنير خيوط

الغبارِ

في حُجرةٍ عاريةٍ كالنفق

باردةٍ كأثواب الممرِّضات

مكتومةٍ كالسُّعال

أعذُك أن أنام

أن أنتَظر الصباحَ المقبلَ

وما يليه

لكنّي مُجبَر على الرحيل الآن،

لا لِعَمَلٍ أو مَوعِدٍ أو نزهةٍ أو أيِّ

شيء من هذا القبيل

فأنا مُتعبٌ وقد خدَمتُ روحي ما استطعت

عرفت رجلاً كان اسمه يوسف

ولا وقت لديه

أحبّني كما أحببت أن يكون

وأحببته كما يحبّ أن أكون

وكتب سيرتي

ويريد أن أقول له وداعاً

وينتظرني

وإن أراد أحدٌ أن يراني

قولي إنّه هناك

على الناصيةِ

على العتبة

أو قولي

لم أعرف هذا الرَّجل من قَبْل

إلَا

في الحكاية

حكاية يوسف الذي أحبَّه،

صامتاً وغادَره يوسُفُ

كأنَّه مات.

٩٧/ ٢١/٣

اتبَعْنِي قالَ الملاك

قالَ المَلاكُ اتْبَعني

وَكُنْتُ أخَافُ

المُوحشَ

والبَرِّيَ

أخافُ الطَّريقَ

زاهدَةً بَيْنَ الحَصَى

والرَّمل والأشواك

قالَ اتْبَعني

وما أحبَبْتُ شَيئاً

إلّا أماتَني

وأحياني كَطَيْفِ

ثُمَّ

صارَ غَريبي.

وَضَعْتُ صُوراً

في الحَقِيبةِ

وبَنَفسجَاتِ وماء

وتَبعْتُ الطَّيْفَ إلى

سَرَابِ البُيوتِ

هُناكَ

أزهَقَني الأزْرَقُ البَعيدُ

والأُفقُ المنهوكُ

بالصَّدى

والأجْنِحَةِ المُثقَلةِ بأمْلاحِ

الرَّفِيف.

كان المُرُّ شَرابَ

الشَّجَرِ اليابس

والأرومات المُسْتَوحِدَةِ

كأنَّها الظِّلالُ

جَمُدَتْ

واسْتَبدَلتْ رَقْراقَها خَشَباً

ورَمَاداً.

قالَ اتْبَعني

والمَلاكُ غَريبي

وكُنتُ غَريبَهُ الَّذي يَتْبَعُ

رَفَّةَ الجَناحِ

وَحَفيفَ الغُلالَة الَّتي نُسِجَتْ

من أمْصالِ الضَّوْء

والشعالِ الخَافِت

والنَّزيف

في أزوِقَةِ الَّذينَ يَرْحَلونَ

تِباعاً.

ورَأيتُ البُستانيَّ الَّذي

أنْبَتَ

أرْبَعينَ عاماً منْ خَوْفي

وَصَيَّرَها حَطَباً،

ورَأيتُ البُستانيَّ في حُلمي

ورَأيتُ قَبرَ أبي قَصِيّاً في

حُلْمِ البستانيّ،

ورَأيتُني في حُلُمِ أبي

صَبِيّاً بَعْدُ

ما أماتَني المَوتُ

لكنَّهُ

أحْياني طَيفاً

وأحْياني ظِلّاً

يَصْحَبُه المَلاكُ بَعْضَ

الطَّريقِ،

وكُنتُ أخافُ العَراءَ

يَستَنْبتُ أفياءَهُ

شوكاً

وَتَنْهَمِرُ أضداؤه حَصًى

لا يُعَدُّ،

ويُفارِقُني الظِّلُّ الذي

نادى عَلَيَّ

وأقامَني جِسماً مِنَ الرَّقْراقِ

الدّاكِنِ.

فَقال المَلاكُ اتْبَعني

وَكُنْتُ أخَافُ الظَّلامَ

وَكُنْتُ أخَافُ السَّماءَ

شاغرَةً

بَعيدةً

والبيوتَ إذْ تُعتِمُ نَوافِذُها

أخَافُ نَوْمَ الّذين أحْبَبْتُهمْ

حينَ قالَ المَلاكُ

النوْمُ نِسْيانٌ أعْمَقُ

مِنَ المَوْت

والمَوْتُ نسْيَان.

وتَبَعْتُ المِلحَ الذّي نَثَرَتْهُ

يَدَاهُ.

ودَلّني الملحُ

فرَأيْتُ ظَمأ اليَنابيعِ والآبارِ،

ودلّني الظمأ

فرَأيْتُ السَّرابَ

وما بدّدْتُه

وأنْفَقْتُ عاماً تلوَ عامٍ

إذْ تَراءَى الماءُ مُبطِئاً

مُتَلَعْثِماً

يَقتفي أثَرَ اليبَاس

فيَبْذُلُهُ اليَباسُ لقَسْوةِ

الشَّوْكِ والحَجَر.

قالَ المَلاكُ اتْبَعْني

وَتَبِعْتُهُ

وما دَلَّني المَلاكُ

وما عَرَفْتُ الطَّريقَ

بَلْ عَرَفْتُ البُعْدَ

لا يَنْتَهي

وَتَبِعْتُهُ

وما وَجَدْتُني

إلَا غائباً في نَوْمِهم

مُقيماً في رَجائِهِمْ

وأماتَني الرَّجاءُ

وأحْياني

وَتَبَعْتُهُ كالطَّيْفِ

وَمَا دَلَّني المَلاكُ

وما اهْتَدَيْتُ

كانَ نَوْمُها صاخِباً بالضَّحِكِ

والمسرَّاتِ

كانَ نَوْمِيَ أبيَضَ كالغُلالةِ

وشَفّافاً كالمضلِ

وبَارِداً كَجَبينِ المَوتى.

قالَ المَلاكُ اتْبَعْني

وَدَلّني

كان السُّكونُ شَمْعيّاً باهراً

والأضواءُ ملسَاءَ رَتيبة

كالرُّخام.

أطْيافٌ ساكِنَةٌ عِنْدَ فُتْحَةِ

النَّفَقِ الطَّويل.

وَعَرَفْتُني

كُنْتُ هُناكَ لَمْ أزَلْ

في نوم الموتى

وما كانَ المَلاك.

الظِّلُّ جدارٌ أخَفّ

حياة

يَدي العَشراءُ

علَى جَبيني،

قَطَراتٌ مِنْ عَرَقٍ بَارِدٍ

يَدِي الأخرى

تَلمَسُ الأنْفَ

والفَمَ والعُنُقَ

وإذْ تَهتَدي إلى الصَّدْرِ

تَفكُثُ

هُنَيهَةً هُناك.

عَيْناي

تَلْمَحان الطَّيفَ بَعيداً

والضَّوْءَ المُتَصابي

لِصَباحٍ عَتيق

تَبّاً!

أحْسَبُ أنّي ما زِلْتُ

في قَيدِ الحياة.

أسَف

لَمْ أحْسَبْ أنَّ للْهواءِ

بَهْجَةً

هي الرائحةُ التي تسري في نسماته:

المَطرَةُ الأولى إذ تُبَلِّلُ الثُّرابَ

العَرَقُ المُتصَبِّبُ مِنَ الوَجْهِ

العُنقِ والرِّدفَيْن،

رائِحَةُ البَيْتِ

رائِحَةُ المَرأة بجواري في السَّريرِ،

في سيّارةِ الأجْرَةِ،

على الرَّصيف،

رائحَةُ البُرْتُقالِ وَالتَّبْغِ بَعْدَ طَعامِ

الغَداء،

رائحَةُ أبي بَعْدَ الاغْتسَالِ

رائِحَةُ الكتابِ بَيْنَ يَدَيّ،

رائِحَةُ الكَلِماتِ بَيْنَ يَدَيَّ،

لَيْتَني عَرَفْتُها

قَبْلَ وَقْتِ

رُبَّما قُلْتُ للْملاك اعْذُرْني

أيُّها المَلاك

لسْتُ أجرؤُ الآنَ على الرَّحيل.

خطأ

لا أريدُ أنْ أكونَ مُحِبّاً

وَرَقيقاً

فَقَطْ أضَعُ يَدي على جَبِينِكِ.

بَارِدٌ أو

فَاترٌ أو

مَخموم

لا أحبُّكِ حُبّاً لا يُضاهى

ولا أشقَى لغيابِكِ

ولا أموت

فَقَطْ أضَعُ يَدي على جَبينكِ

لأغرفَ

ما الَّذي فيَّ

ما زالَ حَيّاً.

سوء فهم

حَسَناً

لَسْتُ بائِساً لأبْكي كَمَنْ يُحِبُّ أنْ

يُحِبَّ

ويَخافُ الكَراهَةَ والنِّسْيان،

وَلَسْتُ حَزيناً

كالشاعِرِ الَّذي كَتَبَ قَصائِدي

في غَفْلَةٍ منّي

مَكَثْتُ هُنا

في الظلِّ الذي هو جِدارٌ أخَفّ

وَنَسِيتُ ـ في الشُّعورِ الهائِلِ

لِضَحِكاتي ـ

أنْ أشعلَ مِصْباحاً.

عَتَمَةٌ.

لا.

ضِياءُ قَبْرٍ وَشُجَيْراتٍ

في عِزِّ الظَّهيرة.

امرأة

امْرأةٌ أصِفُها:

لَيسَ للْعَالَمِ وَصْفٌ

منْ دونِها:

هَمَلٌ ونفيّاتٌ وهَباء.

رجل

هُنا

في هذا الجِسمِ المَتهوكِ

يَزقُدُ الرَّجُلُ

فما جَذوى الصباحاتِ

البَلِيدة.

نثر

ما قيلَ في الحَياةِ

والخَطَإ

والأسَفِ

وسوء الفَهمِ،

ما قيلَ

في الرجُلِ والمَرأةِ

نَثرٌ أو

هُراءٌ

مِثلُ هذا.

والصَّوابُ:

أسِفٌ لأخطاءِ هذه الحَياة،

لكنّي

ما مَلكْتُ

سِواها.

الآخر الذي يَسيرُ مُطرِقاً

كُلّما

أطْبَقَتْ على صَدري الجُدرانُ

والأرَقُ

والسّعالُ

وَجَدْتُني خَلْفَ النّافِذة،

وأعْلَمُ أنّي في اليَقَظَةِ

لا أحلُم.

أراني

على الرّصيف

رَجُلاً يَسيرُ

أصابعُ يَدَيْهِ مَشبوكةٌ خَلْفَ ظَهْرِهِ

رأسُهُ مُطرِقٌ

مَحنِيُّ الكتفَيْن

تُراهُ

يَذْهَبُ إلى أين؟

لَمْ أسألهُ يَوْماً

فَيَلْتَفتُ وأرَاني

فَأدركُ أنّها اليَقَظَةُ لا الحُلم

وأعْلَمُ إذْ ذاكَ إلى أين

وأخافُ

أ

خ

ا

فُ

لشدَّة ما أراني بَعيداً

هُناكَ،

رَجُلاً يسيرُ

مُطرقاً

مَشبُوك اليَدَيْنِ خَلْفَ ظَهْرِهِ

ولا يَراني.

الرَّجُلُ الذي ماتَ من بَعْدي

لا أجذني

بَيْنَهم

الَّذين أحْبَبْتُهُم

والَّذين أبْغَضْتُهُم

وأولَئكَ

إذْ لا أبالي.

لكِنه أيْقظَني

في الحُلمِ

الَّذي لا يَرى المَوْتى سِواه.

كانَ أبي يُجبُني

وأمْسَكَ يَدي ولَم يَقُلْ شَيئاً

أطْلَقَ أنْفاساً

مُرَّةً

وَكَلمات أماتَ المَوْتُ نصْفَها

لَمْ أُدرِكْ يَوْمَها

أنَّه يَراني في الحُلْمِ

الَّذي لا يَعْرِفُ المَوْتى سِواه،

وأنَّ يَدي تَدُلُّهُ.

يَدُ الغائِبِ الَّتي تَدُلُّ على الغِياب

وَعَيْناهُ الَّلتان تُغْمِضانِ عَياءً

ولا أجِدُني

ـ إذ يَحيَوْن بفَرَحِ الحياة الَّتي لَهُم ـ

بَيْنَهُمْ

الَّذين أحْبَبْتُهُم

والَّذين أبْغَضْتُهُم

والرَّجُلُ الَّذي ماتَ مِنْ بَعْدي.

لِمَنْ أترك غيابَكِ؟

أجُرُّ نَهاري كَعَرَبَةِ خَيل ثَقيلة. فَلكُلِّ نهارٍ حُطَامُهُ، وما جَمَعْتُه مِنَ النَّهاراتِ إلى اليَوْمِ جَبَلٌ أبْذُلُ يَوْمي لإزاحَته عَنْ صَدْري بِمعْزَقَةٍ. هي مِهْنَتي، وَمِهْنَةُ مَنْ هُوَ مِثْلي، مِنَ الأَحْياءِ عابري السَّبيل.

جاءَ نهارٌ وَلَمْ أنْتَبهْ، على الرَّغْمِ مِنّي حينَ ماتوا جميعاً، أقصدُ مَنْ أحْبَبْتُ مِنْهُم ومَنْ أحَبَّني. لَمْ أنْتَبِهْ. ثُمَّ يأتي نَهارٌ آخرُ، بِمَحْضِ المُصادَفَةِ، أجُرُّهُ كَعَرَبَةِ خَيلٍ حتى أنْهَكَ حطامُ النَّهاراتِ جِسْمي.

لا تُصَدِّقْ هذه الابتسامَةَ العَريضة، ولا تُصَدِّق العافيَةَ في دأبي كالبِغالِ علَى النُّهوض. فِطْرَةُ البغالِ أنْ تنْهَضَ بالحُمولات وَفِطْرَةُ جِسْمي أنْ يَنْهَضَ، كُلَّ صباحٍ، بأعْباءِ مَيِّت يُشْبِهُني. لَمْ أَمُتْ حينَ أشار أبي إلى المكانِ البَعيد. أمسَكْتُ يَدَه وهَمَسْتُ في الأُذُن الّتي لا تَسْمَعُني: ((قُلْ لي يا أبي، ما الّذي تَراهُ؟)). لَمْ يَقُلْ شَيْئاً. فَظَنَنْتُ أنَّه يَهتَدي. وَغادَرْتُه ولَمْ أنَمْ. وغادَرَني في نَومِه وما انْتَبَهْتُ. على الرَّغمِ مِنّي يَأتي الصَّباحُ ولا أُوصِدُ نافِذَتي أوْ أزْجُر ضَوْءَهُ السَّخيف. وفي اللّيلِ أنامُ عَلّني أُغادِرُني ولا أقدِرُ إذ لا أهْتَدي وتَتَشَبَّثُ بيَ الأنفاسُ المَزكومةُ لنائمةٍ بِجواريَ وَيَسْتَدْرِجُني الحُلُمُ إلى يَقظَةِ الحالِمِ الّتي لا تُشْبِهُ النَّوْمَ. إذاً، أسِفُ لن أرْحَل. ليسَ لأنّي لا أُريدُ، بَلْ لأنَّ لَدَيَّ ما أفعَلُهُ هُنَا. لِمَن أترُكُ الحُطامَ هَمَلاً؟ وَقَسْوَةَ أنْ أقْتَرِفَ الخَطأ وأنْدَمَ ثُمَّ أنْدمُ على الخَطَأ الّذي سأقْتَرِفُهُ فيما بَعْد. لِمَن أترُكُ حَماقَةَ أنْ أُحِبَّ الرِّواقَ والنّافِذَةَ؟ حَماقَةَ أنْ أغتبطَ إذا دَلَّني الظَّلامُ على

بَارِقَةٍ وأعْلَمُ أنَّها عُودُ ثِقابٍ أو عَقبُ سيكارة، فَيَلْتَصِقُ الظَّلامُ بِجِلْدي ويكتنفُني، لِمَن أترك غِبطةَ أنْ أتنفَّس في العَتمةِ التي أحسبُ أنَّها غِشاوة لهاتيَ الخائف، وغبطةَ أنْ أبكي إذا أشفَقتُ لِوحدَتي وإذا حَاصرَني الجَمعُ مِنْ كلِّ صَوْب. أسِفٌ لديَّ من البطالةِ ما ينوءُ بثقله جَبَل. ومن الحيرَةِ، والسؤال، وكراهةِ النَّفَسِ. لو أحبَبتُ نَفسي يوماً لأزغَمتَها على الرَّحيل. لو أحبَبتُ جِسمِي لأفنيتُه في تَطلُّبِ لَمْسِكِ. لكِنِّي الآنَ أجُرّ نهَاري كعرَبةِ خَيل. وأشقَى بأشجانِ الحُوذيِّ المَخْلوعِ. أقِفُ كالظِّلِ الحائِرِ عندَ العَتَبة. وأعلمُ أنّي لَنْ أُغَادرَ، على الرَّغمِ منّي، يأتي الصَّباحُ في كلِّ صَبَاح. لا أبرحُ الظِّلَّ الذي يُشبهُني

لِمَن أترُكُ حماقةَ أن أُحبَّكِ وأحيا؟

لِمَن أترك غِيابَكِ؟

المراثي الثانية

بِضعةُ أشياءِ لا أعرفها

متى أُدركُ اسْتراحَتَهُ البَعيدةَ؟

حَمَلَ مَتاعاً خَفيفاً

اللَّوْعَةَ في عَينَيْه

وَزَنْوَهُ والثِّياب الجَديدةَ،

لَمْ يَلْتَفِتْ، كَأنه يَعْرِفُ الدَّرْبَ جَيِّداً،

لكنَّه نَدِمَ على بضْعَةِ أشياءِ

أعْرِفُ مِنها الكَنارِيَّ الّذي أماتَهُ البَرْدُ،

والخَاتَمَ

وإبْطاءَهُ في الرَّحيل

كأنَّها سَبَقتهُ إلى مَوْعِدِهِ

وأبْقَتْ له الأعْوامَ عِبئاً عَلَيهِ.

لَمْ يَلْتَفِتْ

لَمْ يَسْلُك الدّرْبَ مِنْ قَبْل

لكنَّ السَّرْوَةَ كانتْ تَدُلُّهُ

وَليسَ في الدَّرْبِ مُنْعَرَجُ

أوْ شِعابٌ

وَلَيْس فيها ما يَفْتِنُ البَصَرَ

دَرْبٌ كالهَواءِ

شَاغِرةٌ

وَدَرْبٌ كالصَّلاةِ

هي وَحشَةُ النَّجوى،

لَهَفُ القَلْب أنْ يَبوحَ لطَمَأنينةِ القَلْبِ

وَدَربٌ كالشَّقاء

بلا سَبَب لكنَّهُ الماثِلُ في الأسبَابِ كُلِّها،

وَدَربٌ كالدُّروب

الَّتي تَعرفُ أنْ تَبْدأ

وَتَعرِفُ أنْ تَرتَسِمَ بَينَ خَطَّينِ إلى أُفُقٍ بَعيدٍ،

وَدَربٌ كالدُّروبِ

لا تَعرِفُ ما الذي يكونُ وَراءَ الأُفُقِ

ولا تَعرِفُ ما الأُفُقُ

إن لَم يكُن مَشهَداً للغُروب

لم يَلْتَفت.

لَمْ يَرَ أحَداً منّا

لكنَّه رَمَقَ العَتَبَةَ والبابَ

وأسلَمَ عَينَيهِ للنَّباتاتِ على الشُّرفَةِ

لَمْ يَرَ أحَداً

لكِنَّه تَرَكَ صَوْتَه بَينَنا

نُعومَةَ كَفَّيهِ

ولَمْ يَكُنْ يَعرِفُ الدَّربَ مِن قَبْل

لكنَّهُ سارَ

مُطمئِنّاً،

دَربٌ كالإغماء

الَّذي أفقَدَهُ النُّطقَ

وَجَعَلَهُ روحاً هَزيلةً على السَّريرِ

ودَزبٌ كالأروقَة

الَّتي لاقَتْ جِسْمَه الماصِلَ

بأنوارِها البليدةِ،

وَدَزبٌ كالحُلُمِ

لا آخِرَ لَهُ،

كائِنَاتٌ مِنْ ظِلالٍ مُلَوِّحَةٍ

وَصَمْتٌ كأنَّه المكانُ الأرْحَبُ للصّامِتين.

لَم يَلْتَفِتْ

فالكناريُّ أماتَهُ البَرْدُ

والخاتَمُ في العُلْبَةِ

وَقَدَمَاهُ المَتَوَرِّمَتان

لا تُسْعِفَانُه الآن على المَسير.

متى أُدركُ اسْتِراحَتَها البَعيدةَ؟

كانت تُداعبُ ابْنَها

حينَ قالت له: إذا أمْسَكت الفراشَةَ

أعْطَتْكَ الفراشَةُ أنْ تَطير.

حَمَلَتْ مَتاعاً خفيفاً،

البريقَ المُخاتِلَ في عَيْنَيْها

وَلَفْحَ شَمْسِ الصَّيْف

وَثَوْبَها الأزْرَقَ الجَديدَ

لَمْ تَلْتَفِتْ.

كأنَّها تَعْرِفُ الدَّرْبَ جَيّداً

لكنَّها نَدمَتْ على بِضْعَة أشياءٍ

لا أعْرِفُها.

رُبَّما هوَ الآنَ يَعرِفُ،

رُبَّما ما عادَت تُبْكيه

بَيْن أصُصِ الحَبَقِ وقَزمِ الصبَّارِ والياسَمين؟

بضعةُ أشياءِ أغرِفُها وحدي

قالَ إنَّه مُتعَبٌ

وإنَّه أضبَحَ في آخِرِ العُمْرِ

فَما جَدوى أنْ يَبتَهِجَ لِشَيء

وقالَ إنَّ ضَوْءَ النَّهارِ يُؤلِمُ عَينَيه

والغُبارَ يُؤذي رِئَتَيه

وَمَكَثَ في غُرفَته

يَجْلِسُ على حَافَّةِ السَّريرِ مُطرِقاً

وَقَدْ أسْنَدَ جِذْعَهُ بِساعِدَيْه،

قالَ إنَّه مُتعَبٌ

ولا يَقوى على السَّيْر في الشَّارِعِ

فالنَّفَسُ يُجْهِدُه

كأنَّه اعْتادَ على ما يُشبهُ الاخْتِناقَ

واكْتفَى مِنَ الهواءِ بالأقلِّ

الَّذي لا يُحْيي الكناريَّ الَّذي أماتَهُ البَرْدُ،

وقال إنَّ الرَّبيعَ

يكادُ أنْ يَقتُلَهُ

والصَّيفَ باذِخُ القَيظ

والشِّتاءَ قارسٌ ومُبتَلٌّ

والخَريفَ فَصلُ النَّواحاتِ

الكئيبُ

ولا يَعرِفُ لماذا لا تُفارِقُ البُرودةُ

أطرافَه

وقَالَ خُذِ الخاتَمَ

لا أملكُ سِواهُ

وَقلَمَ الحِبْرِ

ودَثِّرْني بالغِطاءِ الصّوفِ جيّداً،

وهات وجهَكَ أقبِّلُه

هاتِ يَدَيْكَ

قد لا أراكَ غَداً،

قالَ إنَّه مُتعَب

ولا يَنام

فاللَّيلُ مُوحِشٌ وقَفرٌ ومخيفٌ

دقائقُ أو ساعات قد تكون الأخيرة

فَيَنهَضُ وَيَمشي في الرَّواقِ

يأكُلُ خُبزاً جافّاً

يَشرَبُ جُرْعَةَ ماء

وتُؤنسُهُ جَلبةُ أنفاسِه الثَّقيلةِ

كأنَّ أنفاسه تُحَدِّثُهُ

كأنَّها الأبناءُ والجيرانُ وصُحبَةُ الكأسِ

والنُّزُهات،

وما كان يُصلّي

وقال: أحبَبتُ مَنْ أحبَبتُ

ومن أحَبّني أعطاني مِنَ الغبطَة ما لا أستَحِقُّ،

وَكُنتُ أحيا والموتُ في رِئَتَيَّ ألَماً وَسُعالاً،

وَكُنتُ أحيا بالنَّزْرِ القليلِ

مِنَ الهواءِ والمَلَذّات

سَقيت النَّباتَ المُعَرِّشَ حتى استطالَ إلى

السَّقف

وَوَضَعتُ الكناريَّ في قَفَصٍ

وأطْعَمْتهُ الحَبَّ وَسَقَيْتَهُ الماءَ

وَماتَ على الرُّغمِ منّي

وبَكَيتُهُ أيّاماً ثلاثة

لَمْ أورث أحداً مَشَقَّةَ أنْ يحيا مثلي

وألم الرَّبوِ والكَفاف

جَعَلْتُ لِساعتي وَقتاً مكَثتُ في انْتِظارِه

لَمْ أُخبِرْ أحداً

لكنّي مكثتُ في انْتظارِه

وَقُلْتُ لها حين أقْبَلَت عَلَيَّ

دَعيني أضَعُ رأسي المُتعَبَ على صَدْرِكِ

وَلَمْ أقُل لها إنّني أريد أنْ أبكي

ولكنّي بكَيتُ

بِضْعَةُ أشياء أعْرِفُها وَحدي

جَعَلَتني أبكي

وَلَمْ أكُن خائفاً

وَلَمْ أكُن بائِساً

لكنّي بكَيت.

بضعةُ أشياءِ فقط

مِنديلٌ نَاصعٌ

وحَزفان مُطرَّزانِ

بالأزرَقِ أو

الزَّهريِّ.

حقيبةُ جِلْد

فيها أوراقٌ وأقلامٌ

وَحُبوبُ سُكَّر النَبات

وعُلْبَةُ دواء

وَرَبْطَةُ عُنُقِ

وَصورةُ أشخاصِ قدامى

ليسَ واحداً منهم

مَبْسَمُ سيكارة

منَ العاجِ المَعروقِ

ثُمَّ

مِنَ اللّكِّ الأسود المُوَشَّى

ثُمَّ الإقْلاعُ

عَن التَّدْخينِ وَنَوْبَةُ السُّعالِ

وَخَيْطُ الدَّمِ الأحْمَر على المِنديلِ النَاصع.

ماءُ الكولونيا

مزيجٌ من رائِحَةِ التَّبْغِ

والصّابونِ

والعَرَقِ المُنَدّي فَوْقَ الجَبين.

كُرْسِيُّ الخَيْزرانِ

مُستَقيمُ الظَّهرِ

قُرْبَ الياسَمينةِ على الشُّرفَةِ

أو بجِوارِ البابِ في الصّالَةِ

على مَبعِدَة

من الجالسين كُثراً وغُيباً.

القفَص والكناري

ثُمَّ

القَفَص بلا كناري.

حَبَّةُ الملَبَّس باللَّوزِ

مِنْ جَيب مَنامَتِه

لابْنتي.

كُوبُ الحليبِ

بماء الزَّهرِ

والسُّكَّر

الكأسُ مُترَعَةٌ.

القُبَّعَةُ.

المِعْطَفُ الأسودُ الطَّويل.

اليدُ الرَّقيقة.

الحاجِبان.

العَيْنُ ضاحِكَةَ.

العَيْنُ دامعة.

ساعةُ اليَد من ذَهَبٍ مُعَطَّل.

دَوْرَقُ الزَّيْت.

الصَّليب المُدلَى

بِسِلْسِلَةٍ على الصَّدرِ.

الصَورة ذاتُ الإطارِ

على الحائِطِ

وابْتِسامَة ـ للمُصَوِّرِ ـ

مُحَايدة.

زِرٌّ قُدامى المُحاربين

ومفاتيح

لأدراج وأبواب وخَزَائِن

مُطْبَقَة إلى الأبد.

نَعْش وحيد.

زنابقُ كثيرة.

المنام

بِجانبي مِصْباحٌ
وَزَيْتُهُ
لَيسَ ذاكَ المبَارك
لِشفاءِ العُميانِ
بَلِ المُحرَّقُ
بضَوءِ شُعْلة
للسَّاهرينَ
على شُحوبِ ميت.
لَيسوا نياماً،
أقْصدُ
العجوزَ الَّتي أسنَدتَ رأسَها
إلى الحائِطِ
في إغْماضَةِ وَهنٍ
ودَزفَةَ البابِ الَّتي
رُدَّت مواربةً
لكي يسيلَ
ضَوءٌ مُريبٌ
على البلاط.
الخزانةُ الصَّامتة.
الكَنَبَةُ العَمياء.
والمِشْجَبُ الَّذي ارْتدى
سُترَةً واحدةً

وقبّعةٌ واحدةٌ

وأخيلةٌ كثيرة.

أكانَ في وَهْمنا فَقَطْ

أنَّ الأخْتَ مَنَامٌ أبيضُ

لطفلة تَرَيَّثت في نَوْمِها

أو

ضَلَّت طريقاً إلينا

فآوتْها الشَّجَرَةُ المُسْتَوحِدَةُ

في ظِلِّها

وأحَبَّها الظِّلُّ

وأحَبَّتْهُ

وصارَ شَقيقاً لها

وآوَتْهُ الشَّجَرَةُ وصارَتْ

ظلّاً لهما

معاً.

أكان في وَهْمِنا فَقَطْ

أنَّ الظِّلال وَحْدَها

هي الَّتي وَفَدَتْ إلَيْنا

مِنَ الكوى والأبواب

وَجَلَسَت بَيْنَنا

وكَسَرَتْ قُرْباناً كثيراً

وأطْعَمَتْنا

خُبزَها السُكَّرِيَّ

وحادَثَتنا بِصَمتِها

وأبصَرَتْ خَوفَنا

كما يُبصِرُ الأعمى

ظَلاماً لَيسَ الظَّلامُ

الَّذي يُبصَرُ

لكنَّ الظَّلامَ الَّذي في القَلب.

أكان في وَهمِنا فَقَط

حينَ جاءَ الجَمعُ

وأقامَ بَينَنا في الغُرَفِ

والمَمَرَات

فيما الأخَواتُ يُلَمِّعنَ صَمتَ

الأواني

قَبلَ أنْ يُغادِرَ الجَمعُ

ويُغلَقَ البابُ

على الأبوابِ المُغلَقَةِ

لِحُجُراتِ

وَحدها تُجاورُ الحُجُرات.

أكان في وهمنا فَقَط

أنَّ الشَّمعَةَ كانتْ تَنزُّ ضَوءاً

تالفاً

وظِلال الأيدي

تُثَرْثِرُ على الجُدران،

وأنَّ الجَسَدَ المُسَجّى

لَيسَ أُختاً

لأنَّ الأُختَ مَنامٌ أبيَض

لرجل

تريث في نومه

أو

ضَلَّ طريقاً إلَيها

فآوَتهُ الشَّجَرَةُ المُستَوْحِدَةُ

في ظِلِّها.

فِكْرَتَان

فكرة الحائط

بجانب هذا الحَائط

نَقِفُ

ظِلَّي المائِلُ وأنا

نَبتَرِدُ

بالهَواء الخَفيضِ المُشبَعِ

بغُبارِ الرَّمْلِ

وروائِحِ النفيّات

واليانسون.

بجَانِب هذا الحائِطِ

رَسَم أحَدُنا خَطّاً

وجاوَزَ الخَطَّ

إلى الجَانِبِ الآخَرِ

لَمْ يكُنْ إلّا الجِدارُ

مائِلاً كأنَّهُ يَوَدُّ أنْ يَنهَدِم على الدَّوام

ولا باب فيه

ولا أحَدَ يَعْلَمُ إذا كانَ البابُ فيه

وإلى أيْنَ يُفضي

وإذا كانَتِ الأبوابُ تُفْضي لَو كانت في الجِدار.

وكان واحدنا يَمكُثُ بِصُحبَة الآخَر،

لا يُغادِرُهُ

بِجَانب الجِدار الَّذي

ـ بلا رَيْب ـ

شيَّدَهُ بنّاؤنَ قَبْلَ ذَلِكَ بأعوامٍ

رَسَموا خَطّاً

ورَصَفوا الأحْجارَ على سَوِيَّتِه

وعَلَّوا البِناءَ حَجَراً وعَرَقاً وحداءً

لكي لا يُجاوِزَ أحَدُهُم عَتَبَةَ البابِ

الَّذي، في غَفْلة مِنْهم

ما كانَ في الجِدارِ

ولكنْ في رجَاءِ عيونِهم.

بجانب هذا الحائط

نَقِفُ

ظِلّي المائِلُ وأنا

نَغْتَبِطُ

لِفكرة البابِ الَّذي لَيسَ في الجِدارِ

وَللجِدار الَّذي لَيسَ في فِكْرتِنا

لكنَّه الماثِلُ في عَيْنَي واحدنا.

كُنّا نَقِفُ

ظِلّي المائِلُ وأنا

وَلَسْتُ أدري الآنَ

مَنْ مِنّا رَسَمَ الخَطَّ

وجاوزهُ.

فكرةُ الغِياب

حَسَناً

حَمَلَكَ المَوْكبُ

وفتيانُ الكَوْرَس

ومَجامر البخور الفاضِحِ

إلى حَيثُ تَشاء

فَلا يَراك مَنْ أحبَبْتَ.

هُزالُكَ وَلَوْنُكَ المُترّبُ

وَيَداكَ اللّتان يَبسَتا بَيْنَ راحَتَيَّ

أو على جَبيني

حسناً،

لَسْتَ هُنا الآنَ

وأرى غيابَكَ كأوْضَح ما تَراهُ

العَيْنُ.

الأدراجُ أُفْرِغَتْ

ودُرَفُ الخزانة وَهَبَتْ ثيابَك

لِعابِري سَبيل.

لَسْتُ هنا،

وأُدركُ غيابَك باليقين الّذي

جَعَلَ سَريرِكَ مُطْمَئِناً

لمغدنه العاري،

وصورتَكَ لبُرْوازها المُذَهَّب فَوْقَ

الجدار،

وأدْركُ أنَّكَ لَسْتَ أنْتَ

مَنْ يُنادي عَلَيِّ الآنَ،

وَلَيسَ خَطْوُكَ في الرُّواقِ

وَلَيسَ حُزْنكَ ما يُبكيني

وأَعْلَمُ أنَّ الأُمورَ على ما يُرام

والأبناءَ يُواصِلونَ نغمةَ الأبناء

وما عَادَت الأفْكارُ

سوداً كالسَّواد الَّذي تَعْرِفُهُ

وأصْبَحَ واحِدُنا يَجرؤ على النَّوْمِ أحْياناً

وَيَجْرؤ دَوْماً على النُّهوضِ

ولا يَخافُ أنْ يُصادِفَ ظِلَّك

على الرَّصيفِ المُقابِلِ

أوْ على الشُّرْفَة

أو خَلْفَ النّافِذَةِ

حَسَناً

حَمَلَكَ هَؤلاء وَنَحنُ مَعَهُم

إلى حَيثُ تَشاءُ

فَلا يَراكَ مَنْ أحبَبْتَ

وأرى الآنَ غيابَكَ كأوضَح

ما تراهُ العينُ

ولكنْ ماذا أصْنَعُ

بِكُلِّ الأشياء الَّتي غَادَرْتَها

ماذا أصْنَعُ بعينيَّ؟

نهارات

لِفَرْط ما أحذِفُ النَّهاراتِ لَمْ يبقَ مِنّي إلّا كائنُ الأزَق، شبيهي، الّذي يَحسَبُ أنَّ الوَقتَ يَمضي إذا مَشَيتَهُ مِراراً مِنَ البابِ إلى النّافذة، من النّافِذَةِ إلى النّافِذَةِ، ولا أُدرِكُ جَدواه. لِفَرْط ما أحاوِلُ نِسيانَ الوقتِ أقَعُ في خَطَأ الانْتِظارِ وأعْلَمُ أنَّ مَنْ هو مِثلي لا يَنتَظرُ شَيئاً ولا يَرْغَبُ في شَيء، لأنَّ الأشياء قاطبَةً تُقيمُ في نَهارات أحذِفُها لكَي لا يبقى مِنّي إلّا زَميمُ الأزَقِ، شبيهي، الّذي ما عَرَفْتُ سواه.

هذا نهارٌ.

وتلكَ مَشاغلُهُ.

أدَعُهُ لابنَتي لكي تَفرحَ به. لجاري الَّذي يُشغلُهُ بِضِحكَته الصّباحيّة وبمئَة وعشرينَ كيلوغراماً من الرّضا والعافيَة والسَّعادة الغامرَة، وبمئةِ وتسعينَ سنتيمتراً مِنَ التّفاؤلِ والإدراكِ والتَّعقُّل.

هذا نهارٌ،

قالَ اللهُ.

وبَعد؟

- ٢ -

مُياومونَ

يَحتَشدونَ تَحتَ شَمسه الواضحَة.

عُمّالُ مرافئَ وأُجَراءُ

عاشِقونَ وقُساةٌ وثُغساءُ.

عَجَائزُ وفتيان. أحياءُ وأحياء. وأحياء.

كُثُرٌ وصَاخِبونَ.

هذا نهارٌ آخَرُ،

قال الله.

وبَعْدُ؟

قُلْتُ لابنتي: لا تَرْفَعي السِّتارَ

لا تَفتَحي الباب.

لا تُعَلِّقي هذه الشَّمسَ الغَبيَّةَ على باب غُرفَتِكِ، فالشَّمسُ

الَّتي تُعَلِّقينَها

على البابِ أو عِنْدَ زاوِيَةِ المكْتَبَةِ

أرَقُّ من تلْكَ التي سَتُضيءُ

نَهاري، نَهارَكِ،

نهارَ الباعَةِ والمُوَظَّفينَ،

نَهارَ العَرَقِ والرَّوائِحِ والاخْتناقِ

والسّعي والصُّداعِ والمُحادَثَةِ.

قُلْتُ لابنتي: لا تَرْفعي السِّتارَ.

لقد مُتُّ في ساعاتِ اللَّيلِ

الأخيرة،

ولَنْ أستفيقَ.

مُتُّ ضَجَراً

ومُتُّ حُزْناً

ومُتُّ سَهْواً

ومُتُّ مَوْتاً.

لا تَرْفَعي السِّتارَ أو تَفْتحي البابَ

أو تُعَلّقي ما يُشبِهُ الضَّوْءَ في أرجاء الغابَة.

فَهذا نَهارٌ آخَرُ،

أغلَمُ،

وآخَرُ أيضاً،

أغلَمُ،

وماذا بَعْدُ؟

حينَ تكونُ السماءُ لَيلاً

حينَ يكونُ اللّيلُ سماء

خذني الآنَ

إذا كُنْتَ لا تَأْنَفُ الرُّكامْ

ولا تُمهِلْني عاماً آخرَ.

ها أَنَذَا

خفْتَةُ زماد بارد

نَثرَةُ ضوء

عَلِقَتْ في شِقِّ الجِدارِ

وَجَمَدَتْ هُناكَ

كالكُسورِ المُبَعثَرةِ لِزُجاجٍ مُحَطَّم.

بَلى.

خُذْني الآنَ

فما يُجديني عامٌ آخَر

أوْ ثَلاثة

لم يَبْقَ شَيءٌ

إلَّا وهبتُ زُفاته

لِظِلِّ سَرْوَةٍ

لِظِلِّ جِدارٍ

أو ضَريح.

ها أَنَذَا

خفْتَةٌ مِن التَّعب والهُزال

قَصَبَةٌ يَبِسَتْ بقُرْبِ جدْوَلٍ

ناضبٍ

وذُخانٌ

وسَرابٌ

تُبَدِّدُه النَّجَواتُ إلى

استراحاتٍ بعيدة.

يَدي تلكَ

مَلْمَسُ الرُّخامِ الَّذي هو البياضُ

المَيْتُ

أو

صَفْوَةُ السَّواد إذا

أغتَمَت العيونُ

وَنَوَّرَت الغِربانُ

صباحاتِ هذا العَياء.

وَرَأسي،

وَعَيْنايَ،

وَفَمي،

وَقَلْبي ذاكَ

إلى أين أفْضى

عُلْبَةٌ في

جَوْف عُلْبَةٍ

في جَوْفِ

عُلْبَة...

بَلى

خُذْني الآنَ

وإلّا أفْسَدَ هَواءُ الصَّفْصافِ

رُوحي

والأسقاطُ جَميعُها كَمِثْلِ

رُوحي

عَتَّقَها الغُبارُ وَصَمْتُ الغُبارِ

في أقْبية

هذه المَشَقّات.

ولا تُمْهِلْني عاماً آخرَ

ضَجِرَتْ مِنّي الكراسي والأوْراقُ

والنَّوافذُ،

ضَجِرَتْ منّي الأفكارُ التي أخافَتْني

وضَجِرَ منّي خَوْفي،

وأسْلَمَتْني الدُّروب إلى الدُّروبِ

وأسلَمَتْني الأبوابُ إلى الأبوابِ

وما ظَلَّلَتْني البُيوتُ

وما آوَتْني الظِّلالُ

وَكُلُّ مائدَةٍ بلا مِلْحٍ

كانَتْ.

ولي في الأرْجاءِ خُطُواتٌ

ضالّةٌ

يَجْمَعُها الصّدى في المكانِ

البَعيد

ولي أضداءُ أعارَتني خُفَّيها

وسِرْتُ بها

وما أيقَظْتُ السِّرَّ

في قَلْب السَّماء الَّتي هي اللَّيلُ

وفي قَلْبِ اللَّيلِ الَّذي هو

السَّماء.

خُذْني الآنَ

لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ

أصابعي تِلْكَ،

لَمَساتٌ مُسنَّاتٌ،

أيَبَست الشَّفَةَ الُمبَلَّلةَ بِقُبْلةٍ

نَاصِعَةٍ،

بضحكة ناصعة

وبَوْحٍ أعمقَ منْ أسرارِ

روحي.

وعيناي،

محاجرُ لزُجاجٍ مُطْفأ

كالنَّوافذ في أسوار الحُصونِ،

وعينايَ

عمياوان لا تُبْصِرانِ

وإنْ أبْصرتَا

صارَ النَّباتُ مِلْحاً

أو صارَ كُلُّ رَقْرَاقٍ

جَماداً

ولا تُمْهِلُني عاماً آخَرَ

أفْنَيثه في الانْتظارِ

قَبْلَ أنْ يأتي

وصَارَ ماضيَّ

كاليومِ الشَاغر الَّذي

يَدْفَعُ اليَوْمَ الشَاغرَ إلى

عَتَبَة

أجهل ما الذي يقيم وراءها

بلى.

أحَبَّني الملاكُ وأحْبَبْتُه

وكُلَّما أحْبَبْتُه

لَمْ أعْثُرْ في حُطامي على اليَدِ

التي كانَتْ تَدُلُّ،

على الأنفاسِ الَّتي كانت

تُحيي

فما الَّذي يُحيي الحُطام؟

وأحْبَبْتُ الوردةَ ولشدَّةِ

ما أحْبَبْتُ

جَفَّتِ البَتَلاتُ

وما عَلِمْتُ قبل الآن أنَّ

يَدي البلا مَلْمَسٍ

هي يَدُ الميت الذي كنتُهُ

وقلبي قِربةٌ من البكاء،

وجسمي فَزّاعةُ طَيْرٍ

نُصبَتْ في بَرِّيَّةٍ موحشةٍ

حَيثُ لا تَنضَجُ ثمار.

خُذْني الآنَ،

إذا كُنْتَ لا تأنَفُ الحُطام

اجمَعْ ما استَطَعْتَ مِنْهُ

ما عادَ يُجْديني،

اجمَعْ ما تَبقّى:

صورةٌ لي مُمَزَّقَةٌ بين أرضِيَّة

البَلاطِ

وسَلَة المُهمَلاتِ،

حَفنَةُ تَعَب وهُزال

وَرَعْشَةٌ في اليَدَين،

ضَجَرٌ واشتهاءٌ عاجزٌ

وَقَسوَةُ أنْ أريدَ ما أحبُّ

وأن أفقد ما أحبُّ

وأنْ أجْعَلَ البَقاء

تَمارينَ عادَةٍ

ـ كالعيشِ

أو التَّدخين ـ

وأودُّ الشِّفاءَ مِنْها ـ

ولا شِفاء.

خُذْني الآنَ،

بلا ألَم

بلا حَيْرَة

أغْلَقتُ المَناوِرَ والكُوى

وأشعَلْتُ ناراً

في حَطَبِ الانتظار،

فَلَيسَ مُخزِناً

أو كئيباً

أو مؤلماً

أنْ تَقْطَعَ الأرومَةَ المُهمَلَةَ

في وَغرٍ مُهمَلٍ

وأن تُطفئَ

الهَواءَ

والفراشَةَ

وَشَبَحَ الضَّوْءِ

والنَّافذَةَ

والبَصَرَ

والشَّمَّ

واللَّمْسَ

والإصْغاء.

اجْمَعْ ما اسْتَطَعْتَ منّي،

ما تَبقّى:

العَيْنُ الّتي تُبْصِرُ،

اليَدُ التي أيْبَسَتْ الوَرْدَةَ ويَبِسَتْ

حُزْناً عليها،

والفَمُ الّذي ما أعانَه النُّطْقُ

يَوْماً

وما أعانَه الصَّمت.

بلى.

هي البئْرُ العميقةُ

وأحْبَبْتُ أنْ أسْقُطَ فيها،

وهي السَّماءُ حين تكونُ ليلاً

وهي اللَّيْلُ حين يكونُ سماءً

ولا أدْري،

بين العَتمتَيْنِ كَيْفَ أقَمْتُ

أربعينَ عاماً

وما انْتَبَهْتُ

وما أيْقَظَني أحَدٌ

إلّا المَلاك.

خُذْني الآنَ،

فما يُجْديني عامٌ آخرُ

أو عامان

أو ثلاثة

لَمْ يَبقَ شيءٌ

إلّا وَهَبْتُ رُفاته

لظلٍّ سَرْوَةٍ

لفَيْءِ

جدارٍ

أو ضريح.

أهُو الضَّريحُ حقّاً أم إنَّ

ذاكَ طيفيَ الحَجَرِي.

وما كُنْتُ أراه

وما كُنْتُ أعْلَمَ.

كتاب الرمل

١٩٩٩

إلى نجلا

(...) قال لي: إنَّ كتابه يُسَّمى كتاب الرَّمل

لأنهما الكتاب والرَّملُ، لا بَدْوَ لهما ولا ختام.

خ.ل. بورخيس

ر.م.ل

(...) نوعٌ معروفٌ من التراب وجمعُه الرِّمال والقطعة منها رَملة؛ ويقول ابن سيده: واحدته رَمْلة، وبه سمِّيت المرأة. (...) ورمل الثوب ونحوه:

لطَّخه بالدم. (...) ورمل النسيج يرملهُ رملاً:

رقَّقه. (...) والرَّواملُ: نواسج الحصير، الواحدة راملة.

(...) وأنشد أبو عبيدة: كأنَّ نسجَ العنكبوت المرمَلُ.

(...) وقال ابن سيده: الرَّمل من الشِّعر كلُّ شِعرٍ مهزول غير مؤتَلِفِ البناء.

(...) والأرامل المساكين. (...) والرَّملُ من المطرِ القليل.

ابن منظور: لسان العرب

انتحال

لم يكن صاحبي. ولم أعرفه من قبل وما أحببته. بلغني أنَّه مات منذ أعوام وأنه دُفن عارياً في أرضٍ غريبة، لذا لم يعثر أحدٌ على أوراقه.

غير أنَّ رواةً قالوا إنَّه الأعمى، مؤلِّف «كتاب الرَّمل».

وخُفظ التحقيق.

أحدٌ هو ولا أحد

واضع الكتاب الذي لم يوجد، وارتبط اسمُه به.

جثَّة مثالية. ذريعة أن تكون عَدَماً محضاً.

لم أنتحل منه سوى هذه الصفة.

وكتابه.

كان يقول: لو بقي منه سَطرٌ.

وانتحلتُ قوله.

لم يترك أثراً أو ميراثاً. لم يترك متاعاً.

ولم نعثر على رسمٍ له ولم يُذكر في المعاجمِ ولم تأتِ المصنَّفات على ذكر مؤلَّف له.

فأيقنَّا أنَّه لم يَكُنْ. وآثرنا الانتظار.

ولم نكُن، نحن أيضاً، سوى انتظاره.

ثمَّ جاءنا عابرو سبيل برزمةِ أوراقٍ وقالوا: تلك تَرْكَتُه.

قرأنا وأدركنا أنَّ القراءة شغفٌ، أو أنَّها مشقَّة، لكنَّها في الحالين سَرَابُ مسرَّات.

وكان علينا أن نرتِّب تركة الرجل بحسب الموضوعات وتواريخ الكتابة، والأصناف والأنواع، وعلى أساس الترتيب الأبجدي بالعربيَّة.

ولم نوفَّق في سعينا هذا، ولذا، وهذا اعتذار أيضاً، حقَّقنا منها طبعةً غير أصليَّة، وزّعت أغراضَ نصوصها في أبوابٍ ثلاثة يتواتر ترددها بغير انتظام، وهي: عبارة؛ ورقة؛ كتاب؛

غير أنّا احتفظنا بما ظننَّا أنه العنوان: «كتاب الرَّمل». وذيَّلنا الكلَّ بتوقيعنا، فصار كتابنا يُسمَّى « كتاب الرَّمل».

ورقة

فجأة انتبهتَ، كأنك تراها للمرة الأولى، انتبهت إلى الصورة، هناك معلقة على الجدار، مستوحدة قديمة.

لا أحد هنا قد يلمح ارتعاش يديك. خفقان قلبك. جسمك الهارب منك. لا أحد على الإطلاق.

كنت نسيت، أو سهوت أعواماً والصورة هناك معلقة على الجدار وما انتبهت.

منذ بعض الوقت لم تَنَمْ جيِّداً. ولا بأس، عالج نومك بالحبوب المنومة والعقاقير.

منذ بعض الوقت لم ترَ. لا بأس أغمض عينيك.

منذ بعض الوقت لم ترَ الشارع. لا بأس، لديك النافذة والتلفزيون والتلفون والصحيفة.

منذ بعض الوقت لم تعش. حسناً، أنت لا أحد.

قال صاحبي: هكذا كان ينبغي أن لا أكون أحداً، لكي أبقى. أقصد لا أحد من الناس أو الحيوان أو النبات أو الجماد، لا أحد وحسب.

وعشت أعوامي على هذه الحال، إن سِرتُ لم أرَ ظلّاً يتبعني، وإن أقمت في المكان بقي فارغاً، على حاله، إلّا من نظراتي وأنفاسي.

وذات يوم قلت: أكتب حكايتي وإنْ قرأ حكايتي أحد وهبني أن أكون أحداً ولو في الخيال.

فكتبت: «كان أو ما كان رجل في الأربعين له بيت

وأسرة وأصحاب وعمل وأوقات راحة، وكان يظن أنه أحد أولئك الناس الذين يسعون في الشارع ويعملون في الشركات ويزدحمون في مقاهي الأرصفة ودور السينما والعبادة والمواصلات، وكان سعيداً ينجب الأولاد ويوزِّع بعضاً من سعادته على من حوله من الجيران والجيران الأبعد وأهل الناحية. كان يضحك دائماً، ولا يبكي إلّا في المناسبات الأليمة؛ كان رصيناً يحبّ البشر ولا سبب لديه ليحسب أن البشر يبغضونه. كان سعيداً إذاً، كما أسلفت في مطلع الحكاية...

ذات صباح، استيقظ الأربعيني ولم يجد نفسه أحداً. قال الطبيب إنه ربما حلم حلماً وأفاق منه مذعوراً فطارت «أناه» أو ربما لم يكن أحداً من قبل، ومرَّ في حلم زوجته فأفاق وقد صار أحداً، وإذ ذاك يكون الآن أحداً بعد أن كان لا أحد، فأشكل عليه الأمر.

لكن الرجل لم يحلم حلماً.

قال الكاهنُ: إنه الشيطان يوسوس.

قال الصديق: أزمة عابرة.

قالت الوالدة: جُنَّ جنونه.

غير أن الرجل لا يعرف هذا كله، يقف قبالة المرآة، يرى أحداً يعرفه ولا يذكر متى أو أين. يرى الوجوه الأخرى يعرفها. ويعرف صورة الرئيس، ويعرف إشارات السير، والنادل في المقهى، ورب العمل والزملاء والأقارب... وحتى الأعداء.

قال الطبيب: فقدان انتقائي للذاكرة.

قال الكاهن: عَتَه الكافرين.

قال الصديق: سينتحر.

قالت الوالدة: أعيدوه إليّ!

ذات يوم لم يعد يراه أحد. وذات يوم نسيّه الجميع. وذات يوم صار لا أحد.

(الخاتمة)

لم يقرأ الحكاية أحد.

نهضت ذات يوم وصنعت قهوة لنفسي فلا أحد يصنعها لي لأنني أحيا وحدي.

وضعت الصينية والركوة والفنجان على الطاولة حيث أجلس عادة، قبالة النافذة، ولهولِ المفاجأة وجدت ورقة بيضاء مسطّرة من الحجم العادي. أعلاها كُتِبَ بخطّ واضح وعريض: «أقوال لا أحد». يليه سطور مسوَّدة بخط هستيري لم أقرأ كلمة منها. وكان التوقيع: بسام حجار.

كنتُ دلقتُ بعض القهوة على غطاء الطاولة الأبيض فأمسكت بالورقة وجعلكتها جيداً ومسحت الغطاء ورميتها من النافذة.

جلستُ أرتشف قهوتي. أشعلت سيكارة: إنه صباح معتاد، كأنه صباح أمس.

عبارة

لستُ راويةً أحداً. لكنِّي بَدَدٌ مكتوب. كنتُ جَمَعْتُ غباري، ذرَّةً تلو ذرَّةٍ لو أنَّ ساعة الرمل لم تجعلني خيطاً من هباء هو انسرابُ الرملِ؛

ومن هباءٍ آخر هو انسراب الوقت.

كتاب

البيانِ الأعجميَ

[«(...) أفيكون دليل أوضحَ من هذا وأبين وأجلى في صحّة ما ذكرتُ لك من أنّك قد ترى ترْك الذِّكر أفصح من الذِّكر، والامتناع من أن يبرز اللفظُ من الضمير أحسن للتصوير»]

(عبد القاهر الجرجاني: «دلائل الإعجاز»)

في كافية ابن الفارض الموسومة «لك الأمر»، مزاجٌ، على ما درج عليه المتصوّفة والعشّاق، من الرؤية في المنام (الرؤيا إذا) والوهم والوحي:

فعسى في المنام يعرض لي الوَه

مُ، فيوحي، سرّاً، إليّ سُراكا

ويُشفَع هذا التمني بطلب الرؤية كناية واستبدالاً، فالمستحيل يُستبدل بالممكن عوضاً، كما يُستبدل اليقين بالظن، والعيان بالتوهم:

أبقِ لي مُقلةً لعلّي يوماً قبل موتي،

أرى بها من رآكا

فليس المبتغي من سؤاله بقاءَ العين أن ترى العين مبتغاها، بل أن تتوهم المبتغى في عين مَن رأى؛ فالعيان هنا لَمحٌ، والرؤية رؤيا، والإفشاء حذف وكناية؛ والخبر خلُوٌ من الصراحة، والمتن تعريض يفسد الإسناد وصريحَ النسب.

هذا دأب ابن الفارض؛ وعلى منواله، إذ تتالى القول، داجى البيانَ شوبٌ وخلاَءٌ وصار الإنشاءُ سعياً وراء إلماح لا يفي الأغراض بل يشير إليها، وصار القول عياءً.

إن سمَّيتَ الشيء ملكته وإن ملكته كفَّ السعي وراءه، وحلَّ في صورة ومقدار وهيئة؛ وصار ماثلاً لعيان يُبطل الخبر؛ يبطل الرواية؛ فالماثل أمام ناظريك، كمثل العلامة هداية التيه ومُعتَلم المضلّة والهيام. إنه القرب الذي يلغي الحكاية، لأن الحكاية تأتي، دوماً، من بعيد.

لا يقيم التوهمُ العيانَ إلَّا على نقصان أو زيادة. فهو تأوَّل وغلط. ولا يُبنى قوله إلَّا على حذف وكناية. ولعل الشكل دليل على ذلك، لأن الشكل نحت الهواء لا بل نحت الفضاء. العيان هو الكتلة، والتوهم هو الحتّ والحفر والصقل؛ العيان نثار والتوهم جمع النثار بعضاً إلى بعض. نقصان وزيادة، حذف واستعارة مرسلة. ذكرٌ وتركُ الذكر.

ترجُحٌ بين الإعراب والإلماح. بين البيان والإغفال.

في رواية لم نعثر على نسبها الصريح، أن الوهم هو اللمح. وأن اختلاط الثاني يجعل الأوَّل ملكة تامة للإدراك. وفي رواية أخرى أن الخبر، في الأغلب، يسبق الرؤية، وأنه يُنشئُ مُسكتها في السياق. وفي أخرى، أن الخبر هو الأصل لا العيان. ومهما يكن من أمر ما كان (سواء كان أم ما كان) فإن اليقين فيه إنما هو بهتان يؤكد البهتان الذي سبقه. إن اليقين فيه صدق يكذب

بصدق، أو كذب يصدق كذباً.

وذلك دأب اللغة. فقد روي أن سائلاً سأل أبا عمرو بن العلاء عن ما لو سُمع من العرب شيء مخالف لعلمه، فقال له: «أسمِّي ما وافقني قياساً وما خالفني لغات» (أثبتها الشيخ عبد الله العلايلي في «مقدمته»). اللغة؛ إن لم تكن قياساً فهي لغات. وتُدرَج المفردة الواحدة في خانة «أسماء الأضداد». وإذا كانت المفردة تقول ضدها أحياناً فهي تكذب بصدق؛ وإذا كان ضدها ينطق بمعناها فهو يصدق كاذباً.

هذه لغات. فما شأن ابن الفارض والمجنون والجرجاني؟

لأنهم مخلوقات لغوية. مخلوقات اشتقاق. أو شُقاق. لا أحد يدري. وسواهم أيضاً.

أما جمع الشُقاق (الاشتقاق؟!) فقد صار متناً (مدوَّنة) للغات واسمه «المعجم». وتقول: «هذا رجل أعجمي إذا كان لا يُفصح» (الفرَّاء)؛ إذ يقول أبو عمرو الشيباني: «أعجمتُ أبهمتُ»؛ وأعجمَ الكتاب: «نقَطَهُ» وقد سُمِّي معجماً لأن «شكول النَّقط فيها عجمة لا بيان لها كالحروف المعجمة لا بيان لها، وإن كانت أصولاً للكلام كله، وما كنا نتعاجم أي ما كنا نكنِّي ونوَرِّي» (لسان العرب).

المعجم بوساطة النَّقط يكنِّى ويورِّى. أي إنه يجتنب «الصريح» مثبتاً تأوله، ويجعل اللغة حين يسميها (لغة) لغات هي هجنة الشقاق الكثير عدداً.

يحذف المعجم حين يضيف. فإذا حذف الحذْفَ أضاف. ليس فصيحاً لأنه «يُعجِمُ» المفردات، ولَيْسَ أصوليّاً لأنه يفرد للشقاق (للاشتقاق؟) متناً لاختلاف لا لاتّساق. ويُفرد للرواية قولاً ينحَي اليقين كما تنحَي الجماعةُ من اتُّهم (أي من ظُنَّ به التوهُّم، أي الغلط).

أعجم المجنون وابن الفارض وسواهما الشعر؛ وأعجم أبو حيان التوحيدي والإبشيهي والحريري الحكاية؛ وأعجم الأصبهاني الخبر. وأعجم ابن منظور والفيروز أبادي اللغة (لغة). وأعجم التوهمُ اليقينَ والتلميحُ التصريحَ والتعريضُ والكنايةُ الوصفَ، والاستعارة التمثيل.

وأعجمنا بلغتين أو ثلاث أو أربع. وأعجمت لغتنا، وهي لغات، وأدركنا، في لبِّ إدراكاتنا، أن توسُّلَ الشقاق لبُّ ادراكاتنا، أن توسل الشقاق هو توسل الفروق والإعجام بيانها. في رواية لم يُعثر على أصول أسنادها، أن الروايات لا سند لها.

كالخِفَّةِ التي هي توْهٌ وتيه. كالخبر يُنشئُ لنا بيتاً من لغات.

عبارة

إن كنت حجراً اعتلمتَ الرَّمل. إن كنت رملاً مَحَوت الحجر. علامةٌ وأثر. أثرٌ من دون علامة. إذاً أنتَ مَنْ تكون؟ لا أحد. على الإطلاق. لا أحد.

كتاب

خرافة

«(...) وفي الحديثِ: إن فيكم مغرِّبين؛
قيلَ وما مغرِّبون؟
قال: الذين يشترك فيهم الجنّ»

(لسان العرب: مادة غرب)

بين الغريب والخرافة أكثر من صلة قرابة. وقد تكون هذه الصلة، في مضمر مدركاتنا نسباً واحداً. فقبل أن يصبح الغريب مفهوماً وصورة استيهام ونعتاً وحالاً، كان في ميراثنا المجرَّد. في لغتنا. وأقام فيها (لا يزال) واشتقَّت له (ومنه) الأسماء والمعاني.

بين الغريب و«خرافة» إذاً نسب واحد. ثبَّته الرواة بالعيان والخبر وهما مصدر المعرفة، معرفتنا. وليس خطأ، نقول على سبيل الاستدراك، طباعيّاً أو نسخيّاً، حذف ال التعريف من الخرافة، لأنها كانت في الأصل نكرة، وهذه النكرة كما لا يخفى الأمرُ مشفوعاً بحسباني، هي في الأصل اسم علم نُحّي من قومه لاختلاط في عقله. «وقالوا: حديث خرافة؛ ذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة أن خرافة من بني عذرة (مجنون ليلى؟) أو من جهينة، اختطفته الجنّ ثم رجع إلى قومه فكان يحدِّث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فكذَّبوه فجرى على ألسن الناس» (لسان العرب). وفي رواية

أخرى: «إنه رجل من بني عذرة «استهوته» الجن على زعم العرب، ثم لما رجع أخبر بما رأى منهم، فكذبوه حتى قالوا لما لا يمكن؛حديث خرافة». (عبد الفتاح كيليطو: «الغائب»). وكل استهواء ينطوي على «كيد الجن والشياطين» و«اشتراك يذهب السوية والعقل». وللاستهواء مرادف هو الخلابة (خلب اللُّبَ) وهي الخداع بالقول اللطيف، أو هي الفتنة، ما يخلب اللبَ ويصرفه عن مقاصده الشريفة.

إذا حكى «خرافة» كان مغرّباً في منطقه «ولم يُبقِ شيئاً إلَّا تكلم به. وكانت صفة كلامه التغريب، ونوعه الغريب أي الغامض من الكلام. والتغريب هو النفي عن البلد. والتنحّي عن الناس، ويغرب إذا بَعُدَ. وإذا جاء بخبرٍ فمن «مغرِّبة خبر». أي من البُعد الذي يقصر عنه العيان وهو الأصل في عنصرين تتأتى عنهما المعرفة.

لذا لا يعقل أن يحدثنا «خرافة» بما يثبت اليقين والإدراك والسوية لأنه مصدر الشوبِ في هذه كلها، ثم إنه اسمُ عَلَمٍ ونكرة في وقت معاً. أي إنه النسب والهجنة. أي الانتماء والتخلّي. وقول خرافة هو قول وليس «القول» لأنه الحديث، كما تُعرَّف الخرافة، «المستملحُ من الكذب». لأنه كذلك قد يكون إغراباً، أي قهقهة، فإذا أغرب الرجل «اشتدَّ ضحكُه ولجَّ فيه» لأن الرجل، بحسب أبي حنيفة، «إذا استغرب ضحكاً في الصلاة، أعاد الصلاة». ويزيد عليه «إعادة الوضوء». فهذا دنس واختلاط كالخَرَفِ يُفسد العمل، ولو فرضاً،

ويُفسد النية.

لا وصف يشبه «خرافة» كمثل وصف الغريب؛ سوى أن الأخير معرفة بمثابة نكرة. وقد تكون عبارتُه نَعْتَ الإنكار الأمثل. يقول الشريشي في «شرح مقامات الحريري»: ما ينسب الغريب إلى «خرافة»، وإن كان ذلك على سبيل الاشتقاق، يقول إذاً: «سُمِّيَ الغريب ابن السبيل لأنه إذا ظهر على قوم لا يعرفونه لم يُعرف له نَسَبٌ إلَّا السبيل الذي جلبه». (كيليطو:«الغائب»)، وفي الحديث كما أسلفنا: المغرِّبون هم «الذين يشترك فيهم الجن». هناك السبيل (الطريق) إذاً، وهناك الجن.

وبين الطريق والجن في المتخيل العربي اشتراك متمادٍ منذ الأزمنة الأولى إلى اليوم، كاشتراكهما في سيرة «خرافة» والغريب. فإذا اختلط عقل الرجل وأصابه مسّ أو أصبح مستهاماً، سلك السبيل والشعاب و«هام على وجهه لا وجهة له ولا نقطة اعتلام. والسبل مسكونة بأصوات الهاتف من بعيد، ومسكونة بالجن، ولا تفضي، وإذا أفضت فإلى قفر ليس هو المكان، بل ساحة التوحش حيث لا أنسَ في الجوار. لذا كان على المؤمنين ممَّن آثروا سوية العقل والمعاش، أن تُبتدأ رحلتهم بالدعاء يكفيهم «شر الطريق».

وأيضاً، هناك الكذب (يقول الحريري منشئ المقامات محاكاة، إنه «التلفيق»). غير أن الكذب (التلفيق في أحد الوجوه) هو «صناعة الإنشاء» أي الخبر الذي يبقى خلوّاً من شوبِ الغياب، فيثبت عياناً. نقصد؛ ذاكرة

تسعى وراء استيهام العيان.

والاستيهام فعل للمستهام، وهو، لغة، الذي استهوته الشياطين. (لسان العرب).

بين الغريب و«خرافة» نسب آخر لم يأتِ على ذكره أحد؛ سوى اللغة أو تصاريف الاشتقاق الذي يُروى (بمثابة «رواية») ولا سند له. أو أنه مسند إلى متن ضعيف (أغفلته «الصحاح» وخلَّت به العنعنة). وهذا النسب هو الطريق (السبيل). فإلى نسبة خرافة إلى فصل الخريف، لغة، يزعم ثعلب أن المخارف (وهي جمع المخرف والمخرفة) «هي الطرق». أي السبل التي يسلكها السَّابلة. فما الذي يجمع فساد العقل (الخَرَف) إلى الخريف إلى المخرف؟ لذة الاشتقاق؟ لا أدري.

بين الغريب و«خرافة» أكثر من نسبٍ أكيد: الاختلاط (اشتراك الجن فيهما)، والقول (الكاذب لأنه على غير قياس أو سند)، والسبيل (الطرق التي تجلبهما من بُعد لا يدري أحد من أين تبدأ وإلى أين تفضي). وبينهما نسب الرواية. وقد نُحِّيا، تغرُّباً، كما أُفرِدَ مجنون ليلى (أهو «خرافة»؟) ولم تكتمل سيرة أيٍّ منهما. الأولى في الخبر والثانية في المقامات والثالثة، وهي لقرينهما، مجنون ليلى، في الشعر.

غير أن «الرواية» جمعت «أكاذيب» سيرهم وأخبارهم وأخبار أخبارهم. وأنشأت الأخبار رواية، أجمل ما فيها أنها لا تُقرأ في كتاب؛ ولم تدوَّن في مصنَّف. ولم تبوَّب في معجم أو فهرس. نستدرك أجزاء

منها، كما المدركات، كما الحياة في شتات لم يحفظه إلَّا أصحاب الهوى. والهوى استهواء.

غير أن طائفة الجنّ سلكت شعاباً لا نعرفها، يقال إنها «الطرق».

عبارة

يحسب الكتاب أنَّه الراوي. ويحسب الراوي أنَّه الكتاب.

لا الكتاب هنا ولا الرَّاوي.

كمثل خرافة.

الكتابُ والرَّاوي.

كتاب

أخذة الرَّمل

«(...) وقد كتبنا قليلاً من كثير مما حُكي من هذا الباب، وههنا اختلاق وتخليط لا يقف عند حدّ غير ما ذكرنا لا يكاد ذو تحصيل يسكُنُ إليه. ولا ذو رأي يعوّل عليه، وإنما هي أشياء تكلَّم بها القُصّاص للتهويل على العامة على حسب عقولهم، لا مستند لها من عقل ولا نقل(...)»

(ياقوت الحموي«معجم البلدان»)

التكوين

قال الراوي:

كان رملٌ ورمل. وقال: إذا بُدِّلت السين صاداً أصبحت أرضاً. وإذا بُدِّلت الصاد سيناً أصبحت وهماً.

ثم قال: وهي أرض ووهم.

تَوُه وافتتان. الأرض التي كانت، بعدُ، فطرة؛ التي كانت، بعدُ، خرافة.

اتساع من الحَضر الرملي وتوجس الضوء منبسطاً للغبش قبالة السماء؛ لا حدَّ له بل رسم.

وقال: كان رمل ورمل. ولا شيء آخر.

الانفراد

«ومن انفرد فكَّر وتوهَّم واستوحش وتخيَّل، فرأى ما لا يُرى وسمع ما لا يُسمع». (ابن قتيبة). والانفراد ارتياب وتفرُّق. (الجاحظ)[3]، وسفر في أرض فضاء. (الأزهري). والأرض الفضاء هي كل أرض إذا اتسعت، إذا أصحرت فلا يبينُ حدّ لها وكانت «شبهاً» كمثل بطلان الكلام إذا كان عبارة المدرك بالوهم. (ابن سينا) أي المعنى. والانفراد إقامة في الأرض الفضاء على غير منتهى أو حدّ.

لأن الحدّ جوار وقصْد. ولا يقيم جوار إلاّ على الفصل، كما لا يقيم قصد إلّا على وجهة. وغاية الفصل بين الشيئين اجتناب أن يخالط أحدهما الآخر، أي اجتناب الخلط لأن الخلط جمع أنواع شتّى دونما صنافة أو ترتيب، أي دونما عقل وتدبير. والجوار منتهى لأن منتهى كل شيء حدّه؛ والحدود كما في الجماعة، هي ما بعده المحرَّم. والمحرَّم غواية كالانفراد لأنه خَلْط في شهوات النفس «الأمّارة».

وكل انفراد بَدَد. فإذا رحل القوم واحداً واحداً رحلوا، إذاً بَداد بَداد. وبدَّ الشيء تجافى به، والبُدُّ الفراق، والبَدّ التعب، والبديدة المفازة الواسعة لا أحد فيها، وباد الشيء إذا هلك. وقيل إنَّ البيداء مفازة لا شيء فيها.

والانفراد إقامة على الصمت والشجن. وعلى النداء لا يستجاب. وعلى الدعاء لغيب يملأ المكان.

3 كما يروي الجاحظ عن أستاذه النظام: «وإذا استوحش الإنسان تمثل الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرّق ذهنه، وانتفضت أخلاطه، فرأى ما لا يُرى وسمع ما لا يُسمع». (كتاب الحيوان).

الرمل

قال الراوي: كان رملٌ ورمل. وقال: كان في الأصل لهاثاً لسائرين قبلَ أن تستردّ جسومهم ظلالها فتقف فيها لتبترد قليلاً. هي الظلال التي خُبِسَتْ في جسوم رجالٍ هُمْ أروماتِ الشخوص التي يرفعها السَّراب في قيظ الهجيرة. وهي لا أحد.

قال الراوي: كان الرملُ ولم يكن أحد. كان فطرة الليل أن يُرخي ظلّه الهائلَ على الظلال المستوحدة، ويشيع أنفاسَه في الأرجاء ذرور شجنٍ والتماعاً خافتاً.

وقيل إنه خدعة التائه يترك أثراً لكي يزول الأثر فلا يخشى النجاة.

ولا يقيم الرملُ أرضاً، بل يقيمُ وهمَ أرض. وهم أرض تقيم، على الدوام وراء الحدّ، وراء المعرفة[4]. إنه أرض لا نبت فيها فهو، بحسب ابن شميل، أرض مسحورة. وكل ما مسّه السحر لا يعقلُ أن يكون أرضاً، لأنه «قطعة من الليل». (الزهري)؛ والليل زمان السحر (أو السمر) إذا كانت المسامرة بالباطل من الأحاديث. فكيف يكون السحر إن لم يكن «صرفَ الشيء عن حقيقته إلى غيره». (الأزهري).

الرّمل بيان أيضاً لأنه سحرٌ آيته الأخذةُ. فهو على غرار هَذْر يجمع من الأخبار ما تفرّق منها ومن الكلام ما انتثر من غير حدّ. وهو المكان الذي يصرف الشيء عن حقيقته إلى غيره: آيته، في اتساعه، السراب، لكنّ

مكنونه، على سوِّيته الظاهرة، غور وقاع. غور وقَعْر.

---

4 فرّق المنطقيون (المناطقة) بين الحدّ (وهو من علامات الحضر) والرسم(وهو من علامات الصحراء) فقالوا: «الحدَ مأخوذ من طبيعة الشيء والرسم من أعراضه». فكل حقيقة يدل عليها الرسم عرض لا طائل فيه. (أبو هلال العسكري «كتاب الفروق»).

وفي وصف لوادي الرمل، وهو من الأماكن الخرافية (المتوهمة) عند العرب ما أورده ابن الفقيه (أبو عبدالله أحمد الهمذاني) في «كتاب البلدان»:

«لمَا ملك (فلان) تجهَز وسار في جمع لا يحصى عددهم نحو المغرب حتى إذا بلغ وادي الرمل أراد أن يجوزه فلم يجد مجازاً فأقام إلى يوم السبت، فلما سكن الرمل يوم السبت أرسل نفراً من أصحابه وأمرهم أن يقطعوه ثم يقيموا من ذلك الجانب إلى السبت الآخر ثم ينصرفوا إليه بخبر ما رأوه. فساروا يومهم ذلك حتى هجم عليهم الليل قبل أن يقطعوه فجرى ذلك الرمل فغرقوا فيه، فلما رأى ذلك ولم يرجع إليه من أصحابه أحد أمر بصنم فنُصب على حافة الوادي وكتب على جبهته: ليس ورائي لامرئ مذهب فلا يتكلّفن أحد المضي إلى الجانب الآخر. ثم انصرف إلى مملكته».

(عن «جغرافيا الوهم» لحسني زينة)

أخذةُ الرّمل

إذا كان صحيحاً أنه لا يُستدل على الشيء إلّا بالعلامة، لأن علامة الشيء تكون قبله، فالرّمل لا يدلّ إلّا على ذاته وبالأثر، لأن الشيء يكون بعده. والاستدلال به، كالعرض الذي هو، للمفارقة، مُسكة قوامه، أشبه بمدرك الوهم. لذا فإن بيانه أُخْذَةٌ ومعناه بَدَد[5].

المكان، في العادة سطح وحدود ونقاط اعتلام. والرَّملُ في العادة سرابُ خلابة واختلاط حدود ومحو اعتلام. كل سطح فيه هو في الحقيقة غور وقعر؛ ولا تكون الرمال جبالاً إلّا إذا كانت، بحسب الفرّاء، «كثيباً مهيلاً»، فالمهيل ما يحرّك أسفله فينهال عليه من أعلاه أي ما كان أعلاه قعراً لا قاع له.

وكل حدّ مزاج. ومن «أراد أن يجوزه لم يجد مجازاً»، (ابن الفقيه) لأن عبوره المستحيل (ودونه التهلكة أو الهلاك) هو عبور إلى «الجانب الآخر»، (ابن الفقيه) أو توهم من قبيل التجويز الذي لا يصدق.

تجويز المعنى الذي يحرسه (يحدّه) صَمَمُ الكلام.

أُخْذَةُ الرَّمل سهو وليس غفلة، لأنه (أي السهو) هنا غفلة عمّا لا يكون. على أن الصحوة منه إثبات للتوهم وبرهان عليه. فالأخيلة التي يرسمها الرَّمل هي رَمَل يرفع الأخيلة رملاً، والأصداء التي هي سَمْعٌ يجعلها بصراً.

فالأُخْذَةُ هي التي «تأخذ» العينَ حتى يُظَنَّ أن الأمر

كما يُرى وليس الأصل على ما يُرى. إنها الخلابة، ولكن من مصادر السحر لا الخديعة. تجويز ما لا يجوز؛ وعبور ما لا يُعبر. هنا يستقيم «مجازاً» مستحيلاً أو محالاً، وهناك يصبح المكان «جانباً آخر»[6].

«الجانب الآخر» من أيِّ شيء؟

من الطريق أو الوهم أو الكتابة!

---

5 صنَّف كتاب البَداد أو الرمل راوٍ أعمى يدعى خورخي لويس بورخيس، وفُقد الكتاب في ذيل كتاب آخر وعنوانه هو الآخر؛ «كتاب الرمل». في ما يلي لن يعثر القارئ على نصه.

6 وإلّا ما تكون عليه، في التأمل البوذي، حديقة ال«زن».

وعاء الصدى

عن ابن شبّة عن الحزامي قال: حدثني أيوب ابن عباية قال:

سألت بني عامر بطناً بطناً عن مجنون بني عامر فما وجدت أحداً يعرفه. (...)

أخبرني هاشم بن محمد قال: حدثنا الرياشي قال: سمعت الأصمعي يقول: رجلان ما عُرفا في الدنيا قط إلّا باسم مجنون: مجنون بني عامر، وابن القرية، وإنما وضعهما الرواة.

(أبو الفرج الأصبهاني)

في «أخبار مجنون بني عامر ونسبه» لأبي الفرج الأصبهاني خبر عن إسماعيل بن أبي أُوَيس أنه قال:

اجتاز قيس بن ذريح بالمجنون وهو جالس وحده في نادي قومه، وكان كل واحد منهما مشتاقاً إلى الآخر، وكان المجنون قبل توحشه لا يجلس إلّا منفرداً ولا يُحدث أحداً ولا يردّ على متكلّم جواباً ولا على مُسلِّم سلاماً، فسلَّم عليه قيس بن ذَريح فلم يردَّ عليه السلام؛ فقال له: يا أخي، أنا قيس ابن ذريح؛ فوثب إليه فعانقه وقال: مرحباً بك يا أخي، أنا والله مذهوب مشترك اللبّ فلا تلمني، فتحدثا ساعة وتشاكيا وبكيا، (...).

لقد اجتاز قيس بن ذريح (وهو عاشق كبير آخر)

بالمجنون عابراً سبيله أي الدّرب الذي أسبلته له المصادفة وأباحته وجعلت إليه طريقاً مطروقة. وما أفضت إليه السبيل حال الجنون وذهاب العقل واشتراك اللبّ والانفراد والتنحي عن القوم. وفي تتمة الخبر أن المجنون يسأل ابن ذَريح أن يبلِّغ عنه إلى ليلى السلام، فيمضي إليها ويسمع منها عتاباً

ولوماً لما قاله قيس:

أبَت ليلة بالغَيلِ يا أمَّ مالكِ

لكم غيرَ حبّ صادق ليس يكذبُ

ألا إنما أبقيتِ يا أمَّ مالكِ

صدًى أينما تذهبُ به الريحُ يذهبُ

لقد أفضت سبيل قيس الآخر (ابن الملوَّح) إلى الغياب (غياب المجنون عن ذات نفسه وقومه، وعن ليلى) وإلى الصدى. فهذا يفضي إلى ذاك وذاك إلى هذا، وهذا «أمر طريقه الخبر» (ابن جني) لا العيان. أي إن السبيل والغياب والصدى هما متن الخبر الذي لا متن له شهوداً. فمتنه قول يُبنى على قول ثم قول... ليجتمع، أخيراً، في بيتين من الشعر (نُسبا، بحسب الخبر، إلى قيس بن الملوّح) يُبتدأ عجز ثانيهما بالصدى ويشتمل على الذهاب (تكراراً) وعلى الريح.

لقد أسبل ابن الملوَّح وابن ذريح دمعهما بعد أن تشاكيا؛ كما أسبلت ليلى دمعهما بعد التيقُّن من كذب المظنَّة بقيس (فأطرقت طويلاً ودموعها تجري وهي تكفكفها). ولا تفضي السبيل إلى غير ذلك؛ فالسابلة

(أبناء السبيل) «مختلفون على الطرقات في حوائجهم» والعابر (عابر السبيل) المجتازُ بالماء «أحقُّ به من المقيم عليه. والماء، هنا، بئر عميقة كما تكون النفس، والصوت منها أصداء وتصدية؛ والماء، أيضاً هي العين والدمع ماؤها كما هو السبيل ماء العين وماء السماء.

الخبر، خبر المجنون ليس كاذباً لأنه لا يحرف الواقعة إلى وجه واحد من أوجه لها، ولا يطمس ولا يزيِّن أو يلفِّق أو يؤلِّف. الخبر صادق غير أنه ينفي ذاته فيُسلم مُسكته، بعد أن استبدل عيانه بالغياب، إلى ترداد «الهتاف» من غيب، وإلى الصدى الذي هو الصوت راجعاً «عُقب صياحه من نحو الجبل والبناء المرتفع»؛ ومبنى شعر المجنون، بحسب الخبر، نطقُ «هاتف» ليليّ بعد أن صار «ضيف جنّ» (ابن الأعرابي) أي صار بمكان خالٍ لا أنيس به سوى القفر والوحش والوحشة. والقفر، كما الشعر، «إناء الصدى» لا بل مستودعه. فإذا هتف هاتف الليل تردَّد صدى قوله واجتمع في بيت من الشعر أو أكثر؛ أما الجواب، وهو، على الدوام جواب الصوت، فهو ردَ الصدى على الصدى؛ لأن ما ينشده المجنون هو نطق الجسد الذي أُذهب قلبه (ولهاً) وأذهبَت روحه لاختلاط واشتراك، ولم يبقَ منه إلَّا الصدى (وهو الجسد من الآدمي بعد موته؛ وهو الرجل النحيف الجسد، بحسب لسان العرب)؛ وتلك حال المجنون «بعد توحشه». الشعر (وعاء الصدى) سبيله إلى ليلى؛ وليلى هي سبيله إلى العقل وإلى نفيه. فهي مخاطَب القول الذي لا يطول

إليه اختلاط لأنه النسب الوحيد الذي ينسب المجنون إلى الواقع والحقيقة لا إلى التوهم والخرافة؛ ولأنها إذ يجتمع فيها ولها القول تحيله إلى تصدية أشبه بالنداء الذي لا جواب له سوى النداء راجعاً عقب صياحه.

لذلك، إذا استحال النطق لاذ المجنون بصمته (ولا يحدِّث أحداً ولا يردّ لا على متكلّم ولا على مسلِّم):

على أنني لو شئث هاجت صبابتي

عليَّ رسوم عيَّ فيها التناطقُ.

بُنيَ الخبر، خبر المجنون، منسوباً إلى رواة ثُقات، ثم تلقفته العامة وأضافت ما ألَّفته وتناقلته وتراوته، وأثبته أبو الفرج الأصبهاني في «كتاب الأغاني»، فأقامت الخرافة لنفسها متناً وأفردت لها هامشاً في السعي الذي هو بعض الحياة. كأنما الشك الذي يصرِّح عنه في مفتتح الخبر يؤكد، على الضد مما يُظن، صحة الخبر لا كذبه. فلا شأن للصحة والكذب في حياة الخبر. فالخبر، وهو رواية، يصدق حين يكذب؛ ويكذب حين يصدق، وفي الحالين فالحكاية هي قول الغائب، وقول الغائب رجع أصداء واجتماعها، ما يجعل الشعر ممكناً لأنه «وعاء الصدى».

كتاب

في أنَّ الطَّريق لا تُفضي

«(...) وإذا عرَّستم فاجتنبوا الطريق فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل»

(حديث رواه مسلم عن أبي هريرة عن الرسول)

عندما وضع ناصر خسرو مؤلفه «سفر نامه» الذي يتضمن وصفاً لرحلته التي شملت لبنان وفلسطين والجزيرة العربية، في القرن الخامس الهجري، واستغرقت سبع سنوات، لم يُعنَ بأيَ مشهد خلال ترحاله، واكتفى بوصف نادر(في المصنفات العربية) لأحوال المدن والدساكر والحمى التي حلَّ فيها وأسهب في استقراء عمرانها ومحلها وطباع أهلها والقيّمين على معاشهم. ذلك أن رحلة ناصر خسرو، وهو شاعر ولد في قباديان (إقليم خراسان) عام 394 هـ. ـ 1003 م، لم تكن رحلة ضلال بل رحلة هداية[7]. فالشك الذي أفسد عليه إيمانه وأضلّه كان دافعه إلى السفر وجهة الكعبة بحثاً عن الهداية التي بها يُستردّ إلى الجماعة. ذلك أن مبتدأ الرحلة في القصص الديني إما أن يكون توهاً (أو تيهاً) وإما أن يكون إلى «دار حرب» مسعاه الهداية. أما الرحلة في غير القصص الديني فتبدأ من الاتجاه المعاكس:

«أقيموا بني أمّي صدورَ مَطيِّكم

فإني إلى قومٍ سواكم لأميَلُ».

مفتتح أبيات لامية العرب يعلن «مفارقة الإخوان»، طوعاً لا من أجل حياة جديدة، بل تطلباً لحياة موحشة لأن الميل إلى «السّوى» نقضٌ للآصرة التي تجعل من «جماعة الحِمى لحمةً». والسّوى هم الغرباء الذين نقيم بين ظهرانيهم غرباء. فإذا كان السعي ينطلق من «غربة» في كنف الحِمى والأهل والجماعة، ويفضي إلى «غربة» بين غرباء، لم يكن السعي طلباً لهداية، بل تطلّب للضلال المتمادي. والساعي بين أهل «غرباء» و«قوم» غرباء، يسلك وحيداً، أطرقة ليست في خطط (لأن الخطط لعمران واجتماع) بل في حسبان غيب الكواكب. والأطرقة «هي جمع طريق على التذكير أطرقة (...) وعلى التأنيث أطرق». فالطريق لا حدّ له (لها) هو (هي) الخنثى الذي (التي) لم يُستنبط له (لها) تعريف. والطريق كما في حديث سَبْرة، مضلّتان: مضلّة الروح (أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة ـ لسان العرب) ومضلّة الجسم والعقل والباصرة. فما الذي يهدي القافلة أو المسافر أو الجوّال في أرض بلا معالم سوى الكواكب.

هي خنثى (الطريق) و«يقعد» بها الشيطان لابن آدم. تُذكَّر كما تُؤنَّث (لا فرق) وحدُها، إنْ لم تُعتَلم بالأثر، الشيطان الماثل لا في موضع منها، بل في جوهر تعريفها. وسالكها لا يأمن الشّرين إذا كان مفرداً وهو مفرد في أيّة حال. لا مقصد لـ «مُفارق الإخوان» طوعاً

أو قسراً، إلَّا التوحش ومجاله. ومجاله هذا صحراء أو مفازة. عراء بذاته لا يفضي ولا يفضى إليه لأنه لم يذكر في الخطط ولم تلحظه الرسوم ولا ثابتَ فيه إلَّا الأثر. والأثر فيه زائل. موقَّت، ولا يكون نقطة اعتلام أو هداية إلَا بالتخمين وبالظنّ وبالحساب (أعلى درجات التجريد).

ذلك أن المسافر في المفازة لا يسلك درباً أو طريقاً بل إنَّ سعيه هو الذي يختطُّ درباً وطريقاً. فالخطى التي تسعى كأنها فوق ماء ثقيل، تخلِّف أثراً؛ لذا كان المسافر في المفازة، كل مرة، مكتشفاً لمجهول يتضح كل خطوة. لكنه آخر الأمر، يظل مجهولاً.

الطريق في العادة لا تشير إلى جهة بل تفضي إليها؛ وفي سفر الصحراء ترسم الجهة الطريقَ لكنَّ هذه لا تفضي إلَّا إليها. لأن الجهة هنا مشارٌ إليها هداية من السماء. والسماء هنا ليست اسماً لاهوتيّاً (فقهيّاً) بل المحلُّ (الموضع) الذي تظهر فيه النجوم (الكواكب) لتشير إلى الجهات. فمتن الطريق التي «يشقّها» المسافر في الصحراء يُعتلم بالكواكب التي تظهر للعيان أو تغيب وفق مزاج كوني أو فلكي.

«.. وقوله تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾، قيل: هو النجم الذي يقال له كوكب الصبح»؛ ألا يكون الطارق (اشتقاقاً) «الضرب» بالطرق، كما هو «الطرق» ضربٌ بالحصى: «وهو ضرب من التكهُّن. والخطُّ في التراب: الكهانة. والطرّاق: المتكهنون. والطوارق: المتكهنات» (ابن

منظور).

ما الذي يجمع بين «السَّفر» في صحراءٍ والكهانة؟ ليس اللغة وحسب، بل السحر الذي يلازم منطق الصحراء الذي هو خُلفُ المنطق. ففي الصحراء جهات تشير إليها أنجم السماء. وليست الطرق (أو الأطرقة) هي التي يسلكها المسافر لتفضي به، بل هو المسافر الذي يفضي بالطرق إذ يخطّها سعياً، إلى الجهات. ومن سحرها أيضاً أن كل شيء فيها عابر، كأنها وهي التجلّي المطلق للوجود البدائي العاري، المجال المثالي لحكمة الزوال. حتى ما يضاف إليها من سعي البشر (المسافر) يتمثل في سراب، كغيره؛ وذلك أن الحقيقة الوحيدة في الصحراء هي السَّراب، والسَّراب هو ما تزيّنه العين الناظرة إلى بعيد لا يُحدُّ، فتحيل الرملَ ماء.

كل حقيقة عابرة زائلة، ومنها الطريق. فلا يحين ميقات الهبوب حتى تعاود الصحراء ترتيب مساحتها وتبتلع الرمال، في حيلة جيولوجية فاتنة، ما تركه العابرون من أثر. الرمال تلاقي الرمال فيُمحى الأثر ويحال الوجود إلى مصدره: العدم؛ فتستعيد السماء رعاية الجهات ويستعيد الخلاء سرَّه وغموض دروبه.

إمّا أن يسير المسافر في الصحراء مطرقاً أي محنيَّ الرأس مسدلَ الجفنين، وإما أن يسرّح ناظريه إلى أبعد المستطاع، ويقال إن المستطاع في الصحراء مسافة تفوقُ التصوُّر. ويُطرق المسافر إما تعوّذاً واستجماعاً للذات والتقوى لأن كل خلاء مسكون بالشيطان، وإما

اتقاءً للهاجرة التي تصيب العين وتنفذ من العين إلى الروح.

ويسرّح المسافر في الصحراء ناظريه إلى أبعد ما استطاع، لأن البُعد هو نقطة الاعتلام الوحيدة في قفرٍ تُكرِّر فيه الرمال ذاتها إلى أبعد بكثير مما تراه العين، ولأن البعيد موضع السَّراب الذي هو التجسد الوحيد. فالأصمعي على سبيل المثال يقول: الآلُ والسراب واحد. وقال ابن السكِّيت: «الآلُ الذي يرفع الشخوص (...) السَّراب، إذا، شخص. والشَّخص: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد. وكل شيء رأيت جسمانه، فقد رأيت شخصه. والشرط رؤيته عن بُعد فلا يعرف من يكون نسباً وانتساباً.

مَن يسربُ (يسلك) السَّرب (الطريق ـ ابن منظور ـ) يلاقِه السَّارب (الظاهر والخفي، الذاهب على وجهه في الأرض ـ الأزهري)، أي إنه يرى ظاهراً وخفيّاً في وقت معاً. والظاهر هو«الشخص» الذي يرفعه الآل في مواقيت من النهار. والشخص جسمان، أي إنه تجسّد (أو تجسيد) لما لا يُدرى ما هو، لكنّه حقيقة. غير أن «الشخص» صنعة الآل (السَّراب) الذي هو وهم (قال ابن السكِّيت: السَّراب الذي يجري على وجه الأرض «كأنه» الماء) فهو تجرد (أو تجريد) محض.

لعلَّ ذلك أثر الضوء الطاغي في الصحراء. فالضوء هنا لا يخضع لهندسة التراوح بين النور والظل التي تجعل من الإنارة وتوزّعها مخططاً طبيعيّاً لما هو مُنشأ

(بجهد البشر) وما هو مهملٌ (على حاله الأصلية). كما أن الضوء هنا ليس نورانيّاً؛ ليس لاهوتيّاً، وإن كان الغالب في النظرة إلى الصحراء ها هنا، أنها صحراء صوفية.

النور ليس نورانيّاً، بل له قوامه المادي. والنور طاغٍ لكنّه غير ساطع، بل هو مَضليّ ينتشر في هواء مشبع بغبار الرمل. وبين النور والرمل لا يجوز مزاجٌ بل اختلاط، وكل اختلاط قابل لأن تُفصم لُحمته. لذا هو نور اللاتجسد، نور انفصال الروح عن الجسد نور المُفارقة.

وإذا كان الجسد (الجسمان) يبحث في الصحراء عن شكل من أشكالِ مُفارقةِ الجماعة والعاطفة والجنس (وتلك حال المسافر) فلأن الصحراء هي امتداد طبيعي لصمت الجسد الداخلي؛ وهي وحدها امتداد ملكة الغياب لدى الجسد. الغياب بمعنى الفناء، وبمعنى الفناء الذي هو مساحةٌ خِلوٌ من الحياة التي يحتضنَها «الحوش» أو «الحِمى».

لا يأمن الساعي في الخلاء «شرَّ الطريق» الذي يَرِد في دعاء التعوّذ. فالدار كنفٌ والحمى كَنَفٌ والمضرب كنفٌ. والسفر فراق لأنه أولاً انفراد المسافر في سلوك الطريق التي تبدأ من حيث تعتلمها خطوته الأولى ولا يدري أحدٌ إلى أين تفضي؛ أو إذا كانت تفضي في الأصل. فالعتبة اهتداء وما بعدها مضلّة. ما بعدها توهٌ أو دارُ حرب أو مغرب العالم الذي يجافيه مشرقه. كأنَّ الضَّاربَ في الأرض كمثلِ «الضَّارب في الحصى»؛

فالسفر أيضاً هو الطَّرق، أي الخطُّ في الرمل، أي إنَّه حزث الهباء بما هو آيلٌ إلى زوال. ومن لا يتبع أثراً يضلَّ طريقه. ومن لا يُحاذِ علامة تبتلعه الظلمات، لأن العلامة كانت هدياً وهداية، والعلامة هي نيران المضارب التي تجمع «الشَّمل» وتُقصي المتربَصين به من الوحش والتوحش. فالأسوار (ولو مجازاً) تُرفع لكي يُردَّ الخلاء إلى عدمه؛ وكلُّ خلاء عدمٌ وإن كان سماء. فالسماء التي تظلِّل المضرب والحمى والدار هي التي يظهر في رحابها يُسر النجوم، أما سماء القفر قفر إلَّا من نجوم الكهانة. ومن تكهَّن ضلَّ. ومن ظلَّ وجب عليه التكفير بأن يعاود التَّرحال ولكن سعياً بين مِغلمين (هي المسافة التي يقطعها المؤمن بين الصفا والمروة، ذهاباً وإياباً) لكي يكون مدركاً للبداية والنهاية، فتلقاه «الجماعة»، غفراناً، بعد ضلال.

كان قيس بن الملوَّح (مجنون بني عامر) مسافراً في الأرض، فقط حين يكون مذهوب العقل مختلطَه. وكان يهتدي بوثن النجم فيبتعد ويضلّ.

كانت صحراؤه صوتاً من الأعماق.

---

7 للهداية أو للضلال، وأضلُّ المهتدين قيس بن الملوَّح، وقد قال:

«وأصبحت من ليلى، الغداةَ، كناظرٍ
مع الصبح في أعقاب نجم مُغرِّبِ».

عبارة

عكس الماء. قَلبي ظمأ.

حفّار الشَّاهدِ الذي يزول، أو يبقى. لست بئراً.

لستُ جبلاً.

لست شجراً. ولا طيف الأشجار لكنّي سَرابُها.

جميعاً.

لن تنجو منّي! ولكنْ إنْ نجوتَ قُمْ واسرد حكايتي...

حكايةَ أن ينتحل العابرُ حكايةَ البقاء. أن يَسرد الرَّملُ حكايتي؛ وهي في الأصل، حكاية أنْ ينتحِلَ الرَّملُ كما يشاء.

لذا هذه ليست حكاية، بل هي سيرة الرَّمل.

ورقة

أسألُ الرَّجل الذي صادفته:

إنْ سَلَكْتُ إسفلتَ هذه الطريق، هل أصِل؟

يقولُ: لا أدري؛ لم أرَ أحداً سَلَكها من قبل.

يقولُ: لا أدري.

أردتُ أن أسألَ تكراراً لكنّي لَزِمْتُ الصمت.

وأطرقتُ مودِّعاً.

أسألُ الرَّجلَ (وهو آخر) عند المنعطف:

إن سلكتُ اتجاه عينيَّ وقلبي فهل تفضي بي الطريق؟

يقولُ الآخرُ عند المنعطف: لا أدري؛ فهذا الذي أمامكَ وَعْرُ لا أحد وليسَ طريقاً؛ وسمعتُ يوماً أنَّه طريق لا أحد.

وأطرقتُ مودِّعاً

لَمْ أسأل الرَّجل السَّائرَ مثلي.

رَمقته مُتعباً أنْ: مساء الخير.

فرمقني مُتعباً أنْ: مساء الخير.

وسِرنا.

ولم أدرِ إلى أين.

ولم يدر إلى أين.

كان سيرُنا خفيفاً يُشبهُ المشقَّةَ كأن أقدامنا المتعبة تختلقُ رَسْمَ الطريق التي سلكناها بمحضِ المصادفة.

ونكابدُ الرِّيبة التي اطمأنَّت إلى يقينٍ جَعَلَهُ المسيرُ حتماً؛ جعله المسيرُ حتفاً؛ أو لا ندري.

هل ترى ماءً؟

هل ترى شجرةً؟

هل ترى حجراً، أسودَ أو داكناً في المدى الحائلِ لأرض السَّراب؟

هل تُبصر فِتراً من طريق تطاولت أربعين عاماً وأكثر؟

أطرقتْ

فالتفتَ إلى الوراء وقال:

لا أرى طريقاً.

أطرقتْ؛ وحدَّق في المدى المشرَّعِ أمامه وقال:

إني لا أرى الطريق.

وقال أنْ نستريح عند بارقةٍ:

دَغَل، أو نقحة ماء من مَطَرٍ أضلَّ طريقه؛ أو عقاب أعمى؛ أو شوكة أغوتها ذاكرة الماءِ أن تنبتَ هنا؛ وقال: أو، حتى، عندَ وَهْمِ جدار.

كان السائرُ بجانبي يَهذي. وكنتُ أحلم.

كنتُ أهذي وكان السائرُ بجانبي يحلُم.

لا أدري.

كنَّا سائرين على الطريق

وما كانتْ في سيرنا طريق.

أو

بلى.

متحف جسومٍ وأنتيكاتٍ وكتبٍ وأفكار وقصص لم يروها أحد.

تَعَبٌ كتوم.

وضحكٌ مُرسَلٌ على الأنحاء كأطنان وأطنان من الرِّمل.

أسألُ الرَّجلَ: هل كنتَ ميتاً؟

يقول: كنتُ أفتقد الحياة.

أسأله: أما زلت ميتاً؟

يقول: كنتُ أحلم.

أسأله: أهو حلمك الذي جعل طريقينا واحدةً في اليقين.

يقول: لا أدري؛ ولكنّي مَشَيتُ ولم تكن هناك طريق.

مشيتُ فصارَ المشيُ هو الطريق.

أسألُ: إذاً إلى أين تذهب؟

يقول:

إلى قلبي؛ إذا كان قلبي مكاناً.

لم أغضِ، لكنّي أحسستُ أني أسير في أشراكِ حكاية؛ أني أسيرُ في نومي؛ أو أني أقيمُ في سراب.

أكلَ الرَّجلُ طعاماً لم أعرف ما هو.

وشربَ ماءً لا أعرفُ إذا كان، حقّاً ماء.

أكلتُ طعامي وشربتُ مائي فغلبني النُّعاس.

لم أنَم.

لم أرَ الرجلَ السَّائر بجانبي، في حلمي.

رأيتُ رملاً وسراباً.

ونام الرجلُ السَّائر بجانبي.

ولم يرني في حلمه.

ورأى رملاً وسراباً.

ولم أستيقظ.

ولم يستيقظ.

وكنَّا لم نعبر بَعْدُ، من محيط الرَّملِ إلَّا حفنةً.

أو ربَّما عبرنا الوَهم.

قال: خلفَ هذا الكثيبِ قطرةُ ماء.

قلتُ: دلَّني.

قالَ: لا بدَّ أن تكون الطريق هنا. أو ربَّما أضلَّها نَوْمُنا.

وقال: لا تصدِّق ما أقول.

سألتُ ولم يَدُلَّني أحدٌ.

فربَّما كانت الطريقُ قلبك. وربَّما كان قلبك هو الطريق.

أسألُ الرَّجلَ الذي صادفته في حلم الرجل الآخر: إنْ سلكتُ إسفلتَ هذه الطريق، هل أصِل؟

يقولُ: إلى أين؟

أقولُ: لا أدري؛ ولكنْ هل أصل؟

يقولُ: لم أدرِ من قبل أنَّ طريقاً قد تُفضي إلى هناك...

ويقولُ: ربَّما قَلْبُك هو الطريق.

لم أكنْ نائماً

لكنّي صحوتُ. ومشيت.

وكانَ الخَلاءُ يَقْظَتي أو

حلمي.

كتاب

قيافةُ الأثَر، قيافة الخَبَر

إذا كان الأمر (أو الشيء) محواً، «لم يرد في عينه أثر» (الغزالي)، لأن ما يُجري الأمر (وما يُوجد الشيء) هو الخبر وإنْ مأثوراً، أي خَالَطَ كُنْهَ متنه الأثر؛ غير أن الأثر محوٌ ورسمٌ على ما أنشد الحلّاج (من مخلَّع البسيط) في ديوانه:

ففي بقائي ولا بقائي

وفي فنائي وُجدتَ أنتَ

في محو اسمي ورسمِ جسمي

سألتَ عني فقلتُ: أنتَ

ومثال هذا كلّه مشهد الصحراء؛ لأنها زمانٌ محضٌ لا ينسرب أو يتصرَّم على طباع الأزمنة، بل ينتثر حفنةً من الهنيهات وإن طالت، فانسرابها تكرارٌ لوهم الزوال. والانتقال فيها، على نحو ارتقاء المريد لدى أهل التصوف: لا يسلك درباً، بل يرتقي من حال إلى حال، من مقام إلى مقام. وانتقاله (بحسب ما وصف معراج الجنيد) مأثور يخالطه أثرٌ حين الأثر لا يعود دليل «مظهر» بل دليل «كون». لذا قيل إن الصحراء العربية (الإسلامية) «صوفية» في الأصل والتعريف. ولذا كانت الحيز الخرافي الذي يسلكه الرواة تيهاً أو عبوراً: فمسلك الصحراء رواية مُسكتُها المضلّة والرِّيب سياقها.

لا متن لواقعة إذا دلَّ عليها أثر، لأن الأثر يُدرج

الفاصلَ بين الواقعة وكَنْهها في وسيط زمني، والزمن أجزاء لا سبيل لمعرفة واحدها لأنه لا كلٍّ (لا جميع) لها. لذا جاز عليها التأوّل، جاز عليها التذكر، لأن من يبكي (على الأطلال) وحده، يعرف سبباً لبكائه (ماسينيون) أما الأطلال فلا تدري.

والأثر غير العلامة. لأن العلامة تدرج الفاصل بين الواقعة وكنهها في وسيط معرفي. أي إن العلامة آية. وليست الآية في مشهد الصحراء، وليست في زمنها، لأن الآية ما يُهتدى به لإقامته على حال ومعنى، وذلك مقول الأنبياء، أما الأثر (وهو الخبر) فمقول الرواة. ومقول الرواة ليليّ لأنه يُنسَجُ في في الخفاء مثل اقتصاص الأثر؛ مثل اقتفاء الأثر. و«اللغة التي تفكّر» (هايدغر) تقول قولاً مماثلاً. «ويقال: قصصتُ الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء (...) والقصة الخبر وهو القصص (...) وتقصَّص الخبر: تتبعه. والقصة: الأمر والحديث؛ (...) والقصّ: البيان (...) وقصَّ آثارهم يقصُّها قصّاً وقصَصاً وتقصَّصها: تتبعها بالليل (...) وقيل: القاصّ يقصّ القَصَصَ لاتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً» (لسان العرب). وعن ابن الأعرابي: «يقال قفوت فلاناً اتَّبعتُ أثره (...). وفي نوادر الأعراب: قفا أثره أي تبعه. وضدّه في الدّعاء: قفا الله أثَرَه مثل عفا الله أثَّرَه». (ومنها التقفية والقافية في الشعر).

فالتقصُّص والاقتفاء محوٌ ورسم. وربما كانا رسماً،

في البداية ثم محواً. وغير ذلك ما الكلام في ما رفعه عرب البادية إلى فن مخصوص وأسماه فخر الدين الرازي (المتوفى عام 1209 ميلادية) بـ «قيافة الأثر». والقيافة إذ تستقيم فنّاً في استقراء الدليل في ما تبقّى «من الرسم الدَّارس» (السرَّاج). إنما تحيي المعنى في المتبقي مما كان، ذات يوم، له معنى. فالقيافة هنا «اصطفاء» لمعنى يرفع شخص الأثر إلى مرتبة العلامة؛ أي يحيل متنه من «المظهر» المحض إلى «الكون»؛ يجعله آية. وكل آية، بهذا المعنى خرافة لأنها الخبر الذي يساق إلى الخبر حتى يتمّ له انتسابه فيصبح الواقعة، لا تحيد عن مقولها وعن وصفها. لذا ما كانت حرب ممكنة أو تجارة دون فنّ القيافة (قيافة الأثر) وما كانت رواية دون «قيافة الخبر» وسحر هذه وتلك كامن في أن ما تتأوله مجرَّد عَرَضٍ قابلٍ للزوال أو أنه يُستدرك أوان ميله إلى الزوال.

ما الخبر إذاً إلَّا قيافة الزوال:

ما تستدلّ، إذا ما تهتَ خَلفَهم،

إلَّا بريحهِم من طيِّب الأثر

وأيضاً في ترجمان أشواقه، ابن عربي هو الذي يقول:

أسابقُهم في ظلام الدُّجى،

أنادي بهم ثمّ أقفو الأثر

فالتائه في خلاء لا جهات فيه إمَّا ان ينادي وإمَّا أن يُنادى عليه، وفي الحالين يكون النداء هتفاً أو هتافاً. ومصدرهما «رسمٌ دَرَس» بعد أن كان آهلاً؛ بعد أن كان

أهلاً. غير أن المنادي يستدلّ ولا يهتدي؛ فلو كانت الهداية غاية لما كان النداء. والأثر معلمُ ترحال لا معلم اهتداء، وإلّا لأقامت الخرافة على متن مدرك القصد والغاية. هنا المبتدأ وهنا الختام وما بينهما سفر قافلة (أي جمع) لا سفر تفرّد أو فرادة. والحال أن كل سفر قفاية لذات هي ذاتها لا سواها وإن أشبهت، ولكل ذات أثرٌ هو المخصوص بها معناه وإن أشرك في الظاهر.

السفر حال لذات تنشئ الخبر، فإن لم يكن سفرٌ جعله التوهُّم واقعاً، على قول أبي تمّام:

لا يبرحون ومَنْ رآهم خَالهم

أبداً على سفَر من الأسفار

فالأثر، تطلباً، على نحو الخبر، مقيم، ما أقام، على زوال مرجأ، لأن ما يبقى هو بعض الكلّ، أو أقلّه فكيف لا يزول الأقلّ بعد زوال الأكثر.

زوال مُرجأ، كمثل الرواية تجعل الواقعة خبراً ينقل شفاهة أو كمثل «الرسم» (نسخ المصاحف) فوق الرمال.

لا يُعقل أن تكون الصحراء متناً لأنها مملكة الفوات. مشهدها المتغيِّر لا يصلح أن يكون متناً ومعالمها (نيران المضارب أو المضارب وسواها) جوّالة في متَّسعٍ من التلاشي؛ فالهضاب كثبان والمناظر سراب والأثر مزاج رياح.

لم يُكتب كتاب الصحراء بعدُ؛ لأن الكتابة تحيل الأثر علامة.

والعلامة تُدركُ أو تُعرف أو تتأوَّلها اللغة التي تفكّر؛ أما الأثر فيُبْصَرُ على نحو ما ترسمه الرمال:

رسم ومحوٌ، ثم محوٌ فرسم، كأنها الخيال.

ورقة

أثبتنا ما استطعنا أن نقرأ منها:

كل كلام هو اقتفاء غيب وغيبة وغياب. اقتفاء لا يشبه قيافة الأثر الذي يُستدلّ عليه بالأثر الذي يطابق الأثر، بل هو اقتفاء بالرجم والتخمين. كأن قياس الشاهد على الغائب هو الحد الذي يستنبطه كل كلام. والكاتب، حين يكتب، لا يكون «أناه» بل يكون الآخر الذي هو شخص ما.

و«الشخص» بالعربية عبارة الملتبس. لا بل عبارة اللَّبس والخلابة. فإذا قيل عن الرجل أو الشيء إنه «شخص» كان غفلاً (غريباً) أو متوهَّماً.

يكون الرجل أو الشيء قواماً وهيئة ولكن من خيال. ولا أدلّ على ذلك من «شخص السَّراب»، أو من «الشخوص» التي ينسجها الخبر بتواتر تنسجه الشفاهة والتجوال. لأنه الـ «هو» في حين يحتجب الراوي في غيبة النسيان.

وإذ ذاك يُصبح اقتفاء الأثر معكوساً. فالشخص هو العلامة، هو السبيل الذي قد يُفضي (وقد لا يفضي) إلى أثر الراوي. والأغلب أنه لا يُفضي.

يكون الراوي حقيقة حين يخاطب. لكن الراوي لا يخاطب سامعه بل يُغايبه. لأن الخبر (ولو مختلقاً) هو اغتياب.

في «يوميات» الكاتب مغايبة ذاته لذاته. وفي

التاريخ (التحقيب) تُغتَلم كل مغايبة بحجر اعتلام (هو ذكر اليوم والتاريخ) اقتفاء لزمن مستحيل، لأنه الزمن الذي تصرّم انقضاء.

ولكل زمن مستحيل فتنته. أن يُخبر الكلام عن خبر مستحيل. عن خبر ممتنع: أن يكون الكاتب، فيما يكتب، مخاطباً ذاته هنا، الآن، وهو ليسَ.

عبارة

كُنْ ظلّي أكُنْ أنتَ.

أوِ أكُنْ ظلّكَ، تكُنْ أنا.

أنا الرّملُ يقيناً،

فمن أنتَ؟

لوِ قُلتَ إنكَ السَّرابُ

لأغضيت

قُلْ لي:

من أنتَ؟ السَراب أم أنا؟

كتاب

زُواة اللَّيل

[«(...) وليلة ليلاءُ وليلى: طويلة شديدة صعبة، وبه سمِّيت المرأةُ ليلى؛ (...) وليلى هي النشوة، وهو ابتداء السكر. (و) قال ابن بري: يُقال ليلى من أسماء الخمرة، وبها سُمِّيت المرأة»]

(ابن منظور: «لسان العرب»)

على أيِّ وجه تدبَّر العرب الأوائل حساب مواقيت اليوم؟ حساب دقيق بيد أنه يحيل على مفارقة لا تخلو من معنى، فعندهم اليوم هو اليوم والنهار هو اليوم، أما الليل فشأن آخر، ربما لأنه الوقت الذي أُفرد إمَّا لصحبٍ وشرب (السَّمَر استئناساً بالتراوي) وإما لانفراد موحش، هو حال العاشق أو الغريب.

الليل اذاً في لغة العرب ومسالك عيشهم، هو أشبه بالمعنى الأصلي للفترة؛ لا بل قد يكون الفترة عينها أي زمان انقطاع «الوحي» بين مُرسلين أو نبيين؛ زمان انقطاع لحمة الجماعة التي هي «العقل».

النهار هو نهار الوضوح والبصر الثاقب والإيقان والتثبت والسعي والصحب في عمل أو سعي. وهو يقظة الوعي الخالص خلوّاً من أيِّ شوب، من أيِّ فترة أو فُتار (النشوة أو ابتداء السكر، بحسب لسان العرب)؛

وإذا كان «المجنون» ينسب نهاراً إلى ذات نفسه (نهاري) فلكي يستدرك وصفاً: «إنه نهار الناس»[8] يُترك للعموم والتكافل والاجتماع والتدبير وليس فيها كلها أدنى هوامش الانفراد والاختلاء والتفرد.

«نهار الناس» يستغرق «يوماً» لأن الفترة التي يداجي فيها الوضوحَ شوبٌ (واختلاط) تُترك لسَمَر غير مرغوب فيه أو لخُلاس العقل الذي تنحّيه الجماعة خارج الحِمَى ليسعى مع الوحش والجنِّ والقفار.

لذا ينسب المجنون النهار إلى «الناس» أما الليل فهو رذح الغيبة والظلال الذي ينسبه (وينتسب) إليه[9]. فالمطرح ليس مكاناً بعينه إلّا إذا انتسب، وكذلك الفرد، فكيف إذا كان عاشقاً.

يتردّد في شعر المجنون انتسابه إلى الليل أو انتساب الليل إليه؛ حين يمازج، لاختلاط عقله، بين الاسم والمسمّى، فيجعل هذا ذاك وذاك هذا دونما فرق. فالليل (لَيلي) والليالي (لياليَّ)، وليلى (هي «يا ليلَ» في أكثر من موضع)؛ وفي ظنه أن نسبة ليلى إليه لا تستقيم إلّا إذا انتسب هو إلى جنونه (أي إلى حبِّها) وعوضَ أن يسأله التوبة يسأله: اللهمّ زدني جنوناً. ويكون بذلك قد انتسب لا إلى «العقل» (لحمة الجماعة) بل إلى الخُلاس والغَلَس، والخلاس هو امتزاج الأبيض بالأسود. والغَلَس هو آخر الظلمة قبل أوان الفجر. وفي الحالين اختلاط هو واحد وإن كان التصحيف اللاحق فرّق بين المعنيين. وعلى نحو امتزاج الظلمة بالضياء، «تُخُلِّس في عقل»

المجنون، أي أصابه اختلاط ومسٌ، وكان ليله لا كالزمان بل كمثل الفترة؛ وكان هو عقلاً وجسداً وروحاً، لا كذات نفسه بل كمثل ليلى؛ فاجتمع فيه عنصرا النشوة وابتداء السكر.

والعشق في معجم الصوفية هو السكر، أو هو حال من أحواله.

ليلى الاسمُ هو نعت (ليلة ليلاء أو ليلى، كالحة السواد، شديدة الظلام) ولكن ليلى أيضاً هي اسم الخمر، وقياساً هي النشوة أو ابتداء السكر. وكذلك الفترة (انقطاع «الوحي» بين نبيين أو رسولين) وهي زمان الغيبة، ومنها الفتار الذي هو النشوة أيضاً وابتداء السكر.

لعلّ اجتماع صفات الاختلاط في سيرة المجنون جعلت منه مقيماً على حدّ الفصام. فالزمن لديه منقطع غير متصل؛ وإذا كانت السوية (العقلية والنفسية) هي التكيّف مع اتصال الزمان، فإن الفصام ليس أكثر من إقامة في زمن مشطور، هي إيقاع شقاق النفس ووتيرته. والجانب الأغلب في سيرة المجنون هو الجانب الذي يكتنفه الظلّ، ورواتها هم رواة الليل الأغفال الذين لا ينتسب واحدهم إلّا لتمام صنعة انتحاله. والغُفلُ لا يخلّف أثراً. بل يترك خبراً ورواية.

لرواة الليل إذاً سبق الرواج في الخبر؛ ولهم وحدهم أن يسعوا على الأرض دونما أثر كأنّهم أطياف الرواية التي أنشؤوا متنها، فصنعتهم بعد أن صنعوها، وجعلوا منها مُمكناً صار هو الواقع، وجعلت منهم مستحيلاً.

فقد «كان الليل يضيء الليل».

---

8 كما في قول ابن الملوَّح:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا

لي الليلُ هزَّتني إليك المضاجعُ

9 كما في قوله أيضاً:

وحسبُ الليالي أنْ طرحْتكَ مطرحاً

بدارِ قلىً تمسي وأنت غريبُها

ورقة

لا يَزفَعُ شيء مشهداً أو خيالاً أو شخصاً

كمثلِ ما تَزفَعُ الرِّمال.

نظنُّ أنّه سرابٌ. يكون سراباً.

ظنُّ السَّرابِ أنَّه الأشياء حقّاً. وليسَ هو

الأشياء.

وظنُّ السَّراب، مثلي أنا الرَّملُ، أنَّه كتاب.

وليسَ هو الكتاب.

كتاب

وَهْمٌ بِوَهْم

يقول أبو حيان التوحيدي في واحد من مجالس «الإمتاع والمؤانسة»: «(...) والعقل سريع الحؤول (التحوّل) خفيّ الخداع، وطريقه على الوهم، والوهم شديد السيلان، ومجراه على اللسان واللسان كثير الطغيان (...)». فالكلام إذاً «هذر» كلّه لأنه نتاج الحؤول في العقل وخداعه الخفي والوهم الذي يجري تالياً على اللسان.

الكلام لا يقول حقّاً لأنه إذا اجتمع بعضه إلى بعضه الآخر في سياقة أو عبارة أو قول لا يجتمع لخلق معنى أو ابتكاره، بل لكي يفسح في المجال أمام معنى ما لكي يظهر، لكي يتبدّى، لا المعنى بل معنى ما قد يكون واحداً من جميع. فالكلام هنا هو انعكاس لما يجاوزه، لما يتخطاه. ولا يكون حقّاً أو بهتاناً بذاته بل بسواه.

لا يخلو عقل الأمور والأشياء من توهّم إذا وفدت إليه في مظهر (في هيئة أو شكل) يُرى.

والحال أنك ينبغي أن تكون فاقداً بصرك لكي تكون ممتلئاً بنورك. (جو بوسكيه). فالأشياء ليست هنا إلّا إذا رأيتها، أن تأنس إلى فتنة فيها هي خلابة العَرَض غير المقيم.

لذا لن تقدر أن تكتب بعقلك، لن تقدر أن تحكي بعقلك. فالكتابة والكلام حقيقة خادعة لكنها «كثيرة

الطغيان».

هل تعرف حقّاً ما ستكتب حين تجلس إلى طاولتك قبالة الورقة البيضاء؟ بلى تعرف، أو، في الأقل، تدرك أمراً واحداً: يقينك بأن اجتماع الكلام في مسكة وسياقة يخلو من القصد، وأنه، في آخر الأمر، يتيح لمعنى ما أن يتبدّى ولكن: أيَ معنى؟

في الأغلب هو المعنى الذي ينتجه توهم القارئ.

توهُمٌ هو سعي الكاتب أو المتكلم، وتوهمٌ أيضاً هو سعي القارئ أو المتلقي سماعاً.

وهمان يصنعان حقيقة؟ بلى، بمقدار ما تصنع الحقيقتان وهماً.

عَرَضٌ زائل. عَرَضٌ حؤول. فإذا كان الكلام يتقوَم بما يكتمه لا بما يفصح عنه، كيف يكون مقول سوى الهذر الذي لا أقصد منه أو فيه، سوى الهذر.

إلى تحوله، يقول التوحيدي إن العقل «خفي الخداع» متحول وخادع ويسلك طريقاً «على الوهم».

ولكن إلى أين تفضي؟ إلى حيث يفضي رسم الطريق على ورق: إلى رسم المكان الذي هو خط وخطط والذي هو خراب المكان أيضاً.

كان موريس بلانشو يقول: إنَّ كل سيرة ذاتية هي احتفال تذكاري لحياة كاتبها. وكان جو بوسكيه يقول: إن الليل إذا حلَّ لا يدرك أنه يُعتم. الكاتب يقيم حياته كتذكار، والليل يضيء ليله. فكيف يصدق القول؟

كذب متصل ووهم مستديم، وقد يكون ذاك قوام الأدب، أقصد طيفه. لأن ما قيل (ويقال) إذا كان من «شدة السيلان» كان هذراً، وإذا كان من «شدة» الإمساك عن القول كان صمتاً.

فما هذا كلّه؟

وهم بوهم، قال ابن عربي.

أوراق لم يتمَّ تصنيفها

آثر المحقّقون أن يُهملوا هذه الورقة لأنَّ نسبتها قد لا تكون صحيحة وقد لا يكون الكاتب، منتحل هذا النصَ، قد أدرجها في كتابه. ولعلَّهم أثابوا في صحَّة نسبتها، لذريعةٍ لا أحد يفهمها. فالأوراق المثبتة، هنا، لم تكتب بما يشي بتجانسها واتّساقها؛ خصوصاً أن ما يلي يُنتحل، سيرةً وعنواناً، من عصورٍ لاحقة (على حدّ الزَّعم)؛ غير أنَّ مقتضيات البحث أرغمتنا على إثباتها في ما يلي، واللهُ وليّ التوفيق.

مُيَاومونَ في تَعَبي

(إلى نجلا

إلى بسام... الصغير)

خُذْ عنّي أرقي

وحُزنَها

وحُمّى جبينه

والمياومين في تَعَبي

وافعل ما تريد

بلى،

لتنشقَّ أرض أو سماء

وليعطش تنينُ المسافة

أو حتّى

ليأخذني النّمل الأسودُ إلى مخابئ حنطته

وأليافه،

ولا أبالي

أقولُ لا أبالي

ولن أخاف العتمَ

ولن أخشى الغولَ الذي كان ظلاماً يتيماً فأراد أن يكون الغول الذي وردت سيرتُه في الكتب.

الكتب التي وصفت أنيابه ولم تصف حزنها؛

والكتب التي وصفت دمامة الغولِ ولم تأتِ على ذكر حمّى جبينه.

خُذْ عنّي إغضاءَ زوجتي هَرَباً،

وسهوها المتمادي؛

خذ كتبي وكتب الآخرين،

خذ محبة أصدقائي، وكراهية الآخرين

خُذْ سوار ابني المذهَّب وخرزته الزرقاء

خُذْ سلسلة المفاتيح، والمرآة المشقوقة،

خُذِ الحلمَ الذي أوشك أن يراودني، أو الثلاجة أو دمية الشرطي على درّاجته والبقرة القماش التي

تخشُ بكراتٍ مُلوَّنة.

خذ الضحكة والعتاب والسَّهوَ المنهوك؛ برنامجي المفضَّل آخر السّهرة؛ كنزتي؛ وساعة اليد؛

رسائلي ومزاجي وألم أضراسي

خُذْ رصاص أضراسي وفضّتها؛ الخدر الخفيف في ذراعي اليُسرى، والصّداع، واليقظة الناقصة، والسَّرير واللَحاف

وتفاحة الـ «غولدن» الأصلية، التي أبقيتها للصباح خارج الثلّاجة.

خُذْ فرحي كلَّه؛ ولامبالاتي؛ ولا تُبقِ شيئاً.

كُنِ اللّه إن شئتَ، فأقول إنك إلهي؛ أو كُنِ الشرير، فأحبُّكَ أيضاً.

أو لا تكن أحداً فلن يبدّل إزراؤك بي شيئاً.

خُذْ هذه السيكارة؛

هذه الكأس

حبّة الأسبرين هذه

جرعة الماء أو نوبة الشعال

آخر رواية قرأتها؛

آخر ميت دفنته،

آخر ضحكة تصدّعت لها الجدران

وخُذْ أيضاً هذا النهار

لا أحتاجه الآن

لم أنم ما يكفي عجوزاً مثلي؛

أقصدُ ساعةً أو ساعتين. وبَلَّلتُ فراشي.

وشربت ماءً وما ارتويت.

وتبعتُ أنفاسي التي ظننتُ أنها الأخيرة حتى ساعات الصباح، ولم تكن الأخيرة، ولم أحزن؛

كان بجانبي نائماً، كأنَّ في حلمه فراشة أو هُدهداً. كأنَّ في حلمه معصية النوم.

خُذْ هذه أيضاً،

النوم والمعصية ومعصية النوم. لا أحتاجها الآن

خُذِ الطاولة والكرسي ومعها النافذة؛ وخذِ الرّواق وترحالي بين جداريه المُستقيمين.

اثنا عشر متراً، فقط وبحسابِ عمري الآن: اثنا عشر ألف ميل وبضعة أمتار لا أذكرها.

قرأت ذات يوم، فيما قرأت وحين قرأت، إنَّ واحدنا لا

يقطع المسافة من ألفِ إلى باءٍ، وإن كانت

أقلّ من فتر مدى الحياة، وإن سِرتَها.

وصدَّقتُ.

كنتُ حَدِثاً حين قرأتُ، وما زلتُ، لكنّي، الآن، لا أقرأ.

حاولتُ، لكنّ الحروف كانت تؤلم عينيَ فأحسبُ (وخطأ حسباني) أنني أبكي.

لا.

لا أحتاجها الآن. ربَّما في وقتٍ آخر؛ غداً أو بعد غد، أو في الخريف المقبلِ لا أدري.

لكنّي لا أحتاجها الآن.

كأن تنهض كلَّ يوم وتغادر. كأن تنام كلّ يوم وتغادر.

كأن تلتقي أحداً عند بابٍ أو ناصية أو مكان وتقول، أو يقول هو: كيفَ حالُك؟ كأنَّه لا يدري.

كأنَّك لا تدري

لا أحتاجها الآن.

سنوات أُمضيها وأمسحُ عنها غبارَ كلِّ يوم.

لا أحتاجها؛ فأنا لا ينقصني أيُّ شيء. إني بخير، حفظتُ الطرقات حفرةً حفرةً، وحفظت أسماء

سائقي سيارات الأجرة، ويافطات المحال وسحن بائعي الجرائد وجنود الإجازات ودَركِ المواصلات

والمفَارق؛

وحفظتُ اسمي حرفاً حرفاً؛ وخطوط كفيَ واحتقان الأسود تحت أظافري، وذقني النابتة، وخُرقة

العينين، والروثمانز الفاخرة، وفناجين القهوة؛

والمزاح، الغضب، وصباحات الخير الموزًّعة كيفما اتفق؛

والوجع المتنقّل في الصدر...

والسهو المتمادي حتى أطرافِ القارَّة...

لذا

خُذْ عنّي أرقي

وحُزنها

وحمّى جبينه

والمياومين في تعبي

وافعل ما تريد.

رمل بسيط

سهوٌ مُتمادٍ واتّساعٌ

قد يكونُ

هو النسيان، أو الوحشة، أو الفقدان.

جمادٌ بلا روح؛

روحٌ تأنف من أن تكون روحاً

فتكونُ انسياباً وجسماً ووهماً

وشخصاً من دون قوام.

المكانُ ليس مكاناً بل هوِ المتاه.

الخارطةُ رسمُ أطفالٍ

كمثلِ ما يبتكرُ ابني أو ابنتي؛

مكان نجهلُ إذا كان مكاناً في الخارطةِ أو في لعبةِ أطفال.

رَمْلٌ واحدٌ وبسيط.

وأمرٌ بسيط.

شخصٌ (يسعى أو لا يسعى) وقفزٌ صعبٌ كمثلِ شُربةِ مياه.

رمل بسيط. أي إنّه الأمر الذي يبقى غفلاً. ليس البحر. ليس الشجرة. امتدادُ الحيرة. فلا يدري واحدنا إذا كان الكثيب هنا، أو هناك ماءُ عطشى؛ أو تذكار ترحال؛ أو حيث بكى السابلةُ دموعاً وصارتْ جفافاً على هيئةِ الرّمل.

رمالٌ بسيطة. شخصُ الوهمِ في صورة.

أمور بسيطة. ولكنَّها حجزُ اللّبس.

ميتٌ وحيَ. حيٌّ وميت.

والأمر البسيطُ مقيمٌ في لبسِ هذا اللّبس.

يقينُ الظلِّ، واليقينُ عراءٌ، إنَّه ظلّ الظلّ. وحيرته أنَّه لا يدري. فمن يجهل الأمر أو الشيء

يجهل أنهما أمر وشيء.

ـ لِمَ لا تتنشقُ هواءً؟

ـ نسيت.

ـ لِمَ لا تحيا؟

ـ نسيت.

ـ لِمَ لا تلمَعُ النجمة والتُّحفةَ والمرآة؟

ـ نسيت.

ـ وما النسيان؟

ـ نعمة أن تفرح؛ ونعمة أن تحزن؛ ونعمة أن تكون لاشيء؛

نعمة أن تنامَ وتحلم:

أمرٌ كمثل الأمور البسيطة.

أمرٌ بسيط وصعب كمثل الرَّمل.

ـ هل ترى المياه في البعيد؟

ـ أرى المياه عطشى. وأرى السَّراب.

ـ قُلْ أين رُوحُكَ؟

ـ كانت هنا، منذ وقتٍ، غير أني لا أحتاجها. فلتذهب بسلام.

كُنْ غريبي يا سيّد..!

«لمْ أهتدِ، في اتّساعٍ يُبدّدني، إلى وثن الشفاء. لا وثَنَ لي ولا ملاذ.» قال الغريب. لم تُحسِن وفادتي ظلالٌ أو رملٌ أو بيوت. أنبتُ أشواكَ الطريقِ على راحتيَ. وسرَّحتُ رغباتي في ربيعةِ ظمأ وجوع.

عطشتُ وجعتُ وأماتني التعبُ لكنَّ الطريقَ التي أفضت بي، أسلمتني إلى طريق،

فلمْ أهتدِ إلى وثنِ الشفاء يا سيّد؛

فلمْ أهتدِ. قال الغريب. [10]

كانت كواسرُ لا تُحصى عدداً وكانت سماءٌ مقفلةٌ ببابٍ ثمّ باب. وشجرةٌ تومئ إليّ قربَ قبر.

كان قبراً وحيداً.

قيل لي، في صغري، إنه ماتَ ثمَّ عاد من الموت. وصدَّقتُ.

وقيل إنه الرجل الذي كان ميتاً. وصدَّقتُ.

لم يكن ميتاً ولم أره. كنتُ أرى ما يُرى. لم أبصر لأني ولدت أعمى. وُلدتُ لا أرى ما يُرى. وولدتُ أرى ما لا يُرى.

أصبحتُ وهماً. شخص السَّراب الذي يرفعُ شخصاً.

والرواة كذبوا. وإذا كنتُ راويةً أحداً، من أصدِّق؟

لم أعِ من قبل أني كاذب. فقط الرواة.

قيل إنّه الرجل الذي كان ميتاً.

لم يصدِّق الغريب لأنه لم يرَ. لأنه رأى. لم يصدِّق.

وكان الغريبُ كلَّما اهتدى إلى حجر أدرك أن بعض السيَّارة سلكَ درباً من الرمالِ إليه.

ومشى مقتفياً أثراً في قلبه؛ أثراً في عينيه.

قال: يا سيّد دُلَّني.

لم يسمع جواباً.

قال: يا سيّد إن لم تدلّني ضلّت قدماي الأثر الزائل. والأثر الزائل هو الطريق.

لم يسمع جواباً.

حطَّ طيرٌ أسود حسِبَ أنَّه غراب، على عودٍ منتصب في الخلاء.

سمع ريحاً تُعوِلُ وجنيّات رملٍ وهواماً وصمتاً مريباً.

من العدمِ المذهَّب إلى العدم الحالكِ الذي هو سماء.

حيث مرَّ ببيوتٍ وأناسٍ وصبية ووحشة أقامت في البيوت، أشار عليه الجمعُ أن يقتفي الأثر الزائل

إلى حيث يفضي، فتكون الطريق.

كانت طريق.

ومشى أياماً لا يدري عدد شموسها وأنجمها. وإذا لاح له شخص السَّراب هرع إليه، فأسلمه

شخص السَّراب إلى طريق.

وقيل إن منتهى الطريق وثن الشِّفاء.

«لم أهتدِ يا سيِّد» قال الغريب.

لم أملك أن أبصر بالمثل: « سراجُ الجسد العين: إن تسلم عينك يغمر النور كلَّ جسدك. وإن تسقم

عينك يغمر الظلام كلّ جسدك. وإن يُظلمُ نورك فيا للظلام!»[11]

«بأمثالٍ أحدّثهم لأنهم مبصرون ولا يبصرون (...)»[12]

«ألأنني مُبصر لم أهتدِ إلى وثنِ الشفاء يا سيِّد؟» سأل الغريب.

صنعتُ لكرمي ما يصنعه الكرَّامون، فأنبتوا العنب ولم تنبت كرمتي إلَّا حصرماً.

وقيل:

«وأخذ يوسف الجسد ولفَّه في كفن نظيف، وأودعه قبراً جديداً كان قد حفره في الصخر، ثمَّ

دحرج حجراً كبيراً على مدخل القبر، ومضى»[13]

«كَنْزُكَ حيثُ قَلبُك» قال[14].

أم إنَّها حكاية أخرى؟

حكاية أخرى؛ أو هي هي الحكاية، لا أدري.

غير أنَّه كان قبراً وحيداً. قال الغريب.

ربَّما بدأت حكاية الرَّمل من موضع آخر. من غيبةٍ أخرى. منَ القفرِ المؤنسِ بالشجنِ الخفيف.

بالشَّجن المنوَّر بالنجوم الخائرة.

«وسمَّاه باسمي» قال الغريب.

الابن سَمِيُّ ما رأيتُ. وما رأيتُ إلّا ما شاء الرَّملُ أن أرى.

إني رمْلٌ ولستُ تراباً.

إني حكاية تُروى.

لكني مشيتُ.

لم يدلَّني النجم. لم تدلَّني العَوْسَجةُ التي ظننتُ أنها نبات. لم تدلّني حجارة البئر. لم تدلّني يدٌ أمسكت بيدي.

لم تدلَّني الأربعون.

لم أكن إلَّا مثلاً. وفسَّرهُ المفسرون طيفاً ساعياً في طريقه... وفسَّره المفسّرون باباً يُطرق؛ أو فسّروه بأنه «الباب الضيّق»،

«كيف أدخل؟» قال الغريب.

كنتُ أبحث عن وثن الشفاء، يا سيِّد. وأضلَّتني الطريقُ فهل تعرفُ طريقاً؟

هل تعرفُ طريقاً تفضي إلى غير السَّراب.

إني أخشى النجاة.

ولم أهتدِ لأني ما أردتُ.

كان قلبي الوثن المستوحدُ في صحراء. وكان كنزي حيث قلبي.

لعلَّك أيها الرَّملُ واهبي قلبي؛ و«كنزك قلبي» فكيف أنجو؟

---

10 ما وردَ في النصِّ المثبت (على ذمّة الراوي) ليس دقيقاً. أو إنَّه دقيق ولا ندري. اللّه أعلم. غير أنَّ أوراق الغريب لا تصرِّح ولاتلمَح، ولا تكنّي. كمثلِ هذه

الورقة.

11 متى 6؛22/23

12 متى:13؛13

13 متى:27؛ 59/60

14 متى: 6؛21

أنتَ منذ اليوم[15]

هناك أمورٌ لا تكتبها، ولا تبوح بها لنفسك، حتى في سرِّك. أمورٌ لا يُجيدها الكلام ويُسكَت عنها، لأنَّها ببساطة لا تُنثر، وإن أردت أن تنثر فلن يتسع لها الكلام.

هذا الكلامُ سراب. فهل رأيتَ سراباً؟ هذا الكلام هراء، كمثلِ سرابٍ أو رمل. فهل رأيت سراباً أو رملاً؟

تقول ما أمكنك أن تسمّي، أما إذا لبثت الأمور والأشياء غفلاً، فكيف تقول؟

من هذه الأمور خرافة اسمها: صحراء.

من هذه الأمور صلتك الغريبة، ولكنِ الحميمة بأشياء تعلم جيداً أنها لم توجد، في الأصل، من أجلك، أو من أجل سواك؛ لم تُصنع خصّيصاً لك أو لاستخدامك. ولن يُبدِّل في طبيعتها ووظائفها أن تكون أنت المعنيّ أو سواك.

أشياءُ ليست لك.

أشياء كمثلِ الأشياء جميعها.

لا تملكها.

وُجِدَتْ هنا أمامك للاستعمال المؤقت. وبعد ذلك تنكرك أو تتنكّر لك، ببرودة تخلو من أيّ قصد.

أشياء من دونك. أشياء قبل أن تكون. وبعد أن ترحل.

لن يتوقف الجدار عن كونه جداراً إن لم تجلس قبالته كلَّ صباحٍ، على الكرسيّ، وراء طاولة الطعام التي

تستخدمها للكتابة.

حائط أملس مطليّ بالأبيض، عارٍ تماماً، إلّا من انعكاسات الضوء التي ترسمها اللمبة المضاءة في الغرفة الخالية إلّا من الطاولة والكرسي.

اللمبة المضاءة على الدوام. لأنك تحجب الخارج بالستارة المسدلة على واجهة الشرفة الزجاجية.

انعكاسات خادعة تجتمع في أشكالٍ متبدلة بحسب حركة يديك ورأسك.

لأنّك هنا، في المسرحِ الذي تبتكره الآن، وأنت خيال الظلّ الوحيد.

الفراغ؟ ليس الفراغ بالتأكيد. إنّه فتنة الرّمل.

أن تكون واحداً وكثيراً. أن تكون المتّسع وأن تكون لاشيء.

الخفة؟ أن تكون قاتلاً وحنوناً، كمثل الرّمل.

أن تكون غُفلاً؛

فإن كنت خيال الظلّ الذي يحرس الرمال، حقّاً، منْ تكون؟

لستَ بالتأكيد الجالس على الكرسي خلف الطاولة، قبالة الحائط، ولستَ المُرتحلَ في وهمِ الصحراء، ولستَ مصدر الضوء والانعكاس، ولستَ الأشكال التي ترتسم متراوحة على صفحة الجدار الأبيض، فما من جدار.

إذاً منْ أنتَ؟ هل رفعك السرابُ شخصاً؟

لست الدمية من خشب أو نسيج أو طين أو شمع،

ولست الخيط الذي يجعلها، برشاقة الحركة، ساعيةً بين مصدر الضوء المسلَّط والشاشة /الجدار.

أنتَ سراب.

ولو كنتَ أحداً بالفعل، لنهضتَ الآن عن كرسيِّك، وابتعدتَ قليلاً لكي تنفض عنك بقايا الرملِ، ويزول ما تراءى لك أنّه انعكاس ضوء اللمبة على الجدار.

أيَ جدار؟

غير أنك، وبرغم كل شيء، لا تنهض ولا تبتعد، بل تقضي ساعة ثمَّ أُخرى بحثاً عن إجابة: إذا كنت أنت، حقّاً، فكيف تكون خيال الظلّ؛ وإذا كنت خيال الظلّ فكيف تكون أنت؟

وإذا كنتهما معاً، في الوقت عينه، يكون أحدك كاتب هذه السطور لا محالة.

ولم تكتب.

أنت تعلم جيّداً أنك جلست لساعاتٍ أمام الورقة البيضاء (التي ظننتَ أنها صحراء) وبقيت بيضاء لأنك استغرقت في التأمل والسؤال: هل أنت أنت، أم أنت سواك، أم خيال الظلّ؟ وإذا كنت هذا الأخير يقيناً لمَا أمكنك أن تكتب، بل لأمكنك أن تصنع سراباً.

أم إن السراب يرفع الشخص الذي هو أنت؟

أحدك يكذب عليك؛ يوهمك أنك أنت بالفعل أنت الجالس على الكرسيّ؛ أنت السائر في الازدحام؛ أنت الضّالَ في طريقٍ لا تفضي؛ وأنت.

إذا هذا أنت. «أنت منذ اليوم» أحدكَ يحجب النور، وأحدك الآخر يرتسم شكلاً على الجدار؛ أما أحدك الأخير فيكتب هذه السطور.

اليقينُ. أخيراً.

أظلمت الغرفة. لعلّه المساء. أو لعلّه الحُلْم الذي لم أره.

الغرفةُ عارية الجدران والبلاط (أذكر أن الفضاء كان طلقاً). طاولة طعام عادية فوقها دفتر مفتوح على صفحةٍ بيضاء بقربه قلم رصاص، مبريّ ومروّس، خلف الطاولة كرسي شاغر. أمام الطاولة جدار مطلي. جدار أملس، عارٍ ومهجور.

وخلاءٌ يشبهُ شغور عينيّ.

وساعة رمل. وساعة رمل.

---

15 هذا العنوان منقول حرفيّاً وعمداً عن رواية الراحل تيمير سبول، الصادرة عام 1968 في طبعةٍ يتيمة ومفقودة.

استدراك

لكنّه ليس كِتاباً؛ عبارة؛ أو ورقة أو كتاب؛

ولكني أعلم أنّه ليس كتاباً.

فمن يُصدّق الأعمى؟

مَنْ يُصدّق مُنتحلَ هذا الكتاب.

الجميع أو لا أحد...

ربّما.

لكنّي لا أصدّق.

أم إنّه السَّراب؟

ربّما؛

ربّما.

آناء اللّيل، وفترة الغفوة التي كان أرقي يمنّ بها عليّ؛

كنتُ أحلم بالكتاب.

خ.ل. بورخيس

المُعجَمُ (متبوعاً بالفهرس)
في اثنتي عشرة مُفرَدة

مُفرَدة

هي الحصاةُ التي توضَعُ على مُفترَقٍ أو درب في اتّساع لا دَرْبَ فيه.

هي اللّفظُ والمعنى وتقديرهما في مسكةِ الكلامِ وفي سياقه.

هي اللامعنى إن انفردت على مساحةِ بياض.

والمعنى إن اجتمعت في عبارةٍ، مهما ضاقت العبارة؛ وفي سَطرٍ؛ وفي جزء.كتابٌ في مطلعه وعلى مشارف الختام.

غريب

من يرى شَخصَه مُبتعداً عنه، مُطرقاً، محنيَّ الرأسِ والكتفين.

وأمامه الطريقُ لا تفضي.

من يعرف الطريقَ جيداً ولا يعرفُ المَقصدَ على الإطلاق.

درب

إن سلكتها لم تَصِلْ؛

إن خطَّها سَيْرُكَ لم تصل؛

مجرَّد وهمٍ بَصَري. وفكرة.

مجرَّد فكرة هي الدَّرب.

حكاية

ما ترويه وتصدِّق أنَّه حقيقة

سيرتك الموزَّعة على المفترقات.

حياتك التي يرويها رواةٌ مختلفون ثمَّ يجمعها الكتاب.

حياتك في الكتاب

ظلّ

غريبٌ مِثلُكَ؛

وقد يكونُ معطف أبي

معلَّقاً على المشجب؛

جَسداً أقام... خارج العتبة؛

ظاهراً لا باطنَ له؛

تشبيهَ الغُفلِ بالغُفل،

مثلُكَ غريبٌ مِثلي.

أبي

السرير من دونه.

الرّواق من دونه.

الكرسي الشاغر على الشُّرفة.

صحراء

ما لا يوجد في الفهارس جميعاً.

ربّما فقط،

في قلبِ امرأةٍ وحيدة،

في قلب رجلٍ وحيد؛

رَمل

(انظر كتابه)

بئر

عينا ميت ترمقاني.

أثر

مُدوَّنةُ الرياحِ على صفحةِ الرَملِ.

كَمِثلِ شخصِ الخُرافَة يُقيمُ في الشَّفاهةِ والتَّجوالِ والبَدَدِ.

زَوَالٌ يغتَلمُه حَجَرٌ.

ليس هو المكان بل غيابه الآسر.

كتاب

تكرار العلامة في سطور؛ وتكرار السطور في ورقة وتكرار الأوراق في جزء... إلخ

والعلامة أثر.

والأثر تكرار الزوال.

مُعجَم

ثبتٌ بجملةِ المفردات وهي لغة المؤلّف التي جَعَلَت هذا الكتاب غير مُمكن.

ثبتٌ بما يُسكتُ عنه.

ألبوم العائلة

يليه

العابرُ في مَنظَرٍ ليليَ لإدوارد هوبر

٢٠٠٣

إلى مروى

إلى بسام ومنار

ألبوم العائلة

«ومساء ذلك اليوم، قال يسوع للتلاميذ:

[اعبروا بنا إلى الضفَة الأخرى]»

(مرقس ٤؛ ٣٥)

١

لم أكن ضالّاً فاهتديت

لم أكن سائلاً فوجدت

كنتُ في شرقِ الحكاية أو غروبها

في مطالعها أو في الختام

لم أكن

٢

الجهة الّتي أفضت بي،

انمحث

أرى حجراً على التلّة

كأنّه ينتظرني

٣

المدينة لم أعرف اسمها

والشارع، ككلّ الشوارع، طويل ومزدحم وقاس

لم يفتح الباب الّذي طرقته

إذ لم يكن بابٌ يفتح في جدار يترامى إلى السماء

عدت أدراجي

فربّما غداً

٤

سألت الرجل الّذي كنته قبل عام

لم لا أراني بينهم؟

٥

تلك زوجتي وهؤلاء أولادي

وتلك هي الحجرة

وشخص الزينة الغريب

والأريكة المزركشة والضياء المصبّر للمبة الألّوجين

والباب المغلق

والأمسية الّتي صارت صاخبة

لم أسأل عن قرص الأسبيرين ولم يلتفت أحد

لمّا غادروا أبقت اللمبة مضاءة

واستلقت على الكنبة

لم تسألني قبل أن تنام:

أتحبّني؟

٦

لا أجدني واقفاً أو جالساً أو ساهياً

لا في أبيض الصورة ولا في أسودها

ويخيّل إليّ، إن شئت انتشال الوقت

من بئره، أنني ربّما كنت خيال ذاك

الشخص المغادر، تاركاً وراءه دخان

سيكارة وكأساً نصفها فارغٌ من النبيذ

٧

منذ عام لم تكن الصورة قد أصبحت قديمة بعد

كانت منار في عامها الأوّل

وكان الرجل الّذي كنته في عامه الأخير

وكانت كلّ سماء صافيةً وكلّ نهار مشرقاً

وكان للرجل متسع من الوقت لكي يقبّل قدم

ابنته الصغيرة،

يقول لها قبل أن تغفو:

أحبّك

٨

كنت في الصورة الكبيرة على الجدار الغربي

لردهة الجلوس

مبتسماً

محدّقاً في الجدار المقابل

وحدي

معهم أو من دونهم

وحدي

٩

لم أجدني في ألبوم العائلة

حين قال أحدهم هاتوه من الصندوق

وراح آخر يمسح الغبار والنسيان عن جِلدِه

١٠

كانوا من حولها كثراً

وكانت تنظر، ساهية، إلى مكان ليس في

الصورة

إلى مكان بعيد

١١

كانت تحذق في المكان البعيد

كأنّها تراني

وكنت أعلم أني، هناك

في المكان البعيد،

حيث تراني

١٢

سألت الرجل الّذي كنته قبل عام:

هل رأيتني هناك؟

كان ألبوم العائلة مقفلاً

مهملاً

على الطاولة

وكانت، بقربه، مغمضةَ العينين

مبتسمة

وكنت هناك

ولم أكن وحدي

١٤

كان الكرسي شاغراً على الشرفة

والصمتُ كثيراً

كان المساء غامراً في الأرجاء كلّها

وراهبات الدير يرتلن لإله منزليّ غامض

لم يأتِ أحد

كان مصباح العتبة يبذل نوره لشخص العتبة

كان انتظاره مضاءً

في المساء الكثير

الشاغر

البلا قلب

١٥

قالت لها:

أنزلي الصورة عن الجدار

وامسحي زجاجها برفق

بالقماشة الحرير الّتي في الخزانة

والإطار

وانتبهي إلى ثنية الياقة وربطة العنق

ورطبي شفتيه

وشعره بالماء البارد

ضعيها على الكنبة، في صدر الدار، قليلاً

وافتحي الباب

فالطقس جميل

١٦

أحياناً

تغطّيه بنسيج أبيض

بشال أو منديل

لم يدرِ أحد منا لماذا

١٧

ربّما الآن أعلم

لماذا دائماً أراه متعباً

ظلال دكنة أسفل العينين

بقيت برغم اللون الّذي أضافته يد المصوّر

ربّما الآن أعلم

لم يكن يوماً جميلاً

كان متعباً فحسب

١٨

لا أدري كيف يكون وجهٌ،

في الصورة،

متعباً

لا أدري إذا كان،

في الصورة،

وجه

١٩

طرف مائدة

أطباق وكؤوس ما زالت نظيفة

أشخاص أعرفهم جيّداً

عند الزاوية اليسرى، على الطاولة

علبة تبغ معدنية وقدّاحة من فضة مطرّقة قديمة

على العلبة مبسم سيكارة عاجي

وكرسي شاغر

كانوا في غيابه

ريثما يعود

٢٠

كم مضى على نظرته الجامدة؟

ما الّذي أبصره لمرّة أخيرة

وبقي ماثلاً في عينيه؟

٢١

لم تغطِّ المرايا

بأغطيةٍ بيضٍ

عند رحيله

خشيةَ ألّا ترحل معه، قالوا

خشية أن يضلَّ الطريق، قالت

صورته،

بالقلبق الفرو،

جعلتها قبالة الأريكة

المطمئنة إلى مخملها النبيذي،

لكي تحادثه،

أحياناً،

بين التكايا المطرّزة برفق،

وهي ترفو قمصانه

ومناديله الناصعة

وسأم اليوم الذي

كان يوماً

ذات يوم

٢٣

ذاك

أنّ وحده العابر

المدرك عبوره

يريد أن يبقى

هاهنا،

حيث الزوال

٢٤

جلبة بيضاء

كما في نومه الجراحيّ

جلبة بيضاء

كما تناهت إلينا،

أمسِ فقط،

من سهوه المتمادي بين عبارتين،

في منتصف عبارة واحدة،

بين صمتِ طويل وصمتِ طويل

خذ معطفه

وقبّعته

وعصاه،

أشياء أمسه،

خذ حيرة عينيه

ورقّة يديه

خذ الألم الّذي لم يبرح جسمه،

واحرص

أن تطرقَ بابي،

كلّ يوم،

ذات يوم

٢٦

جفّت عيناي

لفرط ما أبصرتا جفافاً

جفّت عيناي

٢٧

كلّ

هذا

جفاف

قالت:

٢٨

هات الصورة من الخزانة

واجلس بقربي

واحكِ لي

ما كان

ذات يوم

ثمّ

أعدها، تلك الصور،

إلى الخزانة

واحفظها بين أثوابي وقمصاني وغلالاتي

ومناديلي

واذهب، إذا شئت،

وأغلق الباب وراءك،

أوِ ابقَ، إن شئت، بقربي

أريد الآن أن أنام

قالت:

٣٠

لم أكن هنا،

أوِ هناك،

مجرّد صور لما أردت أن أكون،

لما أراد، هو، أن أكون

لما لم نكن، نحن

ذات يوم

٣١

ذاك

أنّ وحده العابر

إذ يدرك عبورَه،

يريد أن يبقى

قالت:

(... خزانة)

هذه السترة،

هذا القميص،

هذه القبّعة،

هذا المعطف،

هذه المنشفة،

هذا المغلّف،

هذه المفكّرة،

هذا القلم،

هذه المحبرة،

هذا الجراب،

هذه الورقة،

هذا السروال،

هذه الرسالة،

هذا اللاشيء،

هذا المفتاح،

هذه الصورة

... إلخ

لا نبالي بأعوام طويلة،

لأعوام طويلة،

فقط لا نبالي،

لأننا نعلم

أنّها هناك،

تبقى

إن رحلنا

عندما نرحل

بعد أن نرحل

أمسِ

«فإنّنا نحن بنو أمسِ ولا علمَ لنا / إنما

أيامنا ظلَ على الأرض»

(سفر أيوب ٨؛ ٩)

كأنَ صدًى

يتردّد في صوتي

وما عشتُ

كان ذكريات

كأنَ أثراً

تلك الخطى الَتي مشيتُ

مَخواً

تلكَ الدروب

حياةٌ

أمسِ حانت

وبَقيَتُ

في أمسِ

لم أدرِ

أكان ذاك سهواً

في نظرتي الكابية

أم وجهاً قديماً

لا أراه الآن

بل أحياهُ مثلَ ذكرى

لم أدرِ

أكان ذاك شحوباً

في الوجوه الَتي أرى

أم هو النورُ الواهنُ

في عينيَ

لم أدرِ كم أقمتُ على الجدار

قُبالةَ الكَئباتِ الّتي هَرِمَت في

مخملها النبيذي

ولم أدرِ كم أقاموا

قُبالتي

في أمسياتِ ساكنة

حين جعلوا لي حَياتين

لمَا أقمتُ بينهم

ـ لبعض الوقت ـ

ولمَا غادرتهم

حياة

هاهنا

أقضيها مثل ذكرى

وحياة

هناك

للذكرى

إنْ أبصزتَ

١

الناجون لم يرجعوا من رحلتهم

والذين لم تُكتب لهم نجاة

مَثُلَت صوَرُهم، كثيرةً،

على جدران الغرف

وسَكَفلاتِ الخشبِ المطعّم

وفي ألبومات العائلة

لم يرجع الناجون من رحلتهم

لم تكن صورهم، كثيرة،

على جدران الغرف

وفي ألبومات العائلة

كانت العتبات،

وراءهم،

مغمورة بالمياه

٢

أقلّب صفحاته

وليس الماضي ما أعثر عليه

بل هنيهات من يومي، هذا

الّذي، فيه،

أقلّب الصفحات

بحثاً عن هنيهات يومي

٣

قال لي

لن أرحلَ بعيداً إن رحلتُ

رحلتي مشقةُ خطوات

إن أبصرتَ

فأبصر بقلبك

وأصغِ

إذا رأيتُ

٤

وضعتُ الصورة بين صفحاتِ كتابٍ

ثمّ فقدته

ولا أدري الآن

أين كتابه

٥

ذات مساء

كان حديث بيننا

طويل

٦

كان سيرفع النبتة المُغتَرِشة

على ساقٍ خشبية

ويشتري معطفاً آخر قبل حلول الشتاء

كان سيجلس، كلّ يوم،

على الشرفة

ويقول لها:

دعي اللمبة مضاءة أمام الباب

فالليلُ

ليل

كان سيلبث صامتاً

منتبهاً

لأنّ الليلَ

ليل

٧

في مساء

كان صمت بيننا

طويل

٨

ثمّ قال لي:

لم يرجع الناجون من رحلتهم

لعلّهم هناك

كأنْ تقول

كأن تقول

ليسَ الرجل

بل ظلّه المثنيَ أسفل الجدار

عند الزاوية

ظلّه المستريح

المستجدي عند العتبة

السّائر

كالسّابلة على الطريق

كأن تقول

ليس اليد

بل لمستها

الأرقّ من عناقٍ في جوارِ حكاية

الأشفّ من ضياء بعيد

في نافذة بعيدة

كأن تقول

ليس الحانة

بل مسرّات في عين كابية

وفمٍ ثملٍ

وثنيةِ الجسم، وقوفاً،

إلى صخبِ أجسادٍ باذخةِ اللّين

وأسًى مكتومٍ

بضحكاتٍ من هوًى

وطِين

كأن تقول

ليس المرأة

تلك

بل الصمت بينهما،

رحباً،

والكلام بينهما

شارةَ ظِلّيْنِ

أنيقين

وحيدين

يمتزجان بظلّ مقعد

كأن تقول

ليس المقعد

وليس خريف اللمسة

والحديقة

بل الجالس إلى سهوه، محدّثاً،

بقبّعة ومعطف

وصحيفة الأمس

والبرتقالة بجنب سكّين

ومنديل ورقيَ معرّق

كأن تقول

ليس الصباح

بل الصباح الّذي عرفته،

أمس،

بشمسه الحائلة

ويقظته البليدة

ونوافذه

ودواريه

وجلبة مسرّاته

ومُياوميه

وضوئه المُستَغمَل

كأن تقول

ليس التعب

بل اعتيادك المنظر

وقوفاً

عند العتبة

وراء النافذة

خلف الباب

على الكرسيّ

فوق السرير

عابراً

أو

مقيماً

بين الهُنيهاتِ المظنونةِ

لسيرتِك

ألأنك لم تنتبه

منذ بعض الوقت

وما زلت

تستيقظ، كلّ يوم،

في اليوم نفسه

وترى

وتدرك

وتفكّر

وتقول

ما

رأيتَ

وأدركتَ

وفكّرتَ

وقلتَ،

أمسِ،

وما زلت تذكره جيّداً

كأن تقول

ليس هذا

بل ما قاله سواك

في التعب والدروب والظلال

وفي أشياء أخرى

فتطمئنَ

وتبقى اللمبة مطفأةً

وتدخن سيكارة

وتسهو

كأن تقول

ليس أنت بل رجل آخر،

هو،

التقيته صدفة في حانة غريبة

في بلد غريب

بقبّعة ومعطف

وعينين غريبتين، ساهمتين،

وقال: هل عرفتني؟

كأن تقول

ليس رجل الحانة

ليس رجل المرأة

ليس رجل النافذة

ليس الظلّ ولا، حتّى، ظلّه

وليس المقعد

وليس الجدار

كأن تقول

ليس أنتَ،

بقبّعة ومعطف وعينين غريبتين ساهمتين

كأن تقول

أنتَ

أو مجرّد شَبَهٍ

أو ربّما لا تدري

أو ربّما لم تنم جيّداً

ربّما لم ينم جيّداً

لحيةٌ نابتة وعينان مجهدتان ويدٌ مرتعدة

وحانةٌ غريبة

في بلدٍ غريبٍ

أو لا تدري

ربّما لم يأتِ صباحُ بَعْدُ

كأن تقول

ليس هذا كلّه

وتفرك عينيك جيّداً

وصدغيك وجبينك

وتشعل سيكارة

قبل أن تنهض

بعد أن تنهض

وتقول:

كأن تقول

ليس الرجل

بل ظلّه المثنيَ على الجدار

على الحافة

أسفل الجدار

عند الناصية

هناك،

وليس يدري،

وليس أحد يدري

ويشعل سيكارة

الرجلُ

الّذي ظلّه

وليس يدري

أحدٌ

وليسَ أحدٌ

وليسَ أنت

العابرُ في مَنظرٍ ليليَ لإدوارد هُوبر

كان يكفي أن أقلب الصفحة

أن أطفئ لمبة النيون على المكتب

أن أستلقي على الكنبة المجاورة

أن أنام

كان يكفي أن أعبر المسافة كعابر سبيل

بين أقزام العتمة وباقة الأشجار الّتي تقدّمت

في السنّ

ومالت شاكيةً

على الرصيف

والجدران المتداعية

لكي أغادر المشهد

لكي أصل إلى حيث لا أريد

وكان يكفي أن أصغي إلى

الضوء الهارب من

النوافذ المغضية

مبتلّاً بمياه آسنة

لكي أشعر بدفء الهمسات الّتي

تجعل المساء مساء

ملاذاً للمس مطمئنّ وضحكات ومسرّات صغيرة

ملاذاً للعيون الّتي أرخت أجفانها

لتحفظ من نهار الناس بقيّةً

قبل أن يلاشيها النعاس

كان يكفي أن أسير بصحبة الأبواب

المغلقة للحوانيت والأكشاك والعمارات

والنوافذ المسدلة ستائرها

بصحبة الوجوم الغامض لآخر العابرين في النواحي

بصحبة المتكئ -

تزجية لمواقيت الغروب -

إلى صدع بابٍ منوّرٍ بضوء خافت

كأنّه شخصه المتكئ إلى صدعِ بابٍ في صورة هائلةٍ

(في اللوحة خيال جعله ضوء اللمبة وخدري وأكاذيب النافذة والليل شخصاً ليس في هيئة شخص أعرفه، بل في هيئة شخصٍ أراه الآن مبتعداً لعلّه استيقظ من نوم مديد، مثل هذا ضوء لا ينير شيئاً سوى ضوئه وأحاديث يسرّ بها الساهرون، وصمت يشبه الصمت الّذي يردّده خفق نعلين مبتعدين، ويشيعه مصباح من علوّه المستوحد في ساحة عامّة بعد المغيب، ضوء لا ينير من الحجرة إلّا خيطاً أحسبه درباً بين درفتين مواربتين وجدران شاهقة وباب يطرق برجاء المصادفة، باب مغلق في رسمة جدار، جدار مغلق على رسمة مبانٍ صمّاء أو منارة بمزيج ألوان هي تفلُ ضوءٍ، بقيةٌ منه، ضوء مرتجل ليوم مقبل، لاحتفال مهملٍ في الأرجاء وباهت وبارد كأنّه في كتاب).

كان يكفي أن أحيَي عابراً بالتفاتة

أن أصغي إلى خفق عبوره مبتعداً

لأدرك أني أسير إلى حيث يتلاشى الخفق

ولا يصل أحدنا

لكنّ السير هو ما يصنع السّائر

بين أقزامِ العتمة وباقة الأشجار الّتي تقدّمت

في السنّ

ومالت شاكيةً

على الرصيف

والجدران المتداعية

(لا يسير الرجل بمعطفه وقبّعته وحذائه وسوار معصمه وعلبة التبغ في جيب سترته لأنّ باباً ما ينتظره، لا يسير الرجل بسهوه الّذي يشبه حزناً وعينيه المغمضتين لأنّ أحداً عند الباب ينتظره، لا يسير الرجل في ساعات النهار في ساعات الليل لأنّ النهار مشرق لأنّ الليل جميل، لا يسير الرجل لأنّ المسافة بعيدة لأنّ المسافة قريبة لأنّ المسافة في سيره لأنّ الطريق لأنّ البيت لأنّه يرى الطريق في نومه لأنه يرى مشقّة الطريق، لا يسير الرجل كي يقطع المسافة بين هنا وهناك بين هناك وهنا، بل يسير لكي ترتسم بخطوه المسافة ولكي يطمئنّ إلى أنّ المسافة هنا، إلى أنّ المسافة هناك، إلى أنّ البعد كالقربِ إنما هو مشقّة طريق).

كان يكفي أن أرى العتبة عند باب مضاء

أن أرى الأطياف مومئة خلف الستائر المسدلة

أن أسمع جلبة الأواني ترصف على الموائد

المرتجلة

أن ألمح خيال معطف معلّق على مشجب

قبّعة أو مظلّة جَلَبَت من المطر قطرات إلى

الداخل

خلف باب موارب

أن أسمع النداء المكتوم لرجلٍ لم يجد امرأة

واقفة في حلمه

فأدرك أنه حلم يقظة

أن أسمع النداء المكتوم لامرأة تمسّد

بيديها الرقيقتين ثنيّات نهار التعب

نهار السعي

نهار الناس

أن أسمع الأنفاس المطمئنة إلى نومها

الصمت منسدلاً كالغلالة

فوق

أشخاص المساء

(غبار هو فضلة ضوء أو ضوء معار من خدر سابق، وأمكنة لغياب موارئ، يد يخيّل إليها لرقّتها أنها لمسة، وعين ترى الآن ما رأته إلى الأبد ولا تدري من أين يأتيها الذهول، أفكار وصور وأشياء كانت هنا أبداً كمثل هذا المساء، كمثل هذه الأفكار والصور، وكنت هنا على مقربة، في الجوار أو لا أدري أين، وكانت الأفكار والصور من دوني وكان كلّ ما رأيت وما لم أرَ منصاعاً ماثلاً للعين وله قوام وسهوت ولم أجد وقتاً يتسع لهذا الوقت، ولم أنتبه ولم أدرك في سهوي أنني لم أكن شاعراً).

كان يكفي أن أحبَ ما أحبّ

أن أنام

أن أحلم

لكي أستيقظ ذات يوم في لوحة إدوارد هوبر

في أمسياته المستوحدة

لكي أدرك أنّ ما جعلته حياة

فيما مضى

كان ظلّاً للحياة

وصفاً لما حسبت أنه الحياة

لكي أدرك أنّ الحلم حلم

أنّ اليقظة يقظةٌ

أنّ الألم ألم

وكان يكفي أن أعبر تلك المسافة بين باقة

الأشجار الّتي تقدمت في السنّ ومالت شاكية

على الجدران المتداعية

فأدرك أني سرت

لأني لا أريد أن أصل

ولم أسرد حكاية حين أردت

بل ضوءً على جدار

(غير أنّ السير هو ملاذ السائر بقبّعة ومعطف وحقيبة، غير أنّ السير هو وجهة السائر صندوق تذكاراته، خارطة لأماكنه المتخيّلة قاموس لموتاه ومفرداته، كتبه وفرشاة أسنانه وأوراقه وألبوم العائلة).

كان يكفي أن أستلقي على الكنبة

أن أغمض عينيَ

وأسرد لنفسي الحكاية الّتي اعتدت أن أسردها

لابنتي قبل أن تنام

والتي سأسردها غداً لابني قبل أن ينام

كان يكفي أن أستلقي على الكنبة

أن أغمض عينيَ

وأروي لنفسي حكاية الرجل الّذي يستلقي على

الكنبة

وينام

ثمّ يحلم

أنه يحيا أحياناً

ليس كلّ يوم

أنّه يحيا أحياناً

إذا استيقظ في أمسية إدوارد هوبر

فيقول في سرّه إنّه شخص في لوحة إدوارد هوبر

وإذا كان لا أحد يراه فلأنّه دخل لتوّه إلى البيت

هناك وأغلق الباب

وراءه

ولأنّ النوافذ مضاءة ولأنّ الوقت مساء

ولأنّ السائر بقبّعته ومعطفه وحقيبته

ليس هو

بل العابر في ذلك المساء مقتفياً خفق نعليه

والواقف متكئاً إلى صدع الباب المنوّر كأنّه

شخص في لوحة

كأنّه الشخص المتكئ إلى صدع باب منوّر في

لوحة

ومن حوله مبانٍ وعتمة وأشخاص آخرون

ورسمة للبيوت الّتي لا يُفْضى إلى أعتابها

(معبّر لغات وصور ومشاعر وأفكار، مصغٍ إلى عبارة الصمت بلا لغة أكتب حياة الآخرين والآخرون يكتبون حياتي، أكتب ما لم أكتبه بانتحال فاضح وأكتب ما أكتبه إعياءً وإنصاتاً لما يسرّ به خوفي، عماي الخرافي الّذي يبصر من دون أن يبصر بلا عينين بالقلب والحاسة، بلعبة الظلال، على الجدار أمامي وخلفي وفي كلّ جهة، بالمعجم بمعجم الحواس والموتى، بالضحك المكتوم في ساعات الليل، بأكاذيب الليل، بالعبارة الّتي توهم بما تتوهَم أنها تقول، معبّر ظلال لحياة عاشها آخرون وأقاموا فيها ردحاً ثمّ غادروا ثمّ جئت لأصف خواءها لأصف شغورها من الحياة الّتي كانت هنا وغادرت ثمّ جئت لأولّد العبارة عبارات والجدران مرايا والهمس صراخاً، معبّر لغات هي ظلّ لغات، ماضيها، صدى يتردّد بين الجنبات اقتفاء لأصداء متلاشية بين الجنبات قول معاد وباطل، قول مسبوق بقول حياة معارة، كنايات شخوص لم يوجد أيّ منها ومع ذلك أبصرت أثراً ومع ذلك صدّقت وأقمت لكي يبقى المشهد وصرت واحداً منها أكتب ولا أحيا أو أحيا ولا أكتب.

معبّر صمت خرافي يطبق في صمته على كائنات نومي الخرافي ويطبق على كائنات صحوتي، معبّر الحيرة والعي ومعبّر لاشيء، لاشيء على الإطلاق).

كان يكفي أن لا أحيا كلّ يوم

أن أهب بعضاً من نهاراتي لنزلاء الفنادق

والمصحّات

لمياتم الوقت

لغرباء الطريق

لأرومات المكان

(كان نهار الناس مشرقاً والعابرون لا يبالون والباعة ينادون في تجوالهم والحوانيت فاغرة والضوء فاحشاً، والهواة ينظرون إلى اللوحة ويفسّرون ألم العابر فيها، ويجعلون للمساء كناية ولوناً وصحباً ويقولون إنّ الرجل في اللوحة ليس رجلاً، إنّ المرأة في اللوحة ليست امرأة، إنّ النافذة، إنّ الباب، إنّ خيالات اللون، إنّ الظلال...).

كان يكفي أن أحكي لنفسي حكاية الرجل الّذي

نام مستلقياً على الكنبة

واستيقظ حين شاء

في ختام هذه القصيدة

غير أني -

من بين أشياء أخرى -

لم أكن شاعراً

لم أكن

شاعراً

فحسب.

تفسيرُ الرُّخام

٢٠٠٦

«(...) نَزَلَ مَلاكُ الربّ من السماء، وتقدّمَ فدَحرَجَ الحَجَرَ، وجلَسَ عليه»

(متّى: ٢٨: ٢)

الحجرُ هو، بلا ريب، أقلّ أشكال الأبدِ فصاحةً، غير أنه بالتأكيد أكثرها قابليةً للتعيين.

فوقه تنتصبُ صروحنا، وتعصفُ عواصفنا.

عندما يستحيل الحجر شفيفاً، أو الأحرى، عندما تستحيل الشفافية حجراً، تغدو أحلام الأرض قاطبةً قابلةً للقراءة.

الأبدُ يلاعب الأبدَ في عذوبة هذه المرايا الكبيرة الساكنة.

... أسيجةٌ زاحفة.

وماذا لو كانت العاصفة أيضاً في البلوّر؟

(أدمون جابيس ـ «كتاب الهوامش»)

«وحديثي عن الأحجار الأسنّ من الحياة والتي تبقى بعدها على الكواكب الخامدة، عندما يشاء الطالع أن تتفتّح فيها. وحديثي عن الأحجار الّتي لا ينبغي لها حتى أن تنتظر الموت والتي لا حرفة لها إلّا أن تدعَ الرملَ منهمراً على صفحتها، أن تدعَ الهميَ أو الموجة المرتدّة، والعصفَ والزمان.

«الإنسان يحسد دوامَها، صلابتها، عنادَها لمعانها، سهولتها، منعَتَها، وكمالها وإن كانت كسوراً. إنها النار والماء في الشفافية الخالدة عينها، مزار السوسن حيناً ومزار الغبش أحياناً. إنّها لذاك الّذي في راحتهِ حفنةٌ منها تهبُ النقاءَ والبَردَ وبُعدَ الأنجمِ، وما لا يُعَدّ من صفاء السرائر»

(روجيه كايوا ـ «أحجار»)

لم يَقُل لي أحدٌ ما معنى الأسى

(لذكرى منار الشمّاع)

لا أدري ما شَغَفُ الحَجَرِ

الّذي ألَمَّ بي

يوسّدني حَجَرٌ

ويغطّيني حَجَرٌ

وحَجَرٌ أبيضُ

يروي سيرتي

مِنْ فَمِ التراب

(١٩٤٢ ـ ٢٠٠٤)

برقمين فقط

وفاصِلة

لَمْ يفسّر لي أحدٌ من قبل

معنى الترابِ

وكائناتِه الضئيلة

الّتي تدبّ هَهُنا وتحفرُ

كأنّ رميم الغبار والحصى هذا

هو الطريق المفضية إلى سماءٍ

ولا أدري أيّ السماوات قد تسعى إليها

الكائنات الضئيلةُ الّتي تحفُرُ

وئيداً

في عينيّ وسَفعي

ولا أدري ما الحكمةُ من اختصار عمري

برقمين وفاصلة

كأنني، في غفلةٍ، عَبَرْتُ

من ضفَّةٍ إلى ضفَّةٍ

وبينهما مياهُ النسيانِ

ولَم ألمح ـ في عبوري ـ

صورةً تُمحى

أو مكاناً يزول

ولَم يفسّر لي أحدٌ

ما الأسى

ولم أجد في «قَصَص الأنبياء» خَبَراً

عمّا رأيتُ

فالمكانُ هُنا ليس هو المكان

بل خاطرةٌ

تبدّدها اليقظةُ

ولا سُبات هنا

بل يقظاتٌ تنبّهُ اليقظاتِ

ولا أدري إذا كنتُ أعتادُ الموتَ

أو إذا كنتُ ـ في ظنّي ـ مَلكاً يموت:

(«ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلّمهم ولا يدخل عليه أحدٌ (...) ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يُبنى له دارٌ كبيرة فيها عشرون بيتاً ويُحفرُ له في كلّ بيتٍ منها قبر وتُكسَرُ الحجارة حتّى تصير مثل الكحل وتُفرَش فيه وتُطرَح النورةُ فوق ذلك، وتحت الدار والنهرِ نهرٌ كبيرٌ يجري، ويجعلون النهرَ فوق ذلك القبر ويقولون حتّى لا يصل إليه شيطانٌ ولا إنسانٌ ولا دودٌ ولا هوام، وإذا دُفِنَ ضُرِبَت أعناق الذين يدفنونه حتّى لا يُدرى أين قبره من تلك البيوت، ويُسمَى قبرُه الجنّة، ويقولون: قد دَخَلَ الجنّةَ، وتُفرَش البيوت كلّها بالديباج المنسوج بالذهب...»)[16].

---

16 ياقوت الحموي: «معجم البلدان»

للأسى تفاسيرُ كثيرة

من بينها

ـ بحسبِ الأبناء ـ

الطّيرُ والهواءُ

وألوان الطيفِ

والطيفُ ـ مجرّداً ـ

ومن بينها

النارُ والحَجَرُ والتراب

ومخلوقاتٌ عجيبة أخرى

ـ ليسَت الهَوامُّ منها ـ

كالرؤى

والتوهّم

و

السّراب

تفاسير كثيرة

للأختِ المستلقية على السريرِ

بعد ظهرِ الحوادث المتفرّقة

في صحيفة،

بعد مأدبةِ الضيوف

بعد ظُهرِ التعبِ

بين جدران معقّمةِ

بين جدرانٍ كتومة

من بينها
الجرحُ الطفيفُ
تحت الثدي الأيسر
وحفنةُ الأنابيب المغروزة
في الأنفِ وفي الفمِ وفي الساعدِ
وكيس المصلِ
وآلة التنفّسِ الّتي تضخّ الهواء
بمشقّةٍ
بعويلٍ أجشّ،
وكيس الدماء
قطرةً قطرة
ومن بينها
الابن والشقيق
والزوج
والممرّضة
والفساتينُ المهملة في الخزانة
بقربِ المرآة
أو على مسند الكرسي العالي
أمام المرآة
تفاسير كثيرة للأبِ
الفارعِ الألَمِ
والقامةِ

من بينها
المعطفُ والسعالُ والقبّعةُ القَلْبَقُ
والمشيةُ المستقيمةُ
وروائح الصابون وماء الكولونيا
ونظرة حانية
ونظرة ساهيةً
رقيقة كلمسة يد
وللأمَ تفاسيرُ كثيرة
من بينها
حكايةٌ للطفلينِ قبل النوم
والألمُ والكرسيَ المُدَوْلَب
والصحيفةُ
وغيبوبة الحواس
وطبعاً ـ
مِنْ بينها ـ
الموت.
بحسب الأبناء لم يكُن شاقّاً
فكلّ ألمٍ تطيّبُه القراءةُ
وكلّ ذنبٍ يغفرُهُ الغَسْل
قالت الفتاةُ:
سوف تغسلينها بماءٍ صِرفِ
وآياتِ

وسوفَ يُقيمُ طيفُها

في نومكِ

وقال الرّجلُ

حارسُ الترابِ:

يخلدُ المقيمون هَهُنا إلى نومٍ مبكرٍ

وأوانُ الزيارةِ عند الصباحِ الأوَّل

قبيل النهوض إلى مشاغِلِ اليومِ

وكلّ يوم

فالبعضُ يعلّق صوراً تالفةً في الأرجاء

والبعضُ يبكي مِنْ وحشة المكان

وقالَ الرّجلُ

حارسُ التراب:

لكنَّ المكانَ

هَهُنا

ليس هو المكان

قالت الفتاةُ:

الأمُّ مُعتَقَدٌ

وصلواتٌ

وأيّامٌ مُسنَّة

وقالت الفتاة:

الأمُّ وهمٌ نربّيه في قلوبنا أعواماً

ونحفَظُهُ كالحلية على صدورنا

ونذكُرُه ـ إذا استذكرنا ـ

لكنَّ الغَسْلَ محوٌ

قال الرجلُ

حارسُ التراب:

تحلّقوا حول الضريح متلاصِقينَ

فلا سعةً في الأرض

ولا تتركوا أثراً

إنْ غادرتم

وقالَ:

الأمَ ترابٌ ومِنْ ترابٍ

وقالَ:

لا تحزنوا

تفاسيرُ كثيرة للحزنِ

ـ بحسبِ الأبناء ـ

من بينها

اليد الرشيقة الّتي تسرَحُ الشعر

الفم الدافئ الّذي يحكي حكاياتِ الإنس والجنّ

العينان اللامعتان أبداً

والدعاءُ كلّما سَلَك الأبناءُ درباً

والدعاءُ إذا مكث الأبناء

والدعاءُ ـ ثانيةً ـ لكي يُستجابَ الدعاءُ

والنومُ عميقاً على الزندِ المُطمئِنّ

في كَتَفِ الرائحةِ الغريبةِ المُسكرة

والنومُ في العتمةِ

كأنما العتمةُ وساوس مضاءة

بمخلوقاتٍ أليفة

هي خَلْقُ اللهِ

من بينها

الوحشُ والغولُ والسَّربيرس والتنين

ومن بينها

النارُ وممالك النبات والمعدن والحيوان

تفاسيرُ كثيرة

ساذجةُ

ولكن

ليس مِنْ بينها

الموت

لذلك

لم يتعب الولدُ

بل أتاه النعاسُ

حين فَسّرتُ له

الموتَ

والرحلةَ المستحيلةَ

إلى بلادِ الخَزَر

(أوّلاً لأنّ الموت له كنيةُ الحلم لكنّنا نجهل هذه

الكنية.

ثانياً لأنّ الحلم هو الختامُ اليومي للحياة، تمرينٌ بسيطٌ على الموت [...]

وثالثاً لأنّ في إتِلَ، عاصمة الخَزَر، موضعاً يستطيع فيه العابران إذا التقيا أن يتبادلا الاسمَ والمصيرَ، وأن يواصل أحدهما العيشَ في حياة الآخر)[17].

وأتاه النعاس

حين فسّرت له

ـ بإصبعي الراجفةِ على صفحة الكتاب ـ

أسرارَ الكوكبِ

وناديتُ الكوكبَ باسمه

قلت:

«تلك هي العظام»

كأنّني أقرأ في كتابِ جسمي

«وتلك هي العضلات»

ومسالك الدورة الدموية

وهذا رسمُ القلب ـ

الذي يُحبّ

ولو متعباً ـ

وهذا الرأس ـ

الذي يصنعُ الأفكارَ

وهذه اليدُ القليلةُ

اليدُ القديرة

اليدُ الخرقاء

وهذه الساقُ

وعظمُ الساقِ

ووَهَنُ الساق

وهذه القدَمُ ـ

التي تسعى

وقد قيلَ ـ

في الكُتُبِ ـ

إنّ جَمعَ هذا كلِّه

هو

الرفاتُ

لا أدري ما شغَفُ الحَجَرِ

الذي ألمّ بي

حَجرٌ أبيضُ يروي سيرتي

من فمِ الترابِ

ولم يُفسّرَ لي أحدٌ من قَبل

ما معنى التراب

لو كنتُ ملكاً يموتُ

لأدركتُ معنى الترابِ

ورسَمتُ

أوّلاً

أنني ملكٌ يموتُ

لغسلتُ وجهي

وقلَمتُ أظافري

وسرّحتُ شعري

وجَعَلْتُ جثّتي

بجنبِ السريرِ

كأشيائي الأخرى:

العباءة الصيفيّة

الخفّان

علبة الدواء

الساعة والنظّارة

والريموت

الكوب والمناديل

وصورُ الأبناءِ

وقارورة العطر

وناديتُ ابنتي

لكي تطفئ الضوءَ

وتترك البابَ موارباً

لكي أسمعَ ـ إذا غفوتُ ـ

جَلبةَ البيتِ من حولي

لكي لا أكون

على السريرِ

ملكاً يموتُ

بمفرده

كانون الثاني ٢٠٠٥

---

17 ميلوراد بافيتش: «المعجم الخَزَري».

مَزارٌ بِجَنبِ الطريق

إنّي لا شيء

وحديثي عابرٌ،

مِثْلي،

بين عابرينَ،

لذلكَ

أتحدّثُ عنكَ

إنّي أتحدّث عنكَ

لا عن ظلّكَ الجالسِ ـ

وحيداً ـ

تحت سكون الشجرة

عند المفترَق

حيث أعمدة تلغراف قديمة منزوعة الأسلاك،

وعابرون يمرّونَ بِسَهْوِكَ

ولا يلتفتون

إنّي أتحدّث عنكَ

لا عن خيالك الماثل أمام عينيّ

أو منامي

أتحدّث عنكَ

لا عن المصباح الذي يرفع الظلَّ إلى مصاف

الساحراتِ اللواتي كُنَّ

ظلالاً ماكرة

ولا عن الأعراقِ التي استخرجتها الأيدي الحاذقةُ

من جوفِ الأرض،

ولا عن المناجم التي كانت تُسمَى،

في حياةِ أخرى،

ممالك الكدّ

وأهراء الشقاء

لم يبق أحدٌ

لا أحدَ هنا سوى أنتَ

ملاذ الهَاجرين بيوتهم إلى الأبد،

لا أحد هنا،

وملاذُكَ أنتَ مثل هذا الأرق الطويل

لا أحد هنا يحبّ الحجَرَ

أو يأنَس إلى برودتِه

وصمتِه

حتى المناماتِ المُرعِبَةِ لم تُبقِ للحجَرِ معنًى

حتى الشجرة العاقر

لم تثمر يوماً حصاة

(ليس الوعر أرضاً خلاءً بل أبصار موحشة، أو لعلّه الدرب الذي لا يسلكهُ عابرون فتقطنه لكي تؤنسك نفسُكَ وتهتدي بكَ إليها كأنّكَ العلامة، كأنّك رسم شعابِ لوهمٍ يقطن بقاعَ الوهم، وإذ يهتدي إليك مطارِد الأثر والرحّالة والضالّ والظامئ والمنهوك، يضعكَ لغزاً في كتابه لكي يفسّر المفسّرون سرَّك الخالي من المَكْرِ المغطّى بالفضول).

إنّي أتحدّث عنكَ،

بفصاحةِ التوهّمِ،

أنتَ

وحدك الحقيقي،

صامتٌ وباردٌ ومزهوٌ بصمتِك وبَرْدِك،

أنتَ

وحدك الحقيقيَ

وإذا أعيتنا الحيلةُ في أمرِ موتانا

جئنا بتقوانا إليكَ

وَرِعينَ، مُطرقينَ،

مضمومي الأيدي،

متوسّلينَ

أن تكون ملاذاً لذكرياتنا

وحسراتنا

وخشيتنا من كونكَ الملاذ الأخير

(نسيرُ قُدُماً إليكَ باحثين عن العلامة التي بك صارت نُصُباً، نضع باقاتٍ وتذكارات وصوراً، ونضيف حجراً إلى الحجرِ وحصاةً إلى الحصاة، ونترك خبزاً وماءً، ونعود فرحينَ من حيث أتينا لا نحمل لكَ وللموتِ ضغينةً).

إنّي أتحدّث عنكَ

ـ كما يتحدّث أحياءٌ عن أحياءٍ مثلهم ـ

وأتحدّث عن جوفِكَ

الذي هو نارٌ خامدة،

نارٌ باردة،

عن ملمَسِكَ الخشِن الذي يشبه الضغائن الدفينة،

ملمَسِكَ المخادِع

الذي يسري خدراً في الجسم

إنّي أتحدّث عنكَ

أنتَ الحقيقي

عن كتابك الغامض كالمتاهِ

(قيلَ عن مَظهَرٍ لم يذكره الله في كتابِهِ، عن شعوبٍ من الموتى هم غتاذ العبورِ من الضفّة إلى الضفّة، وقيل إنّ ذكرهم جاء مقتَضباً في كتاب هو كتابك، عن كتابك الذي لا يُحصى المحفوظ أجزاء لا تحصى على أرففٍ متداعية في مكتبةٍ متداعية مؤلَفة من حجراتٍ لا تحصى، عن كتابكَ الذي اشتملَ على شعوبٍ من الأسماء، على شعوبٍ من النكراتِ التي لا أحد يعرف يقيناً، إلّا الأبناء والزوجات، إذا كانت هنا حقّاً، ومتى غادرت أو إلى أين غادرت، أسماء، هي أسماء غائبين، دوّنت فيه، بحسب الترتيب الأبجديّ، سيرهم مقتضبة نقلها الرواةُ عن «موسوعة الموتى[18]»، كتابك المتوالد في مجلّداتٍ صارت بيوتاً للعنكبوت التي صارت بيوتاً للغبار، سلسلة غليظة كسلاسل المساجين الغليظة تخترق أطرافَها السفليّة، وتشدّ وثاقها إلى حلقةٍ مثبتة في الجدار، وللزائر أن يقلّب صفحاتها بين هامش الضوء وهامش العتمة وإلّا استحالت صفحاتها غباراً، عن كتابك الذي احتوى سيرةَ أبي، وسيرتي وسيرَ آخرين، مثلي، لم تكن لهم سيرٌ لكي تُكتَب، عن كتابِكَ الذي لا يُشبِه الكتبَ ورآه المفسّر في المنام، ورآه المفسّر في اليقظة، ورأى فيما رآه أنّه كتاب لم يُكتَب).

---

18 لدانيلو كِيش (1935 ـ 1989).

إنّي أتحدّث عنكَ،

لا عن الشواهد والجدران والبيوت والمزارات والصروح

عن الحكمة الموروثة عن سلالتكَ الحجريّة

أتحدّث عنكَ

عن المأثور على قوسِ بابِك:

هنا

جانبُ الظلِّ رَحْبٌ وأبوابُه واسعةٌ والقاصدون كُثُرٌ

وما من طريقٍ إليه

كمنزلٍ ريفيَ وسطَ المروج

لا درب يهتدي إلى بابهِ الضيّق

المتوحّدِ فوق العتبة

لا أنا ولا أنتَ ولا المُبصِرُ في منامِه

ندري ما الخيالات المترائية عند مفترَقٍ قريبٍ بعيدٍ

عائمٍ على صفحةِ السرابِ الذي ترفَعُه العيونُ المترقّبة المتعبة

المتوهّمة:

شخوصٌ نابتةٌ في الوعرِ كمخلوقاتِ التوهّم،

ـ ليست من الإنس

وليست من الجنّ ـ

كأشجار سروٍ مُستنفَدٌ هواؤها

كأعمدة تِلِغراف صامتة،

كأناسٍ ليسوا مثلنا،

نحن أرواح البيوت المطمئنّة،

كأناسٍ

ليسوا مثلكم، أنتم

روّاد السُّبُل الزائلة،

بل كمِثْلِ المقيمين عند المفترق،

جنبَ الطريق،

أهل المزارات التي لا يقصدُها إلّا غرباءُ

حاملين باقاتٍ وزاداً،

وشموعاً توقَدُ مرّةً وحيدة لكي تأخذ الريحُ،

إذا هبّتِ الريحُ،

شُعلتَها،

وتبقى، هناك، شموعاً كأعواد البلّور

المطفأة

سكينةٌ مُطبِقةٌ يرجّها زعيق السيّارات المسرعةِ إلى خُطامِها

إله ساذَجٌ

إلهٌ ساذَجٌ ويافِعٌ وميت

إله ساذَجٌ ـ ويافِعٌ

لأنّه ميت ـ

جَعَلتْ له الأيدي الغريبةُ مزاراً عند المفترق،

كومة أحجار رُفِعَت، مُرتَجَلةً،

بجنبِ الطريقِ،

مطوّقة بباقات وعباراتِ خُطّت على لوحِ مُرتَجَلٍ،

وصورة ـ

ما كانَ لبعض الوقت صورة ـ

في إطارٍ مُرتَجَل

لا أحد هنا،

وهنا

لا تُسمَى القبور ـ

ولو مأهولةً بالموتى ـ

تلك التي يخلّفها المسافرون ـ

قبوراً

بل علامات

لمسافرين سوف يمرّون بها

من بعدهم

ويتركون بجوارها قِربَةَ ماء وأطعمةً وأغطيةً وآثار أقدام،

هنا

لا تُسمَى المواكبُ إليها جنازات بل

أسفار،

لا تُسمَى القبور إلى جانبِ الطريق

ـ ولو غير آهلةٍ ـ

قبوراً

بل مزارات

(كأن يمرّ بها الغريبُ، عابرُ السبيل، ويتركُ بقربها منديلاً، أو شالاً، أو عقب سيكارة، أو حصاةً ينتقيها للذكرى، ويرمي بها فوق كومة الحصباء والأحجار لا ليخلّف أثراً بها ليمحو أثراً فلا المزار علامة ولا الحصاة ولا الغريب).

بيوتٌ مُرتَجلةٌ في العراء

لم تكتمل بعدُ

ولم يقطنها بعدُ

أحد

(كأن لا يكون جدارٌ ومع ذلك، وبرغم ذلك، يُفْتَحُ فيه بابٌ. كأن لا يكون أبٌ وأمٌ وأبناء ومع ذلك، وبرغم ذلك تكون أسرّة وزهريات وكتب ومائدة. كأن لا تكون حجرة المعيشة ومع ذلك، وبرغم ذلك، تكون كَنَبات وإسكملة ولمبة وتلفزيون وأدراج لأوراق الرسائل ودفاتر اليوميّات وأرقام الهواتف والعناوين البريديَة وحساب البقّال وفاتورة الكهرباء وعلبة الأسبيرين والأقلام الحبر والرصاص وإخراج القيد العائلي وجواز السفر القديم وعلبة الملبّس والساعة القديمة وفردة القِرطين المتبقية بانتظار العثور على الأخرى، ومفكّرة الجيب، ومفاتيح كثيرة مبعثرة أو مضمومة في علّاقة ولا أحد يذكر الآن إذا كانت لأبوابٍ وأين هي هذه الأبواب...)

ولا تُسمّى أضرحةً فلا مَن يرقد فيها

مجرّد علاماتِ

يلتفت إليها العابر بسيّارته مُسرِعاً

أو المارّ بها سائراً على القدمين،

ساهياً،

لا أشجار باسقة شاكيةً تحيط بها أو تظلّلها،

لا شواهدَ

لا أسماء

لا أسوار

لا شارات

لا دروبَ

نُصُب عبورٍ خاطف

إذ تمرّ بها مبتعداً

تتضاءلُ رويداً قبل أن يحجبها عن عينيكَ المفترق

قبل أن يحجبكَ عنها

المفترق

أنتَ لا شيءَ

وحديثُكَ عابرٌ، مثلك،

بين عابرين

لذلك

أتحدّث عنّي،

أنا،

العابرُ قليلاً

في ظنِّك

(أيار ٢٠٠٥)

تفسير الرَّخام

١

لا أبالي -

حين أنظرُ،

ساهياً،

من حافّة الخمسين -

بجلبةِ الساعين في شارعٍ عريضٍ،

في الأسفل،

حيثُ الحوانيت،

وسيّارات الأجرة،

ونفرٌ من التلاميذ والأجراء والعاطلين،

ورجال الشرطة،

والآباء الباحثون عن مكانٍ آمن

لكي يودعوا فيه ملذّاتِ السعي،

مشقّاتِ السعي،

كلّ يوم،

ريثما ينقضي نهارُ السعي،

ويلوذُ أقصرهم قامةً

وعمراً

بليلِ الوساوسِ والظنون

لا أبالي -

والوقتُ غروبٌ -

برجالٍ يجرّونَ خيبةَ المشقّاتِ إلى دُورِ مُنارَةِ

بحمّى الرجاءِ

وحدَه

إذا كانَ رجاءً

ولا أبالي -

حين أنظر،

ساهياً -

بأيّامٍ كان ينبغي أن أحياها،

أو يحياها الظلّ الذي كنتهُ،

أو ذاكَ الذي كانَ بصحبتي، لأعوامٍ،

وتنقضي -

الأعوامُ -،

كحوارٍ صامتٍ

كحافلةٍ مسرِعَةٍ،

أمامي،

مكتظّةٍ بالمقيمينَ من دوني، هنا،

أو هناك،

كأنّها ذكرياتُ الشخصِ

الذي وددتُ أن أكونه

كأنّها ذكرياتٌ قرأتها في كتابٍ ثمّ فقدتُه

كتابٍ استعاره صديق ثمّ فقدته،

أو

ربّما بعتهُ لكُتُبيٍّ جوّالٍ

لصانعِ سلالٍ

سوف يحمله إلى أقاصي الأرضِ،

سوفَ يقايضُه برغيفِ خبزٍ

بكأسٍ،

أو حساءٍ ساخن

ولا أبالي -

حين أنظر،

ساهياً -

بي أنا

الذي لا يبالي،

فلا شأنَ لي بما يجري على بعدِ أمتار

على بعد أميالٍ

ومدنٍ

وبحارٍ

وحكاياتٍ،

من بوّابة سهوي

ولا شأنَ لي بمحبةِ من يحبّني أو يمقتني،

إذ جَعَلْتُني،

لأعوامٍ،

مُتفرّجاً على

ميتاتٍ صغيرة،

وذات يومٍ سوف يشفى الحجرُ

منّي

الحجرُ الذي هو موطني،

الذي هو دارتي البعيدة،

أو ربّما قلبي

وقد طالما ظننتُ أنّه المنفى الذي اشتهيتُهُ بعيداً

لا أبالي بي

إذا متُّ أمسِ

أو اليوم

أو اليوم الذي يلي،

ولا أبالي بي

إنْ بقيتُ حيّاً

لأيّامٍ،

لأعوامٍ أخرى

فلم يبقَ ما أصنعهُ

برجائي

وبالشهواتِ التي تبقّت

لم يبقَ ما أصنعُه بمتّسَعِ اليوم، كلّ يوم،

بالحبورِ الأحمق

لعابرين

في أوقاتٍ

شاغرةٍ،

في لغاتِ لا أفهمها

لقسوةِ النَّبرِ والمفردات

كأنَّها جموعٌ في نومي

وأصواتُ جموعٍ لا أفهمها،

أستعير نهاراً آخرَ،

واحداً،

يتّسعُ لكلامي الذي لا يدري ماذا أقول،

لكلامي الذي لا أدري ماذا يقولُ

منذ أعوامٍ طويلة،

لغاتٌ لا أفهمها

بها قسوة النَّبرةِ،

وقسوة الصمتِ،

كأنَّ الصمتَ حجرٌ،

هناكَ،

كأنَّ الصّمتَ من معاني الحجرِ

الأخرى،

التي يكتمها الحجرُ

في قاموسِهِ الحجريِّ،

ولا أبالي

بالحجرِ الأملس ـ

جمادِ الطمأنينة ـ

إذ يفسِّر بعدَ وقت، روحي

فلن أكون،

بأيةِ حالٍ،

هناك،

ولن أكونَ هنا،

لكي أصغي،

بِشَوقٍ،

لتفسير روحي

سأكون ساهياً عنّي،

كَمَن يُمعِنُ التفكير،

جالساً على مقعد الحجَرِ البارد،

في رَدْهةِ الأسى الذي لا يشبه

الأسى

بل يشبِه السهو

الذي لا يسري في الرأسِ

أو العينين،

بل السهو الذي يسري تحت الجلدِ

كالقشعريرة

كغيبوبةِ البياض،

كنعاسِ المنهوكينَ

كتنفّسِ المرضى

كعَثرةٍ في القلبِ

كصَدْعٍ في رخامِ اللامبالاة

البارِدِ كلامبالاةٍ

والبارِدِ كرخامٍ مُصَدَّعٍ

بالعروقِ،

وإنْ وجدتَ كُسوراً منه،

بين الخطى الرقيقةِ

لطيفٍ منزليّ،

(ليس أختاً

أو أباً

بل توأم نومِكَ)

لا تجمعِ الكِسْرَةَ إلى الكِسرةِ

لكي تقول بحبورِ القائلِ:

هذا إناءٌ معافى

أو

هذه الزهريةُ التي حفظت روحي،

لن تبرأ الكسورُ

من ماضي حطامِها،

لن تبرأ الكسورُ

من فتنة لمعانها البارِدِ

كسوراً متناثرةً على البلاط

مبعثرةً

بين الخطى الرقيقةِ

لطيفٍ منزليّ

ربّما كان أختاً

أو أباً

لَكَ

لكنّك لا تبالي

أو كنتَ

فما جدوى أن تصغيَ الآنَ

أو تعلَم

كأنّكَ تصغي

كأنّك تعلم

أو كأنّكَ،

حتّى،

هنا

حين تقول

لا أبالي

فلا أبالي

بلغةٍ وجدتها

في غضونِ عَيشٍ مُباغِت

ولم أدرِ يوماً

ماذا تقولُ لغةٌ وجدتها،

مذهولةً،

في غضونِ عيشي،

لم أدرِ يوماً

ماذا أقول

٢

أيكونُ هذا صمتاً بَسَطتهُ القصصُ كالمفارشِ على

أرضيّاتِ الغُرَفِ والأقبية والمعابرِ،

أو

ذرَفَتْهُ الأعينُ،

منذ دهورٍ،

حينَ سالتِ الأبصارُ مِلحاً على الخرائبِ والرفاتِ؟

«حَجَرٌ

أبيضُ

سهلٌ

(و)

رَخوٌ»

ولم يَسَع الكتابُ تفسيراً

ضوءٌ صَلْبٌ

مُقْفَلُ الجنباتِ

جَعَلهُ البنّاءُ علامةَ الشُبُلِ

معجمَ المسافاتِ

على مُفْتَرَقٍ

أيكونُ خَطواً ضالّاً؟

أيكونُ صمتاً يُشاعُ ويُفشى

كالإثمِ ـ الذي

هو ماضي الكلامِ ـ

في سِيَرِ الشخوصِ

إذ يُثبِتُ الليلُ السّيَرَ والشخوصَ من الوساوس؟

ضوءٌ كالحجارةِ

أصمُّ

مُقْفَلُ الجنباتِ،

(كفيفٌ

رحيمٌ

مُشفِقٌ

محبٌّ

ليّنٌ

حاضنٌ

مُبهَمٌ

بَعيد)

ضوءٌ منشورٌ كالملاءاتِ

تُطوى على مَهلٍ

لكي يستردّها جوفُ الخزائن

بَرْدٌ مقيمٌ في بيوتٍ نائية

عُزلةُ سريرٍ عارٍ في حجرةٍ عارية

(ضوءٌ مُعْتِمٌ

كالحَجَر

حجرٌ مُنيرٌ

كالضوء)

مرآةٌ يُبصرُ الطيفُ فيها

شخصَه

واقفاً

كما الأرومةُ بعد زوالِ الشجرة

كما الرعشةُ بعد فواتِ اللّمسة

ويبصرُ شخصَهُ مُبتَعِداً،

مُبتعداً ولا يرحلُ

مُبتعِداً ولا يقيم

جدران،

جدرانٌ عاليةٌ

أبواب،

أبوابٌ موصَدةٌ،

شرفات،

شرفاتٌ كابيةٌ،

شخوص،

شخوصٌ غفيرة،

في وهمِ المرايا

وأغطيةٌ،

وستائر،

وشموعٌ،

وصلوات،

أغطيةٌ وستائر وشموعٌ وصلواتٌ

وأضرحةٌ،

أضرحةٌ كثيرة،

لأخَواتٍ عَبَرْنَ،

هناكَ،

من وراءِ العتبة،

ثمَّ عُدْنَ شاحباتٍ،

خواءٌ عميقُ الغَوْرِ في أبصارهنَّ

وسهوٌ مديدٌ

وخواءٌ وسهوٌ وصمتٌ

وخواءٌ وسهوٌ وصمتٌ وشحوبٌ

وأضرِحةٌ تستردَ طيفهنَّ العابرَ،

هاهنا،

من وراء العتبة

حيثُ

الأخواتُ أقَفَنَ حُجَراتِ نومِهنَّ

وفَرَشْنَ الأسرَّةَ وباقاتِ الزهور،

ثمَّ أغْمَضْنَ

كمن يُطفئُ النورَ في الحجرةِ ويُغلِقُ بابَها برويّةٍ وراءهُ،

إذ يُغادرُ، هنيهاتٍ، ريثما

يعود،

لمَا يعودُ،

فيشعِل النورَ في الحجرةِ ويغلق بابها وراءه،

إذ يعودُ،

لمَا يعودُ،

ولا يفتقِدُ شيئاً

«حجرٌ

أبيضُ

سهلٌ

(و)

رخوٌ»

لم يجد المفسّرون معنًى لهُ

فأوجدوا سماءً وأرضاً

أرضاً فوقها كِسرةُ سماء

ونحتوا الحجَرَ وأقاموهُ،

وحيداً، فيها

في السَّهلِ أو فوقَ مُرْتَفَعٍ

وسوَّرُوه بجدرانٍ عالية

وأنبتوا الشجرَ الشاكي في جوارِه،

وجعلوا له دَرباً،

درباً موحِشةً،

وفَرَشوا الوَعْرَ وَعراً،

بين البيوتِ وبينه،

وأطلقوا في نواحيهِ الطيرَ والظلّ والحسَراتِ

مكانٌ

ليسَ

هو المكانُ،

(رخامٌ منيرٌ

مثلُ ضوءٍ

ضوءٌ مُغتمٌ

مثلُ الرُّخام)

وكانَ أبي يُبصرهُ

في نومِهِ،

فيَبْسطُهُ

ـ إذا استيقظَ ـ

كما تُبسَطُ الكفُّ

ويُفَسّرهُ

كما يُفَسِّرُ المنام

(نيسان / تشرين الثاني ٢٠٠٣)